مذاهب وشخصيات

حافظ ابراهيم

شاعر القومية العربية

بقلم: محمد هارون الحلو

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

مذاهب وشخصيات

حَافظ ابْراهيمْ

شَاعِرُ القَوْمِيَّةِ العَرَبِيَّة

بقلم : محمد هارون الحلو

بسم الله الرحمن الرحيم

مبل ..

إِذَا اللهُ أَحْيَا أُمَّةً لَنْ يَرُدَّهَا

إِلَى الْمَوْتِ قَهَّارٌ وَلَا مُتَجَبِّرُ

حافظ

انصاف ..

ياحافظ الفصحى ، وحـارس مجدها
وأمـــــام من نجلت من البلغــــاء

مازلت تهتف بالقـــديم وفضـــله
حتى حميت أمـــــانة القدمـــاء

وغدا سيذكرك الزمــــان ولم يزل
للدهـــــر انصاف ، وحسن جــزاء

احمد شوقى

فنون الكتاب

- مبدأ
- انصاف
- لوحات
- تقديم
- الشعلة المقدسة
- ينبوع الادب
- أباريق الوطنية
- يوم العروبة
- صوت حافظ
- القومية العربية
- نبضات القومية ..
- هذه العاطفة
- وهذه الوطنية
- كرامة الفتيان
- الحياة مدرسة
- أن مع العسر يسرا
- غمار جديد
- الشاعر في السودان
- دروس وعبر
- في دار الكتب
- دفاع
- حظ الشعراء
- الشعر ورسالة الأدب
- الرئيس جمال
- كمال الدين حسين
- زكي مبارك
- طه حسين
- المؤسسون الحقيقيون
- قوالب الشعر
- الشعر الجديد
- مدرسة الشعر المنثور
- مهدى علام
- حافظ والشعر الحديث
- الموازين القسط
- الشعر التقليدى
- حافظ والتجديد
- حافظ يفك قيود الشعر
- الفطرة
- الشعراء المتمردون
- الوزن والقافية
- المثل الاعلى للشعر
- الرافعى
- محمد هاشم عطيه
- الجرجانى
- قيود العروض
- تجربة
- الموشحات الأندلسية
- الزجل واللهجات

- رعاية المواهب
- المؤتمرات الأدبية
- شعر منثور
- وحدة القصيدة
- ركام من الشعر
- المثل الأعلى للشعر
- التطور فى الاندلس
- صيداح الوطنية
- شكسبير
- غيرة
- سعد زغلول
- لطفى السيد
- جهاد المرأة
- فكتور هوغو
- مصر والعراق
- شعر لم يف بالقصد
- مزهر الوطنية
- حافظ ومطران
- مصر والشام
- حافظ والجلاء
- حافظ وأسرة محمد على
- حياد الذئب
- لوحة الفنان
- حافظ فى تقويم الباحثين
- المازنى وحماقة الشباب
- دسوقى اباظه وطه حسين
- شوقى وحافظ
- حافظ نشأ شاعرا
- شوقى فى شعر حافظ
- اخوة الآدب واخوة العرب
حاسد .. وعذول
- حديث الناس
- شنشنه العبيد
- الشاعر والزعيم
- مواكب ..
- عاصف يرتمى ..
- فرحمة الله على أمة ..
- نظرات فى الديوان
- الى معشر الكتاب
- لهو كما شاء الصبا
- أبرىء عنه يعفو مذنب ؟
- هجعت ياطير
- فما انت فى مصر
- ذوق !
- ملامح من شخصية الشاعر
- عبرات ..
- ديوان حافظ
- دين الحرية .
- خير أمة

لوحات فنية

بريشة حافظ ابراهيم

إيه يا طير ألا من مسعدٍ ؟

أيها الزهر أفق من سِنةٍ
واصطبح من خمرةٍ لم تعتصرْ
من رحيقٍ أمُّه غاديةٌ
ساقها تحت الدجى روح السحرْ
وانفح الروض بنشرٍ طيبٍ
علّه يوقظ سكان الشجرْ
إنّ بي شوقاً الى ذي غُنّةٍ
يؤنس النفس وقد نام السَمَرْ
إيه يا طير ألا من مسعدٍ
إنني قد شفّني طول السَهرْ
قم وصفق واستحر واسجع ونُحْ
واروعن إسحق مأثوراً الخبرْ
ظهر الفجر وقد عودتني
أن تغنيني إذا الفجر ظهرْ

حافظ ابراهيم

متى أرى الشـــرق..!

متى أرى الشرق أدناه وأبعده
عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
تجري المودة في أعطافه طلقاً
كجرية الماء في أثناء أفنان
ان دام ما نحن فيه من مدابرةٍ
وفتنةٍ بين أجناسٍ وأديان
رأيت رأي المعري حين أرهقه
ما حل بالناس من بغيٍ وعدوان
لا تطهر الأرض من رجس ومن درنٍ
حتى يعاودها نوح بطوفان

حافظ ابراهيم

خير الصنائع

خير الصنائع في الأنام صنيعة
تنبو بحاملها عن الإذلال

واذا النوال أتى ولم يهرق له
ماء الوجوه فذاك خير نوال

من جاد من بعد السؤال فإنه
وهو الجواد . يعد في البخال

إني أرى فقراءكم في حاجة
لو تعلمون لقائل فعال

والمحسنون لهم على إحسانهم
يوم الإثابة عشرة الأمثال

وجزاء رب المحسنين يجل عن
عدّ وعن وزن ، وعن مكيال

حافظ

تغيرت الدنيا

تغيرت الدنيا وقد كان أهلها
يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيرا، وأينقًا
متى يُعْيِها الإيجاف في البيد تظلع
فأصبح لا يرضى البخار مطيةً
ولا السلك في تيّاره المتدفّق
وقد كان كل الأمر تصويب نبلة
فأُصبح بعض الأمر تصويب مدفع
لدى كل شعب في الحوادث عدة
وعدتنا ندب التراث المضيّع
فيا ضيعة الأقلام ان لم نقم بها
دعامة ركن المشرق المتزعزع

حافظ

عزيز علينا..

عزيز علينا يا بني الشرق أن ترى
كواكبه في أفقه غير طلَّع
وأعلامه من فوقه غير خفَّقٍ
وأقلامه من تحتها غير شرَّع
فإن كنت قوالاً كريماً مقاله
فقل في سبيل النيل والشرق أودع

حافظ

أيها الرافلون في حلل الوشي..

أيها الرافلون في حلل الوشي
يجرون للذيول افتخارا
ان فوق العراء قوما جياعا
يتوارون ذلةً وانكسارا
قد شهدنا بالأمس في مصر عرسًا
ملأ العين والفؤاد ابتهارا
سال فيه النضار حتى حسبنا
ان ذاك الفناء يجري نضارا
بات فيه المنعّمون بليلٍ
أخجل الصبح حسنُه فتوارى
يكتسون السرور طورا وطورا
في يد الكأس يخلعون الوقارا

حافظ ابراهيم

مَن لي بحظ النائمين..

أُحياؤنا لا يرزقون بدرهمٍ
وبألفِ ألفٍ ترزقُ الأمواتُ

من لي بحظِّ النائمين بحفرةٍ
قامت على أحجارها الصلواتُ

يسعى الأنام لها ويجري حولها
بحرُ النذور، وتقرأ الآياتُ

ويقال: هذا القطب باب المصطفى
ووسيلةٌ تقضى به الحاجاتُ!

حافظ

سلامة الأذواق

ما البابلية في صفاء مزاجها
والشرب بين تنافس وسباق
بألذ من خلق كريم طاهر
قد مازجته سلامة الأذواق

فإذا رزقت خليقة محمودة
فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

حافظ

عمامة!

لا تحسبنّ العلم ينفع وحده
ما لم يتوجْ ربّه بخلاق
كم عالم مدّ العلوم حبائلا
لوقيعة وقطيعة وفراقِ
وفقيه قوم ظلّ يرصد فقهه
لمكيدة أو مستحلّ طلاق
يمشي وقد نصبت عليه عمامة
كالبرج لكن فوق تلّ نفاق

حافظ

دعوة الى التجديد..

ملأنا طباق الأرض وجدًا ولوعةً
بهندٍ، ودعد، والرباب وبوزع
وملت بنات الشعر منا مواقفًا
بسقط اللوى والرقمتين ولعلع
واقوا امنا فى الشرق قد طال نومهم
وما كان نوم الشعر بالمتوقّع

حافظ ابراهيم

وأديبُ قومٍ..

وأديبِ قومٍ تستحقُّ يمينُهُ
قطعَ الأناملِ أو لظى الإحراقِ
يلهو ويلعبُ بالعقولِ بيانُهُ
فكأنّه في السحرِ رقيةُ راقِ
في كفِّهِ قلمٌ يمجُّ لعابُهُ
سُمّاً وينفثُهُ على الأوراقِ
يردُ الحقائقَ وهي بيضٌ نُصَّعٌ
قُدسيَّةٌ علويَّةُ الإشراقِ
فيردُّها سوداً على جنباتِها
من ظلمةِ التمويهِ ألفُ نطاقِ
لو كانَ ذا خُلُقٍ لأسعدَ قومَهُ
ببيانِهِ ويراعِهِ السبّاقِ

حافظ

وفي الشعر ما يُغني..

ففي الشعر حث الطامعين إلى العلا
وفي الشعر زهد الناسك المتورع
وفي الشعر ما يغني عن السيف وقعه
كما روع الأعداء بيتٌ لأشجع
وفي الشعر إحياء النفوس وريها
وأنت لري النفس أعذب منبع

حافظ

من لي بتربية النساء..

من لي بتربية النساء فإنها
في الشرق علة ذلك الإخفاق

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الأعراق

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا
بين الرجال يجلن في الأسواق

يفعلن أفعال الرجال لواهيا
عن واجبات نواعس الأحداق

في دورهن شئونهن كثيرة
كشئون رب السيف والمزراق

..كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا
في الحجب والتضييق والإرهاق

ليست نساؤكم حلى وجواهرا
خوف الضياع تصان في الأحقاق

فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا
فالشر في التقييد والإطلاق

ربوا البنات على الفضيلة إنها
في الموقفين لهن خير وثاق

حافظ

تقديم

حين نتحدث عن شاعر القومية العربيه ، لا نجد بدا من مصاحبته والسير معه فى درو بالحياة الادبية ، فالحديث ذو شجون .

كما لانجد بدا من الانصراف عنه بين آونه وأخرى لمناقشة رأى من الآراء أو تناول مذهب من المذاهب فيما يتصل بفنه وأدبه .

وفى حياة حافظ مايغنى عن القول فيما نعرفه عن وفائه لمجتمعه وتنكر هذا المجتمع له .

وهذا الذى نسوقه عن حافظ انما هو باقة من باقات التكريم نمايز بها قمة من شوامخ القمم الانسانيه التى ارتبط وجدانها بوجدان الامة العربية .

واضطراب حافظ فى مجتمعه الذى ارتبط به ، وتنفس فيه ، ومنحه كل مواهبه وأصفاه بما حباه الله من ذوق رفيع وفن أصيل . هو ذلك المنهج الذى نحتفل له اليوم فى مذاهب الادب الجاد ، الذى تنادى به « الميثاق » .

فهو الشاعر الذى عاش حياته يسجل أحداث وطنه فى دور ايجابى بناءلم يتوان لحظة عن مشايعته والذود عنه بكل ما آتاه الله من قوة .

ولعلنا ونحن نجنى ثمرات النضال، ونفتح قلوبنا على الحقائق الذهبية التى كانت أحلام الزمان على عهد حافظ نذكر له أنه رسم لوطنه سياسة المستقبل على مدى ربع قرن من الزمان .

لقد كان خيال الشاعر كقلبه أوسع من أن يحيط بما حوله من أحداث وطنه .

فقد انسرح خياله ، وانفسح قلبه الى آمال الامة العربية كلها ، يذود عنها ويرود حلبات نضالها ، ويستفتح لها مواكب النصر ، ورحبات الخلود

فاستحق بذلك ان يكون شاعر القومية العربية على مدى الزمان .

محمد هارون الحلو

الشعلة المقدسة

أى معنى شريف يمكن أن يساوق الفكرة التى اصطلح عليها الادباء الأبيناء فى تعليل النبوغ ؟

هل هو من عمل الانسان وكسبه ، أم أنه هبة يلقاها الانسان ، ويدرج بها فى حياته ؟

أحسب أن السنن الكونية توحى فيما نطالعه من حياتنا ، أن يد الخالق سبحانه تتفضل بهذه المنح الكريمة على الانسان لتربط بها بين الخالق والمخلوق ، بالتأمل والتدبر فى حكمة التنويع فى الخلق ، والتلوين فى الملكات • والوقوف على آيات الله فى الاعجاز ، والابداع ، وتبيان تلك الألواح التى خط فيها القدر بدائعه وأفانينه للنفوس والأرواح .

ولا ارى فى معرض الحديث عن شاعرنا ، « حافظ ابراهيم » أن نسرف فى تناول النظريات الحديثة ، والآراء المتصلة بتعليل العبقرية والنبوغ فان الحديث عن الادب عامة، والشعر خاصة، ينبغى أن يكون سائغا سهل المتناول ليتسق مع ما يبتدعه الأدب من أفانين ، وما يتركه من أثر فى تربية الوجدان ، وصقل المشاعر ، وامتاع الذوق .

وحسب الشعر العربى صفاء أنه يصادق القلب ، ويوائم الفطرة فيأتى الجيد منه بالحكمة الرائعة ، والمثل الشرود •

وعمل الشاعر ، هو التحليق ، والسمو ، ثم الفيض بالرائق الخلاب . فالشاعر هو الفنان الموهوب ، هو المبتدع الخلاق . .

والشعر هو ذلك النغم الاقدس الذى يوقعه الشاعر على قيثارته، فتطرب له المشاعر ، وتحس بنبض الحياة وخفقها ، وومضات الحسن والاشراق فى لألاء سحرها ، فتهتز له القلوب وتهيم فى نشوة الأحلام،

والعمل الفنى الخالد ، هو تلك الأنشودة العذبة التى يقف أمامها القلب فى ظمأ والتياع سهمان حيران •

هو حديقة الزهر الناضر تبتسم فتخشع العيون لجمالها ، ويأخذها الاعجاب ، ويرق الجمال ، ويدق الحسن ، فتسجد القلوب للصانع البديع فى صوغه لهذا النسق العالى من ملامح الحسن والانسجام .

هو السحر الذى أشار اليه القرآن الكريم فيما حكاه عن رب العالمين ، على لسان الذواقة ، من دهاقين الادب ، ولهاميم البيان ، حين أخذتهم روعة البيان فى اعجاز القرآن فلم يصدعوا للحق اذ جاءهم على لسان الرسول الكريم ، فقالوا : ساحر ، ووصفوا ما آتاه الله من

حكمة ، وما اصفاه به من هدى ،وهم يخادعون أنفسهم ، يلجلجون بالباطل ، ويومئون الى الشعر فيقولون « ان هذا الا سحر يؤثر »

ينبوع الادب

وملكة الاديب ، من أرفع المنح السماوية التى اختص الله سبحانه بها من أراد له الكرامة والتشريف من الجنس البشرى

وهى احدى القوى التى زودت بها الطبيعة الحياة الأدبية والفنية ما تستعليان به وتنهضان الى المستوى المرموق .

وعندما تصبح تلك الملكة الفطرية قوة فكريه ، بالتدريب ، والمران على معالجة شتى الموضوعات تصبح أقوى عامل ، وأدق ميزان لدفع حياة الشعوب والأمم الى الامام .

وينبوع الأدب يدفق بخوالج النفوس ، ويفيض بمشاعر القلوب ، يدفق بما يوائم الأحاسيس العامة والفطر المستقيمة ، ويفيض بكل ما يستعلى بالانسانية ويرقى بها . وذلك اذا سار فى الطريق الطبيعى له بدون عوج ، أو انحراف .

وقد يكون من تأويل قول الله سبحانه ، فى كتابه الكريم ، أو تطبيق ماترمى اليه الآية الشريفة « ومايعلم جنود ربك الا هو » ، على تلك الطاقات الأدبية والمواهب اللامعة ، وهى تهيىء الاذهان ، وتدفع المجموعات الى النهوض والعمل والسعى ، بل والى الثورة وهدم أركان الزيغ والضلالات .

وحكمة المختار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نزلت فى روح الأدب الرفيع الذى يهز النفس ، ويحفز الى العمل ، ويدعو الى المثل العليا .

فكيف اذن نعطل هذه القوى الهائلة ، ولا نفيد من اشعاعاتها ، وما ذخرته من قوى عارمة ؟

أيمكن أن نحد من انبثاق هذا الشعاع ذلك الذى يشرق ويتألق ، ويشق طريقه في هداية الحياة ، وتوجيهها ؟

كيف نفرض على الأديب الا يعالج نوعا ما من أفانين الحياة الى حيث يتجه وجهة ترسم له حدودها ، وتحدد له اقطارها ؟

والأديب خير جندى مسلح يفتح الفتوح على أسلوب لا يعدله فيه جيش ولا سلطان .

وزكاة الخالق على الأديب تفرض عليه أن يشارك بنى جنسه ووطنه فيما يعتمل حياتهم فهو جندى وطنه ، وسلاحه ، وذخيرته ، بل وسلطانه، وصولجانه .

ولم يشــهد التــاريخ فتحا مبينــا كما شــهد فتوحات الادباء وانتصاراتهم ..

يقول الدكتور طه حسـين فى حـديث له عن الأدب والقوميـة العربية ، ذلك الحديث الذى أدلى به عام ١٩٥٧ ، فى مؤتمر أدباء العروبة

« الشىء الذى أسـتطيع أن أؤكـده ... وأنا مطمئن الى أنى لاأتجاوز الحق هو أن كل هـذه الأحداث ـ مشـيرا الى أحداث الشرق وبعث القومية العربية ـ انما أنشأتهـا الثقافة ، وأنشـأها الأدب ، والمؤسسون الحقيقيون لكل هذه الثورات انما هم الادباء ، والكتاب ، والشعراء .

ولا شىء غير هؤلاء »

أباريق الوطنية

وحين نحاول أن نجلى للقارىء الكريم صفحة مشرقة من تلك الشعلة المقدسة التى اختص القدر بهـا شاعرنا « حافظ » ليكون مركزا لاشعاعها تنبثق عنه تلك الطاقات المضيئة الهادية . حين نتحدث عن شاعر الحرية هذا ، لانجد بدا من الوقوف معه فى الدروب الوعرة التى سلكها فى حياته ، لنرى مع الرائين كيف نبع هـذا الينبوع ، وتفجـر بسلسال من البيـان العـذب الرائق ، وكيف كان الندمان يلتقون على أباريق الوطنية ، ينسمون من رياها ما يلذ لهم ويطيب ، ثم ينفضون وقد برقت أساريرهم عن فكرة جديدة أو خطرة نابضـة ، فاذا بين يدى القارىء العربى كتاب « جديد » يحدثنا عن شاعرنا المختار .

يوم العـروبة

يجتمـع ندامى الأدب على شئون ، وشـجون ، يجتمعون على يوم من أيام الشرق الحـافلة بأمجاده ، ويتـذاكرون أيام العرب الخـالدة . ويربطون ذلك بيوم العروبة الجديد وماسجله تاريخنا عنهم من صفحات مشرقات . ذلك هو يوم القناة .

وقد اسـتخلصت مصر حقوقها كاملة من المغتصب ، مضحية مفتدية ما وسعتها التضحية والفداء .

صوت حافظ

ويتردد على اسماعهم فى ذلك اليوم هتاف « حبيب » من الشرق انه أذان الحرية نداء من السـماء . فيتذاكرون مزمورا من مزامير الكنانة

وقيثارا من قيثار الوطنية قطع عمره يعزف بنشيده الخالد ، ويرجعه ، ويدق بصداه على القلوب والمشاعر يستثير الحمية ، ويستنهض الهمة ، ويهيب بقومه ، حتى اذا ما استنفد سنى حياته ، كان قد وعى عنه التاريخ ماوعى .

تذاكر الندمان ، هذه الأوتار المشجية ، واستعادوا ذلك النداء الصادح فأصاخوا الى اللحن ، وأرهفوا الى الصدى .

القوميّة العربيّة

وحين أشير الى مافطنت اليه الامة العربية من التفات الى هذه الثروة الضخمة من التراث الأدبي ، الذى يمكن الانتفاع به فى رسم مستقبل أمة مجيدة ، وتخطيط هذا المستقبل مما يصلح من هذا التراث ، بل واضاءة الطريق أمام المذخور من هذه الكنوز فى قرائح المفكرين ، ورجالات الأدب ، واثارة خواطرهم لاضاءة المشاعل أمام الجيل الجديد والأمة العربيه ، وهى تنشط فى تكتيل قواها متحدة نحو عدوها ، لاشك واجدة نفسها أحوج ما تكون الى الافادة من تلك القوى الروحية التى تستطيع بها أن تواجه احتياجات الشعب وتربيته وتلفته الى الغاية وتقطع الطريق على أساليب المستعمر وختاله ، وحماية الشعب من سمومه ، وآثامه التى ينفثها فى جميع الميادين ، وبوسائله المختلفة فى شتى صورها ، ومنها شراء الأقلام ، أو محاولة ذلك ، لتفل من سلاح النصر ، وتعوق التقدم فى الزحف .

آمنت طوائف الشعب العربى ، وحكوماته الوطنية بالرابطة الجامعة التى تبعثهم على غاية واحدة واذ وجدوا أن هذه القومية هى المارد الجبار الذى يرتعد من رهبته العدو الفاشم هبوا جميعا لارساء الدعائم ، واستكمال أسباب السيادة ، والعزة لهذه القومية الجامعة .

نبضات القومية في شعر حافظ

واذا كان شاعرنا قد عاش عمره يتغنى بأمجاد هذه القومية ، بل ويسرف فى اثارة المشاعر والاحاسيس لاعزازها، فانه وبعد أن استأثريه الله سبحانه الى جواره ، وعلى ربع قرن من الزمان بعد وفاته يقف معنا وقفاته الرائعة فى غمار الهول ، ووقدة البأس ، يسقى المستعمر بأناشيده المجلجلة ، وحماسه المتدفق . كأس الخسران مترعا .

أجل ، وقف حافظ بيتنا فى محنة القتال يستصرخ شعبه ، وعروبته بقوة روحية خارقة لا تعدلها قوة الجيوش الكرارة ذات المراس الشديد .

كان صوت حافظ يصون الجبهة الداخلية للقومية العربية ، ويشد على كل متخاذل رعديد ، وما فى الأمة العربية الوفية متخلف ، كانت العروبة تتكتل للنصر ، وتؤازر مصر فى محنتها . وأذان حافظ ابراهيم يدوى فى سمع العروبة :

انا ان قدر الاله مماتى   لاترى الشرق يرفع الراس بعدى

ويثب الشعب يظاهر الجيش ، وتقف المرأة الى جانب الرجل ، وتنشط وسائل التدمير والتخريب لانزال الخسائر بجيش الطغيان ، وتدمير خطوطه ووسائله . فيهتف النشيد بصوت الفخر :

أنا تاج العلاء فى مفرق الشر   ق ودراته فرائد عقدى

مارمانى رام ، وراح سليما   من قديم ، عناية الله جندى

ويهتز هذا الصوت الاطهر بالحجة الدامغة يخاطب الضمير العالمى فى الأمم المتحدة ، حيث يجتمع أعضاؤها ثم ينفضون حول النظر فى ذلك العدوان الغاشم فيخاطبهم حافظ بمنطق فاضح للظلم . والعدوان :

أمن العدل انهم يردون الما   ء صفوا وأن يكدر وردى

أمن الحق أنهم يطلقون الاسد   منهم ، وأن تقيد أسدى

ثم يثبت قلوب المفتدين بهتافه :

نظر الله لى فأرشد أبنا   ئى فشدوا الى العلا أى شد

انما الحق قوة من قوى الد   يان أمضى من كل أبيض هندى

ثم يحيى أبطال الجهاد فى روعة البيان العربى :

قد وعدت العلا بكل ابى   من رجالى ، فانجزوا اليوم وعدى

عاش معنا حافظ ، وأخذ مكانه من جيش التحرير ، ومضى مع الاوفياء يقرع الحجة بالحجة وأخذت العــروبة تتراص أمام العدو ، فى زحف باسل ، وهل هناك أروع من الهزج المشبوب بالحماس الواغل فى التحدى يفزع أشياع هؤلاء المعتدين ، ويروع قلب الغاشم المستبد:

وقف الخلق ينظرون جميعــا   كيف أبنى قواعد المجد وحـدى
وبناة الاهرام فى سـالف الدهر   كفونى الكلام عند التحــدي

بهذه الشعلة المقدسة جاء حافظ ابراهيم ، منحــة سـماوية ، خص الله بها قلب العروبة ، ذخيرة حية ، وسـلاحا مرهــوبا ، وفرق كبير بين سلاح وسلاح ، فسلاح الميدان يعمل عمله فى المعارك وقـد يذهب بددا ، أما هذا السلاح ، سلاح التعبئةالروحية .. سلاح الشاعر فهو قوة رهيبة تخترق الحصار ، وتنفذ الى الصميم ، وتخـلد على مدى الزمان .

كذلك كان حافظ سلاحا بارقا يعمل عمله ، والمستعمر جاثم فى أرباض الوطن على عهد الاحتلال ، كالنار المبثوثة فى الرماد . وفى الجد يزأر زئير الليث الباطش ، ويهدر هدير الاعصار المدمر .

فقد كان أذان حافظ على الشباب المصرى دعاء يحدو قلوبهم ونداء يقرع سمعهم ، وهو يخاطبهم ويلمح للغاصب بأن مصر يقظه ، ولن تؤخذ عن غرة بقوله :

مضى زمن التنويم يامصر ، وانقضى
ففى مصر أيقاظ على النيل تسـهر

ويصل الى قمة الاعجاز والابداع حين يصدع العدو بهذه الصيحة

اذا الله أحيــا أمة لن يردهــا
الى المــوت قهــار ولا متجــبر

ثم يتلفت على الشبيبة المذخورة لجلائل الاعمال :

رجال الغــد المأمول انا بحاجـة
الى قادة تبنى وشــعب يعمــر

رجال الغــد المأمول انا بحاجــة
الى حــكمة تملى وكف تحــرر

رجال الغــد المأمول انا بحاجــة
اليكم فسدوا النقص فينا وشمروا

رجال الغـــد المأمول ان بـــلادكم
تناشــــــــدكم بالله أن تتذكروا

عليـــكم حقوق للبـلاد ، أجلهـــا
تعهد روض العـلم ، فالروض مقفر

قصارى منى أوطانـكم أن ترى لكم
يدا تبتنى مجدا . ورأســا يفـكر

فـــكونوا رجالا عاملين أعـــزة
وصونوا حمى أوطانــكم تتحــرروا

ثم يلهم الحكمة الفاصلة فى قوله :

فما ضـــاع حق لم ينم عنه أهله
ولا ناله فى العالمـــين مقصـــر

العرق دساس ..

كان حافظ صادق النظر فى تصــــويره لأحوال الشــعوب ، وما تلاقيه من نكال على أيــدى الطغــاة من حكامهـــا • كان يحس بأن دخيلة الشعوب العربية والاسلامية وهواها فى التضام وكان يدرك ان الحكام غير الوطنيين من عملاء المستعمرين ينزعون لصوالحهم الشخصية وأطماعهم وكانت الدائرة تدور على هؤلاء الخونة ، وتنجو قضايا الشعوب

وذلك كان حال الترك :

وأدال من عبــد الحميد لشــــعبه
فهوى ، وحاول أن يعــود فأخفقا .

امسى يبــــالى حارســـا من جنـــده
ولقد يكون ، وما يبـــالى الفيلقـــا

فاعجب معى لفراسة هذا الشاعر الوطنى ، وتسجيله لأحـــداث التاريخ الكبرى ، واستعد معى ذكريات الشعوب ، ومواقف حكامها المتسلطين • والتاريخ يعيد نفسه •

فهاك موقف حكام الترك منا فى مطلع القرن العشرين ، وبالتحديد قبل خمسين عاما من تأميم القنال ذاك هو موقف « عبد الحميد » سلطان الترك من القنال فى قول الشاعر :

حصدت مناجله غراس رجائنـــــا
ولو أنهـــا أبقت عليه لأورقـــا

وأتى يســـــاوم فى القناة خــديعة
ولوانهـــا تمت لتم بها الشــــــقا

حقا ان العرق دساس ـــ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

***

وطالما بكى صاحبنا (حافظ) فى التياع وحسرة لمصاب يلم بشقيقة عربية •

أى نار تلك التى تؤج فى صـــــدر الشاعر هـــــذا الباكى الثاكل ، وهو يزفر حسرة وألما ويخاطب دولة الطليان حين أغارت على طرابلس عام ١٩١٢ !!

كبلوهـــــم ، قتلوهـــــم ، مثلوا
بذوات الخـــــدر طاحوا باليتامى

فماذا بالله ابقوا ؟! واى اسراف فى العدوان والتشفى فى الانتقام وعلام هذا الظلم أيها الغرب ؟!

كشـــفوا عن نية الغـــرب لنـــــا
وجلوا عن أفـــق الشرق الظـــلاما

نقـــــرأناها ســــطورا من دم
اقســـمت تلتهم الشرق التهـــــاما

ويصور القسوة الوحشـــية والعنف وهو يقارن ، بين قذائف البركان من قذائف البطش والظلم :

لم يـــكن فيزوف أدهى حممـــــا
من كـــرات تنفث الموت الزؤامـــا

ايه يا فيزوف نم عنهـــم فقـــد
نفضت افريقيا عنهـــا المنـــاما

ويخاطب الوحدة بقوله :

ياقـــوم انجيـــل عيسى	وامـــة القـــرآن
لا تقتلوا الدهر حقـــدا	فالملـــك للديـــان

يمثل هذا النغم المستعذب ، وفى مثل هذه الروحية المنسرحة عن وفاء وايمان ، كان يضرم الشاعر النار فى الهشيم ، ولا تغمض له عـــين الا اذا بكى ، واستبكى ، وأثار ، واستثار ، ونهض ، واستنهض وبذر فى الشرق بذور التحرير • ومضى يسقى شجرة الحرية ، ودوحة القومية فقد هدته حاسته الصادقة ، وفطرته السليمة وعروبته الصريحة ، وفراسته بأن القومية العربية هى حصن الأمان • والمـــارد الجبار الذى يرتعد له المستعمر •

أبى حافظ أن ينام وادعا فى قبره ، والعروبة فى محنتها تغالب الشر وتجاهد الشره • فمضت روحه تنشـــد أناشيد الحرية ، فتستاق الجموع الزاخرة من الشعب الأبى الى ساحات البطولة ، والفداء •

هذه العاطفة

مضى حافظ يرسم لنا في شعره معالم الطريق ، ويستن للعروبة خير السنن ، فعاطفته المشبوبة ، صادقة الحس ، أمينة التعبير ، وذوقه من الدقة ، بحيث يلتقى مع الفطر الصحيحة من نفوس قرائه ومواطنيه ، يأخذهم العجب ببراعته ، والتقدير لفنه والتحليق بمذهبه ، انهـا عاطفة الوطنية التى صهرتها الأحداث وحنكتها التجارب ، وأعتورتهـا السنون

ولقد كان شـاعرنا ينفس عن نفسه بروح الدعابة والفكاهة فى مجالسه وسمره بين ندمائه فاذا ماتحمس لتسجيل حادثة اهتزت لها جوانب نفسه ، جاء بالسحر الحلال من القول ، وبالمثل الشرود من المعانى ، ونفض عن نفسه تلك السخرية اللاذعة الى حيث الجد الصراح

أن عروبته الخالصة ، ومصريته الصريحة ، وقـوميته العتيدة لم تكن جميعا لتدع له فى مجال الجد بقية من عبث أو لهو ، ومن هنا كان حافظ شاعر الوطنية فى عصره ، غير مدافع . وكانت عاطفته طاغية بتلك الترنيمات الخالدة .

لقد كان يدافع عن وطنه وعن عروبته ، بالقدر الذى كان يسمح له بالحجاج والقراع ، وحسبه وقد أسرف فى كل ذلك ، أن يتوج تاريخ مصر بهذه اللمحات الصادقة التى تبهر العـالم ، حيث يتطلع الى شاعر مصر ، وهو يكتب الأحداث الكبرى ، ويوقع بمزهره أنغـام شعبه وهى حبيسة فى صدر أمته ، خشية بطش المستعمر ، وجبروته .

أجل لقد سجل حافظ كل ذلك فى شعره ، وهو ينطوى على روح من روح الزعامات الموجهة فلم يكن يبكى ويستبكى فحسب ، وانمـا كان يرسم ويخطط ، ويدفع ويناشد ، ويلاحى ، ويحاجى .

(يريد منا أن نتبوأ مقعدنا بين الأمم ، وأن نرفع عنا نير الاحتلال ، وأن يتعادل الشرق والغرب وأن تكون حياتنـا الاجتماعية خيرا مما هى ، فلا تواكل ، ولا استنامة ولا خنوع ، ونحو ذلك من وجوه الاصلاح) .

كما يشير الاستاذ أحمد أمين . فيما سجله عن حافظ فى مقدمة ديوانه .

وهذه الوطنية ..

أما وطنية حافظ ، فلا يكفى أن نلم بهـــا فيما ألمعنا من حديث عن جانب من عاطفته ، فان وطنية حافظ مدرسة، لا ، بل شعلة متقدة ، وكان لهب هذه الشعلة ينبثق أخيرا من عصره الذى كان يعيش فيه .

أما فطرته ، فانه نزع بقوميته بوجه عام ، وبمصريته بوجه خاص الى حب هذا الوطن فقد شب فى أحضانه ، وترعرع فى ضفافه ، واكتسب مقومات المواطن الصالح . انه مصرى تقلب فى شعاب الوادي ، وعبر شطريه مصره وسودانه ، والتقى بآماله وآلامه ، حفظ أغانيه ، وترنــح بأشجانه ، واستظل بصفائه ، وسمائه .

فصادفت فطرته الاسلامية وعروبته العربية بمـــا فيهما من مناقب وأمجاد ، هذا الغذاء الموائم لمثل هذه الفطرة العليا .

واذا كان والده « ابراهيم افندى » مهندسا يخطط السبل العامة، ويشيد المعابر ، والقناطر . ويهدى طريق النيل فى انسياب خلجـــانه بمصر العليا فقد جاء حافظ صورة من والده ، يخطط ويمهد ، ويرسم ولكن فارقا واضحا وبونا شاسعا بين الوالد والولد .

فقد كان حافظ يخطط اهداف امة ، ويرسم غايات شعب ، ويمهد طريقا الى حضـــارة وعزة واذا كان أبوه مصريا صريح الأرومة فى مصريته ، فكذلك كان ابنه « حافظا » بعيدا فى استمساكه بهذه الآصرة المقــدسة . فقد كان وفاؤه لمصر وللعروبة مذهبا ، نلقبه نحن بالوطنية وهى التطرف فى الوفاء والاغراق فى السخاء . فلم ينزع اليه من العرق التركى عن أمه مايشوب النوازع العليـــا من مصريته . فقد كانت أمه تركية، وكان جده لامه آنذاك (أمين الصرة فى الحج) ولعل «أمير الحج» هذا على عصره كان مصدر الاشعاع الدينى فى حياة الشـــاعر اذ أن حنين الشاعر الى صحبة الاخيـار من رجال الدين وقادة النهضة العربية ما كان ليجىء الا من بيت له بذلك اللواء المضىء ومضات وتلماح .

ولعل ما جاء فى شعر حافظ مما ترنح به من صبوات نحو الترك ، انما كان تمجيدا لشأو الاسلام . الذى كان يتمثل فى الخلافة الاسلامية . وهى قائمة فى بيت السلاطين !

ولى أمر الولد بعد وفاة والده خاله ، وانتقـــل الطفل من ديروط فى الصعيد ـ حيث ولد ـ الى القاهرة . حيث يقيم راعيه الجديد الذى دفع به الى مدارس تشابه مدارس « محو الأمية » على عهدنا وهى المرحلة الابتدائية ، فدخل المدرسة الخيرية بالقلعة ، ثم القربية ، ثم المبتديان .

وختم طوافه بالسفر لاقليم آخر حيث ضرورة العيش فأقام مع خاله (بطنطا) أى أنه انتقل من الصعيد الى القاهرة ثم الى قلب الدلتا ..

وكانت يد القدر الحانية فى انتظار هذا الموهوب ، لتتولى اخراجه على النهج المحدد له . لقد بدأ يستقى من روح الله . من نبع الدين ، من أصل الهداية ، .

اخذت الملكة تنمو فى ظل التوجيه الراشد ، والهدى الصحيح ، كان يقرأ القرآن ويقيم الصلاة ويصوم رمضان وتلك سمات الشباب المستقيم ، وكان من صحابته أمثال الشيخ عبد الوهاب النجار ، وكان النبع الذى يستقى منه هو وخلصانه (المعهد الأحمدى) . فصحبته لاخوانه طلبة ذلك المعهد ، وهم يجتمعون معا فى صلاة ، وصيام ، تضىء جوانب نفسه .

من هنا نشأ حافظ ، وجاء غراس ذلك الدوح السامق ، من هذه الجبلة الطاهرة ، والصحبة المختارة ، والطريق الواضحة بدأت وطنية حافظ .

عبد الوهاب النجار

يحدثنا الشيخ عبد الوهاب النجار عن حافظ بقوله :

« لقد أحسست من نفسى ميلا اليه ، بجاذب من الأدب الذى كان نهمة نفسى حتى آل ذلك الى غرام بأدبه ، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ، وطبيعة مطاوعة ، وسرعة خاطر ، وحضور نادرة » احساس كريم ، وميل فطرى الى موهبة نامية ، وشعلة مقدسة ، أضاءت جوانب هذه النفس الحرة . فلم تخف على الخلان والعشراء .

وفى سن السادسة عشرة تتألق هذه الطاقة بمثل ماأشار اليه هذا العالم الكبير فى مذكراته « غرام بأدبه وما اشتمل عليه ، طبيعة مطاوعه ، وظرف ولطف » .

بهذا كان يعد القدر حافظا ليشارك فى بناء أمة واذ يعود الشيخ الجليل فيسرف فى التعبير عن ذكرياته مع الشاعر بقوله :

« وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلى المغرب والعشاء ، والتراويح معا ، ثم لا نلبث فى سمر ممتع ومطارحة للشعر ، ومذاكرة لنوادر الأدب ، وما كان يطرفنى به مما يقف عليه من جيد القريض الى أن يأتى وقت السحور ... الخ »

دأب فى عبادة ، ومذاكرة فيما يفتق الذهن ويصقل الموهبة ، ومطارحة فيما تبدع الخاطرة وتجيد وسائل التربية ، والخلق والابتداع بل والتهذيب ، مما هدته اليه العناية . ليقطع الطريق الى حياة عليا ، تبرز فيها مكتنزات الملكة بفن وضىء ، لماح .

ثم يدخل الشاعر دربا جديدا من دروب الحياة ، ليزداد فيه صقلا ، ويتزود خبرة وتجربة بفنونها ، وشئونها . فسوف يكون له اللواء المعقود فى التحدث باسم أمة ، والشكاة عن آلامها ، والتغني بأمانيها .

كرامة الفتيان

وحين تتفتق الموهبة ، ويلمح بصيص النور من شـعاب روحه ، وتستيقظ حاسة الكرامة فيه . يدرج الى سن الشباب ، ويرى ما هـو فيه من فقر ويتم ، وما يلحظه من ملل فى نظرات القيـم عليه ، لا يتردد فى أن يترك حياة المذلة . كما تراءت له فيفارق هذا البيت ، ويترك لخاله تحية رقيقة يعتب فيها عليه ، ويودعه بأسلوبه الساخر :

ثقلت عليك مؤونتى   انى أراها واهيـة
فافرح فانى ذاهب   متوجه فى داهيـة

هى العقدة التى يقررها اليوم علماء النفس . والتى لازمت حافظا من صـباه الى شيخوخته يشكو ، ويشتكى لغيره ، ويتوجع ، ويأسى لاخوانه .

لم يكن يدور بخلد أحد من معاصريه أن هذا الفتى الذى يناغى الموت ويتودد إليه ليخلص من حياة الفاقة ويستريح من التشكى .

لم يكن فى حسبان أحد ، على أيامه تلك ان هـذا الطير الحزين اللهفان انما هو صـداح الشرق المطرب ، بل ، وأذان الحرية المذخور لوقته .

مدرسة الحياة

ولكنها الحياة مدرسة لصقل الانسان ، تقوم عليه بشتى التجارب حتى تعركه . ثم تعده لما ندب له من رسالة كريمة ، وهداية سامية .

لنله مع حافظ أوبه فى تلك السنين وهو يبكى ويردد شكاته :

عجبت لعمـرى كيف مد فطالا   وما أثرت فيه الهمـوم زوالا
وللموت مالى قد أراه مبـاعدا   وجل مرادى أن أوسـد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها   ذليلا ، وكنت السيد المفضالا .

سـوف نضحك نحن الشيوخ ، ثم نضحك ، لشأن الانسان حين يلم به اليأس من الحياة والشـكوى من الزمن ، لا يعلم ما أخفى له من قرة عين . وحسن الذكرى .

انه الاعداد الطبيعى ، انهـا الطاقات النفسـية ، التى يدخرها الخالق سـبحانه ، وعلى قدر ، وكيف يصـدح هذا الطائر بأناشيد البشر والبهجة ، وهـو وتر التحرير الذى رصده الله سبحانه ، ليناغى أمة بأسرها . يحدو شكاتها ، ويمسـح عبرتها ويحمل لواء القافلة الى قصد الطريق .

وانتقل شـاعرنا الى درب جديد من دروب الحياة ، وطوعت له نفسـه ، واستعداده أن يشـتغل بالمحاماة ، فولج هذا الباب واشتغل بمكتب « الشيخ محمد الشيمى » بطنطا .. فلم يقض عنده لبانة .

وانما تركه مودعا ، كما ودع خاله من قبل ، وترك له معنى التحية الكريمة التى أزجاها بالأمس ، على قدر بيانه ولسانه الذى آتاه الله .

جراب حظى قد افرغته طمعا ﺑﺒﺎﺏ أستاذنا الشيمى ولا عجبا
فعاد لى وهو مملوء ، فقلت له مما ؟ ـ فقال من الحسرات واحربا

.. ان مع العسر يسرا ..

ويريد القدر الحانى ، الا أن يمسح بيده الرحيمة دمع هذا اليتيم، فينتقل الشاعر الى مكتب المحامى (محمد أبى شادى بطنطا أيضا) ويحسن المحامى الى الشاب ويرعى أدبه ويقدره حق قدره : ويغتبط الفتى لعمله . ويحتفل له ، ذلك لأن المحامى (أبا شادى) كانت روحه الى فن الأدب أقرب منها الى مهنة المحاماة !

فاتفق الأديبان ، وتغنيا معا ما شاء لهما الزمان .. ثم انتقل الشاعر الى مكتب محام آخر ، ومضى فيه فترة أخرى من الزمن .

ولكن طبيعة الشاعر لا تقف عند مشهد بعينه ، فهو طير يقع كل يوم على غصن ، وينزل الرياض متنقلا بين أزاهيرها ، وخمائلها يصدح ، وينوح هناك ، تلك هى حياة الشاعر فلم يكن بدعا أن يمل حرفة المحاماة .

غمار جديد ..

وتشاء السماء الا أن يدخل شاعرنا فى غمار جديد ، ومن نوع جديد ، يدخل الطير القفص لتحوطه الاسلاك ، والأشواك . ليمتحن نفسه ، ليكبت حريته ، درس جديد ، بل هو الدرس فى حياة حافظ ، ذلك أن يلتحق بالكلية الحربية ، ويخضع لنظمها ، وينساق فى غمارها ويصدع لما يلقى عليه من أوامر تجافى روحه وطبيعته .

ان لحافظ أستاذا سطع نجمه ، وذاع صيته ذلكم هو البارودى ، رب السيف والقلم ، انه المدرسة الحقيقية التى درس عليها واستقى منها حافظ مع غيره من شعراء الجيل على عهده .

وطماح الفتى يدلف به الى هذا المعترك ، أو هو الميل الى وظيفة مرموقة ، تجزئة برزق كريم أوفى ، أو هو السمت والبزة . فى مظهر الضباط ، أو كل ذلك أو بعضه على نهج البارودى بل هو القدر المتاح ، يعد من هذا الشاعر أمرا .

وكيف ، وانى ؟ كان يتاتى لمثله ان يدخل فى غمار العسكريين ، والسياسيين من غلاة المستعمرين ، ودهاة القراصنة . اذا لم يكن من برنامج حياته المعد أن يدخل الكلية الحربية .

الشاعر فى السودان

أخذ حافظ مكانه من وظائف الدولة عقب تخرجه فى الكلية الحربية ضابطا ، ثم سافر الى السودان . فى حملة « اللورد كتشنر » ، وهناك عاودت الشاعر طبيعته ، فحن الى الحياة فى مصر ، فراح يناغيها على شوق :

متى أنا بالغ يا مصر أرضـــا ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ اشم بتربها ريح الملاب

واذا كان لنا ان نقف مع الشـاعر هنا وقفة أستشراف لحاله فى السودان وبحث وراء عوامل نفاره من الأقامة بها ، فان أمانة القلم تملى علينا أن نقتطف طرفا مما سجله فى هذا الجو الاستاذ المرحوم أحمد امين ، اذ يسوق فى ذلك :

« تبرم حافظ من عمله بالسـودان ، واكثر من الشكوى الى أصدقائه ، وعاوده داء الملل القديم . ولم يطق جو السودان ، واكثر من الشكوى الى أصدقائه ، وعاوده أصدقاؤه فى مصر وليالى الأنس بها وجوها البديع ، وعيشها الناعم : كما يدل على ذلك شعره فى هذه الفترة » .

قال فى ذلك يصف حاله :

وما أعـذرت حتى كـان نعلى ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ دما ، ووسـادتى وجه التراب
وحتى صـيرتنى الشمس عبدا ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ صبيغا بعـد ما دبغت أهابى
وحتى قلم الامـلاق ظفـرى ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ وحتى حطم المقـدار نـابى
متى أنا بالغ يا مصر ارضـا ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ اشـم بتربها ريح المـلاب

« وزاد حاله سوءا فى السودان كراهية كتشنر له . اذ كان حافظ غير معنى بنظام ، ولا مراع لحسن هندام . وعبر عن ذلك بما كتب به الى الاستاذ الامام من السودان اذ يقول :

وقعدت همة النجمين ، وقصرت يد الجديدين عن ازالة ما فى نفس

ذلك الجبار العنيد : فلقد نما صب ضغنه على ، وبدرت بوادر السوء الى . فأصبحت كما سر العدو ، وساء الحميم » .

وكان رئيس فرقته « رفعت بك » يكرهه ويرفع التقارير السيئة عنه ، اذ كان حافظ يعمل الأراجيز فى ذمه يحدو بها هو وأصحابه . فمنها قوله :

تراه اذ ينفخ فى المزمار	تحسبه فى رتبة السردار
يجتنب العاقل والنبيها	ويعشق الجاهل والسفيها

ويواصل الأستاذ أحمد أمين عرضه فى قوله :

« وأفادته أيام عمله فى المحاماة ، فاستغلها فى السودان ، فقد عرف بين اخوانه بقوة الحجة وحسن البيان ، فكان كثيرا ما ينيبه الضباط المتهمون فى الدفاع عنهم أمام المحاكم العسكرية . .

حتى اذا جاءت سنة ١٨٩٩ م حدثت ثورة السودان . اتهم فيها ثمانية عشر ضابطا كان من بينهم حافظ ، فحوكموا ، واحيلوا الى الاستيداع »

أحداث ، وأحداث، تمر بهذا الضابط فى سنى تجربته فى الحياة ، وأنى له الصبر فيستقر على حال ؟ وهو يهزأ بكتشنر ويعيبه بين صحابته من الضباط ، لا بل ، ويسخر من رئيس فرقته سخرية لاذعة !

يقول الاستاذ أحمد محفوظ فى كتاب له عن حافظ «انه كان يكتب الاستقالة من عماله فى الجيش ظهرا ، حتى اذا أقبل الأصيل بنسائمه مزقها . فأى حال تلك التى كان يتقلب فيها هذا الشاعر ، واى ضنى كان يواكبه ويغاديه ؟ .

لقد ابتلى بهذه المحنة العسرة ، ولافكاك له من حياة العسف ، فرئيسه حنق عليه ورئيسه الأعلى يعمل على البطش به . » فقد بلغ حنق كتشنر من حافظ أنه كتب أمام ملفه الخاص . « لا يرفت ، ولا يرقى »

لقد كان يخرج من نكال الى نكال ، من ليل الى أحلك منه . فهو يعيش فى جو من الدس والكيد والوقيعة ، واني له أن يجيد هذه الفنون من وسائل الحياة الدنسة ؟

ويسوق لنا حافظ نفسه فيما سجله عن هذه الايام وقد أخذ

بتهمة التمرد مع نفر من زملائه يصف نزاهة المحقق الانجليزى المفقودة ؛ وضروب الارهاق التي كانوا يسلطونها على الابرياء :

« ولما اهتـدى المحقق الى مالا تهتدي اليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب ، وجمع فى خريطته ما يربو على ثمانين اسـما خف الى كبيره وقد حمل ظلما ، فو الذى علم آدم الاسماء كلها ، ما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبه ، غير مكذوب عليه . فقال له كبيره ، وقد نظرفى الأمرنظرة الحكيم :اننى لا أرى رأيك فى عقاب هؤلاءالثمانين، وما جرت الثورة العرابية الى ما يقارب ذلك العدد ولـكن نضرب عليهم القداح فمن صـادف النحس سـهمه حق عليه العقاب و لاتجاوز تلك القداح أنامل الكفين عدا ، فاذا فعلنا ذلك أمنا شر العاقبة وفزنا بالغاية من ارهابهم ، وما أحسبهم بعد ذلك الا قـد صدفت قلوبهم وانصرفت وجوه بعضهم عن بعض ، ومتى انتهى فصـل العقاب عمدنا الى النظر فى وجوه مطالبهم ، فأدخلنا بعض التعديل على قانون معاشهم ، وحبونا بعضهم النياشين »

وبهذا أحيل الشاعر الى الاستيداع على نحـو ما أسلفنا ، وأصبح راتبه أربعة جنيهات وجرر ذيل الأسى الى القـاهرة ، وبدأ كفاحه من جديد .

سعيت الى أن كدت انتعـل الدما ... وعـدت ، وما أعقبت الا التندما
لحى الله عهد القاسطين الذى به ... تهدم من بنياننـا ما تهـدما
اذا شئت أن تلقى السعاده بينهم ... فلاتك مصريا ، ولا تك مسـلما
سـلام على الدنيا سلام مودع ... رأى فى ظلام القبـر أمنا ومغنما
أضرت به الأولى فهام بأختهـا ... وان ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهبى رياح المـوت نكباء واطفئى ... سراج حياتى قبل أن يتحطمـا

ويشكو ، ثم يشكو :

وقد غدوت وآمالى مطـرحة ... وفى أمورى ماللضـب من ذنب
فان تكن نسبتى للشرق ما نعتى ... حظـا فواها لمجد الترك والعرب

لقد حركته الأحداث وصهرته الكوارث ، فهو بكاء ، قد استبد به الألم وخاصة بعد أن أحيل الى المعاش بناء على طلبه ، فتملكه اليأس ، ولم يكن له من انيس أو سمير غير شعره الذى ينفثه ترويحا عن أحزانه وأشجانه ، ورصدت حركاته وسكناته . فهو يقول :

اذا نطقت فقاع السجن متكا وان سكت فان النفس لم تطب

ولم تكن تلك الحادثة التى أطاحت بحافظ من السهولة بحيث تمر به ولا يأبى لنتائجها فقد كانت فتنة كقطع الليل المظلم

ويذكر اللورد كرومر طرفا منها فى كتابه « عباس الثانى » فيقول:

عندما شبت حرب جنوبى أفريقية عاد كثير من افضل الضباط البريطانيين الذين كانوا يقودون فرق الجيش السودانى ، الى فرقهم الاصلية ، فى الجيش البريطانى ونظرا لبعض الملابسات التى لا حاجة بى الى ذكرها . والتى ما كانت تقع لو لم يضطر هؤلاء الضباط الخبيرون الى السفر - حدث استياء فى الجيش ، وجاهرت فرقة من فرق الجيش السودانى بالعصيان . وقد كثرت الاشاعة بأن الخديو قد قال أقوالا تجعل الثائرين يعتقدون انه راض عنهم عاطف عليهم ، على أن الثورة أخمدت بدون اراقة دماء ، وحوكم عدد من الزعماء أمام المجالس العسكرية ، وحكم عليهم بالسجن مددا مختلفة . وارسلوا الى السجن ليقضوها به .. ولما حادثت الخديو فى هذه المسألة رأيت من الحكمة أن أتجاهل ما كان يقال عن اشتراكه فى الثورة . لأن ذلك لا سبيل الى اثباته . واقتصرت فى حديثى على وصف الحادثة ، والخيانة العظمى التى ارتكبها بعض جنده نحو سموه ، واقترحت عليه أن يرى المحكوم عليهم ، ويخاطبهم بكلمات اخترتها ، وعربتها له ، فوجد الخديو نفسه فى مأزق حرج - وموقف لا يدرى كيف يخرج منه ، لأنه اذا رفض يعرض نفسه للشبهة فى أنه حرض على الثورة فى جيشه ، كما فعل جده من قبله ، واذا قبل يتضح للثائرين أن لا أمل لهم بمساعدته ، وبذلك يفقد كثيرا من احترامه ونفوذه فى الجيش على أنه - كما كنت أتوقع - اختار الامر الاخير »

هذه هى الحال التى أتيح لشاعرنا أن يشهدها ، حرب باردة اساليب لم يألفها ، وليس له اليها من طلب . مواقف حرجة يزج فيها زجا ، ثم لايجد له منها مخرجا وينتهى به الأمر الى أن يعود من حيث بدأ .

دروس وعبر ..

خرج حافظ من هذه التجربه بدروس وعبر من أهمها :

أنه لم يعد يحفل لحادثة تمر به بعد وسيان عنده الحياة ، حلوها

ومرها . وبذلك تزود من زاد الفلاسفة زادا رفيعا استطاع به فيما بعد أن يدلى بالحجة البالغة ، والمثل الشرود .

كما انه درس طبائع هؤلاء السادة المخادعين ، ووقف على جوانب من دقائق حياتهم السياسية ، فأخذ يواجههم بصراحة ، وصرامة فيما بعد ، وحفل شعره الوطنى فى هذا الميدان بلون من الادب اتجه فيه الى الجمع بين وظيفتى المحاماة ، والجندية فكان مدافعا ، منافحا . كما استطاع أن يصادق الأدب ، ويتابع البحث والدرس والوقوف على نتائج قرائح الشعراء السابقين . محتفلا بحياتهم الأدبية غارقا الى الاذقان فيها فوعى بذلك ما وعى من هذه الفنون الرائعة ، مستكملا ثقافته الأدبية التى حرمها بسبب نقص تعليمه واتجاهه ، الى الكلية الحربية . واذ كانت هذه السنى من حياته هى سنوات شبابه وفتوته ، فقد كان عراكه فيها وجلاده : استزادة من زاد الحياة الواقعية ، يدخر منها لشيخوخته مارضى به فى أخريات حياته ، كل الرضى .

فى دار الكتب

وقد انتهى به السعى والبحث عن وظيفة يخلد اليهـا أن عين بدار الكتب بمرتب مرضى فاستطاع بهـذا الوضع أن يتزود من معين الأدب الصافى فى يسر وسعة وأن يسترد ما حرم منه من مورد للعيش المطمئن الهنىء .

يقول الدكتور طه حسين :

« فى سبيل الله هذه الاعوام الطوال التى قضاهـا حافظ فى دار الكتب لا يعمل شيئا ولا يقول شيئا ، وانما يقضى صباحه بالدار يعبث بالموظفين ويتندر عليهم ، أو على باب الدار ، يدخن سيجاره الضخم ، أو قهوة دار الكتب يدخن الشيشة ، فاذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه فى الاندية الخاصة . أو العامه » .

« على هـذا النحو قضى حافظ ثلث حياته يرثى من مات ولكن بحساب ، ويقول هذا الشعر الذى يقـال فى المناسبات ، والذى لا يدل عادة على شىء ، ولا تـكاد ترد الحـرية الى حافظ باحالته الى المعاش حتى يتنفس »

« واذا هو قد اتصل بالشعب من جديد . واذا هو يتأهب لينفجر وليرسـل زفرات الشعب نارا مضطرمة تلتهم ما حولها . ولكنه شيخ قد تقدمت به السن وذهبت بقوته الراحة فى دار الكتب . وضاع نشاطه هباء مع دخان الشيشة والسـيجار . فلا تثبت قواه الفانية ، لهذه الأمانة الثقيلة التى نهض بها شـابا وكهلا . وكان يستطيع أن يستقل من حملها حين بلغ الاربعين ، وحين أسند اليه المنصب فى دار الكتب ، فيقضى بها ، وان أصدق ما يقال فيه قول الشاعر القديم فى عمر :

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها ... بـوائق فى أكمـامها لم تفتق

دفاع

ومن الانصاف لهذا الشاعر الا نترك حافظا معلقا برأى الدكتور طه ذلك الرأى الذى أوردناه • وهو حقيقة واقعة ، دون أن ننبه الى الظروف التى الجأته الى ذلك .

وقد أشار الى هذا المعنى الدقيق المرحوم الاستاذ احمد امين يدفع عن حافظ القعود والكسل عن الانتاج وهو فى دار الكتب • بقوله :

« ظل حافظ يغنى بشعره التقليدى ـ أولا ـ والجديد ـ ثانيا ـ نحو خمسة عشر عاما تنتهى سنة ١٩١١ ، لما عرضت عليه وظيفة دار الكتب .

وطبيعى أن الوظيفة الحكومية ، لم تكن تتفق وشعر حافظ السياسى ، والاجتماعى فهو يدعو المصريين الى الثورة . والانجليز الى الجلاء ، وحرام على الموظف وقتذاك ان يتكلم فى السياسة ، وان يتصل بالجرائد فكيف يسمح بالشعر السياسى عامة • ولشعر حافظ خاصة ؟ .

« كان حافظ يفهم كل هذا حق الفهم ، فلما قبل الوظيفة كان معنى قبولها سكوته فى هذا الباب ، وقد بر بوعده ، ووفى بشرطه غالبا ، فلم يقل من الشعر الا قليلا . وفى مناسبات ملحة ، بتحفظ تام وحذر شديد . أو أن تحميه الظروف » .

« عيره كثيرون بذلك وبقبوله الوظيفة ، ولكن لماذا نعيره وحده بالوظيفة ولا نعير من ألجأه اليها ؟ لماذا نطلب منه التضحية بقوته ، ونؤنبه على سكوته ، ولا نؤنب الأمة وقتذاك تعجب به ، ثم يتبخر هذا الاعجاب ولا يتحول الى قليل من مال يتبلغ به ؟ » •

حظ الشعراء

ويجهر الاستاذ أحمد أمين بقولة الحق في انصاف الرجل على هذا النحو ، ويفيض في هذا بقوله :

« الحق ان الأمة فى تاريخها الماضى ، ابدت جمودا عجيبا وشحا اليما فى حافظ وأمثاله ، تصفق لهم طويلا ، وتتركهم يالموت . من الحاجة الى ضروريات الحياة وتعينهم اذا ركنوا الى الوظيفة . ولاتشجعهم بقليل مما فى أيديها ، وتنعم وتغرق فى الترف . وتدعو المغنى ان يغنى لها ، ثم تضن عليه بأجره ، فاذا طالبها به غضبت منه .

اذا فليس من العدل أن نسرف فى نقده على صمته ، ونعيبه بكسر عوده وقيثارته . فله ان يفعل ما فعله غيره من قبله .

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

انما يصبح أن يوجه اليه نقد من نوع آخر ، وهو أن حافظا لم يكن يستطيع – حقا – وقد قبل المنصب فى دار الكتب أن يقول الشعر فيما كان يقوله فيه من قبل من اجتماعيات وسياسيات ، ولكن لماذا سكت عن فنون الشعر الأخرى ، والمجال أمامه فسيح ؟ فليس كل شعره سياسة واجتماعا ، فهناك شعر الطبيعة ، وهناك شعر القصص ، وهناك شعر الوصف ، وغيره من أنواع الشعر ، ولم تكن وظيفته تمنعه أن يقول فى كل ذلك أو فى شىء من ذلك ..

« ولكن ماذنب حافظ ، ونبوغه انما كان فى ثورته ، واجادته فى فورته – وطبيعته وتعليمه ، ودربته تدعو الى النبوغ فى سياساته واجتماعياته ، لا فى غزله وخمرياته وما يعيب الموسيقى أن يكون ملك العود ، وليس ملك القانون ، أو ملك الكمان وليس ملك الناى ، فملك فى احداها خير عندى من سوقة فى جميعها » .

وبهذا أوضح لنا الاستاذ أحمد أمين كيف أن الشاعر انما كان يصدر عن طبيعة مميزة وأن التكلف لم يأخذ عليه سبيله فى الحياة . وهى ميزة الشاعر الملهم المطبوع .

ولعل حافظا يصادق ذلك بقوله فى استقالة « اسماعيل صبرى » من منصبه وكان وكيلا للحقانية :

فاطرح معاذير السكوت وقل لنا هلا وجدت الى الكلام سبيلا
واضرب على الوتر الذى اهتزت له اعطافنا زمنا وحى النيلا

الشعر ورسالة الادب

فطنت الحكومات العربية الوطنية ، والشعوب العربية الى مدى هذه القوة الجارفة فى هزيمة المستعمر ، القوة الروحية التى ايقظتها تلك الأناشيد الحماسية ،والأغانى الوطنية وكان لابد من ان تفيد الدولة من كل أسلحتها لخوض المعركة ٠

وكان لا بد من اعداد تنسيق وتنظيم أسلحة جديدة لمواصلة الزحف المقدس ٠ فالغاية بعيدة ، والنصر حتم والطريق طويل ، ومن بين هذه الاسلحة سلاح التعبئة الروحية ، ومن أهمها سلاح الأدب ٠ ذلك السلاح الذى يشير اليه الرئيس جمال عبد الناصر فى افتتاح مؤتمر أدباء العرب العام سنة ١٩٥٧ ٠ فى قوله المأثور :

الرئيس جمال ٠٠٠

« الأدب والفلسفة سلاحان أساسيان فى هذه الحرب ، فأنتم قادة الفكر ، عليكم واجب أساسى فى توضيح الأمور ٠ وفى اقامة أدب عربى متحرر مستقل ٠ خال من السيطرة الأجنبية ، أو التوجيه الأجنبى ، وبهذا يمكن أن تساعدوا ، وأن تعملوا فى سبيل التضامن العربى ، وفى تدعيم القوميه العربية ، وتحقيق أهدافها »

قائد نهضة ، ورائد أمة ، يجتمع بأدباء العرب ليشارك معهم فى رسم الطريق ؛ والتوجيه والارشاد ، فيشيد بما لهذا السلاح من أثر وخطر ٠

ان فى هذا المعنى لتكريما لكل قلم ، وتقديرا لتلك القيم التى عاشت وتعيش لرسالة مرجوة ، مطلوبة فى دعم الحرية ، وانارة طريق الحضارة ٠

هذه كلمة الرئيس جمال ،وهو ينظم الطريق الى عزة هذا الشعب وسيادته ، ويضىء الطريق ويفيد من كل سلاح ٠

وفى هذا أيضا يتحدث رئيس المؤتمر السيد كمال الدين حسين **مفصلا هدف المؤتمر وغاياته ، وارتكازه على دعم القومية العربية ٠**

كمال الدين حسين

يقول السيد كمال الدين حسين .

« حين نلتقى فى هذا المؤتمر لنبحث موضـــوع الادب والقومية العربية ، نستهدف غايتين ، نحس بالحاجة اليهما احساسا عاما .

أما أولهما : فهو المحافظةعلى هذا التراث الادبى المشترك وتجليته، ودراسته على نحو جديد ، فى ضوء ايماننا بالقومية العربية الجامعة -

وأما الأخرى فهى المـــلاءمة بين ما نتـــتج من فنون الأدب ، وبين اهداف نهضتنا القومية الحاضرة ويضــــع الوزير المســـئول عن الأدب والثقافة فى مصر آنئذ النقط فوق الحروف . فى ذلك التخطيط . بقوله:

((ان كل نهضة قوميةلابد لكى تستكمل عناصر القوةوالاستمرار ، ان يكون الأدب دعامة من دعائمها . ، ولابد من ابتكار وسائل التشجيع للعاملين فى هذه الميادين ، والعمـــل على الارتفاع بمســتوى الانتـــاج الفكرى)) .

((ولابد ان تستند كل نهضة الى دعائم من فنون الادب تدعو لها وتساندها الى غايتها لتكون مبادئها عقيدة راسخة فى كل قلب ، وانفعالا واعيا فى كل نفس ، وحركة ايجابية فى كل جامعة » .

« ان كل النهضات القومية التى باشرها التاريخ انمـا صنعها أدباء ومفكرون قبل أن يصنعهـا القادة ، والقادة من النهضـــات القومية هم الصورة المتبلورة من روح الجماعة وهمالتعبير الصريح من وعى الشعب، صدى الانفعال القومى العام)) .

((الادباء وأهل الفكر هم الذين ينفخون فى الشعوب تلك الروح ، ويوقدون الوعى ، ويحدثون هذا الانفعال)) .

زكى مبارك

واذ يحدد لنا الدكتـــور « زكى مبارك » مفهـــوم القومية العربية يبعد بنا عن لغط المتخرصين فى أن القـــومية العربية أن هى الا عنصرية متعصبة ، تقوم على أســـاس الجنس ، وتفضيل الدم العربى ، على غيره من دماء البشر . وهل هنـــاك اليوم دم عربى صريح بعد هذا الامتزاج ، وعقب الفتوحات الاسلامية ، وتداخل الشعوب بعضها ببعض ، عـــلى مرور الاجيال ؟

يوضح لنا المرحوم الدكتور مبارك ذلك بقـــوله « العروبة لغة

لا جنس ، وقوميتنا عنصرية ولذلك فهى لا تعادى الشعوب، ولا تحقرها، ولا تصبو الى الفتح والتوسع واضطهاد القوميات الأخرى . بل هى قانعة بأرضها مغتبطة بما فيها من خيرات تريد أن تحررها من كل نفوذ أجنبى ، وأن تشيع فى أرضها العدالة الاجتماعية . والحرية الداخلية ، وترغب فى أن تقيم مع جميع الشعوب علاقة حب ومودة ، وهى معتزة بنفسها وبتراثها ، من الثقافة والخبرة ، فلا ترضى بحال أن تذوب فى قومية من القوميات أو تخضع لها . وانما همها أن تتعاون تعاونا مثمرا مع الشعوب المحبة للسلام . لتقليم أظفار المستعمرين . وأصحاب المطامع الشريرة . ولارساء قواعد السلام على الأرض .

وهى مع اعتزازها بشخصيتها وتراثها مرنة . تقبل بصدر رحب ثقافات الشعوب وتجاربها . وتضيف منها ما يلائمها . وتضمه الى كيانها المتطور فيزداد به خصبا ونماء .

طه حسين

ويؤيد هذا ، ويصادقه ، بل ويشرحه ، ويثبته . قول الدكتور طه حسين بما يشير اليه فى تضاعيف حديثه عن الأدب والقومية العربية .

« لم يكد القرن الثانى ينتهى حتى تنظر الى القومية العربية فترى عجبا من العجب ، ترى مهد القومية العربية قد هجر ، أو كاد يهجر ، ونرى الجزيرة العربية قد عادت أوصالها الى بداوتها القديمة ، وظلت المدينة ومكة محتفظتين بما كان يدرس فيهما من الدين والعلم . ولكن البيئات القديمة،البدوية فى نجد عادت الى بداوتها وعادت الى شىء كثير من عزلتها القديمة وكادت الصلة تقطع بينها وبين البلاد الأخرى » .

واذن فالقومية العربية ليست فى الجزيرة العربية وحدها ، وانما هى قبل كل شىء فى هذه البلاد التى فتحت ، والتى امتزج فيها العرب بغيرهم ، من سكان البلاد الأصليين » ويواصل عميد الأدب حديثه فى تبيان معنى القومية العربية من واقع التاريخ بقوله :

« ومعنى هذا خطير كل الخطورة ، فهؤلاء السكان كانوا يتكلمون لغات مختلفة جدا ، وكان الفرس يتكلمون لغتهم الفهلوية ، وكان للشام لغات سامية ، وكذلك فى العراق ،وفى الجزيرة .وكان المصريون يتكلمون لغتهم القبطية ، وكانت لغة الثقافة ، والسياسة فى البلاد الشامية والمصرية هى اللغة اليونانية ، ولغة السياسة والثقافة فى العراق وبلاد فارس هى اللغة الفارسية . ولغة الثقافة والسياسة فى شمال افريقية وفى أسبانيا هى اللغة اللاتينية ، وننظر فى أواخر القرن الثانى فاذا كل هذه اللغات قد تركت أماكنها من ألسنة الناس وعقولهم وقلوبهم لهذه العربية . »

« فالفرس يتكلمون العربية ويكتبونها ويزاحمون العرب أنفسهم فيزحمونهم ، اذ الفرس هم الذين يضعون كتب وأصول النحو العربى . واذا هم يعنون بجمع اللغة وتدوينها ويشاركون العرب فى هذا كله ، ويغلبونهم عليه أحيانا » .

« واذن هناك قومية عربية جديدة أنشأها الاسلام ، لم تكن تأتلف من عنصر عربى خالص ، وانما كانت تأتلف من جميع هذه العناصر التى رأيتموها من العناصر التى كانت تسكن كل هذه البلاد ، فأنشأ الاسلام اذن أمة جديدة وجعل هذه الامه عربية » .

« ان الشعر لم يكد ينشأ بين القبائل العربية المتفرقة المذاهب واللهجات حتى فرض لهجة بعينها على الأمة العربية كلها فى جميع أطرافها وأقطارها من الجزيرة العربية »

« فكان الشاعر العربى اذا أنشأ قصيدة وأنشدها فى جمع من الجموع فهمها عنه الناس مهما تكن قبائلهم ، ومهما تكن لهجاتهم أو لغاتهم الخاصة . ثم لم يكتفوا بفهمها ، ثم كان الرواد يتناقلونها عن الشعراء ،وكانت القصيدة لا تكاد تنشد حتى تشيع فى الجزيرةالعربية، ويحفظها كثير من الرواد فى الاقطار المختلفة من أقطار الجزيرة ، فأول توجيه للعقل جاء من هذه الناحية ، من هذا اللسان الذى أتاح للغة العربيه فى العصر الجاهلى أن تكون لغة اجتماعية » .

« فالمكون الأول فى محاولة ايجاد وحدة لهذه القبائل العربية انما هو الأدب والشعر من الأدب بنوع خاص » .

محمد صلى الله عليه وسلم

ثم يشير الى أن المكون الحقيقى للوحدة بجميع أنواعها ، وفروعها الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية ، انما **هو النبى صلى الله عليه وسلم .**

ولم ينتقل النبى الى جوار ربه الا وقد تمت وحدة الجزيرة العربية ، ووجدت قومية عربية منظمة لها قانونها ، وهو القرآن » .

.. المؤسسون الحقيقيون ..

وما أروع ما يقرره عميـد الأدب فى حديثـه عن الأدب والقومية العربية ومكانة الأديب ورسالته فيهما فى قوله :

« الشيء الذى أستطيع أن أؤكده ، وأنا مطمئن الى انى لا أتجاوز الحق ، هـو أن كل هذه الاحداث ، انما أنشـأتها الثقافة ؛ وأنشـأها الأدب والمؤسسون الحقيقيون لكل هذه الثورات ، انما هم الأدباء ، والكتاب والشعراء ، ولا شيء غير هؤلاء » .

قوالب الشعر

واذا كان لنا أن ننتفع بهذا الايضـاح والعرض فى بيان الدكتور طه حسين عن حقبة هامة من حقب تاريخ الادب ، فذلك فيما يشير به الى ظاهرة يرشـد اليها أستاذنا العميد فى حديثه ، ونحن اذ نسوقه اتماما للفائدة فانما نرد بها أيضا على أولاء المجددين فى صـور الشعر وأشكاله وهيكله ، يقول الدكتور :

« ومن الغريب أن الظواهر الأدبية التى تلاحظونها فى حياة القومية العـربية الجديدة التى أنشأها الاسلام ، والتى ألغى فيها الفروق بين الأجناس ، وألغى فيها أن يكون لعربى على أعجمى فضل الا بالتقوى ، من أغرب **الظواهر** التى ترونها **أن الشعراء الذين اسـتأثروا بالشعر ، وامتازوا فيه ، وأصبحوا هم ألسنة الأمة العربية بمعناها الجديد ، لم يكن منهم شاعر عربى خالص .**

« وكان بعضهم فارسيا ، وبعضهم نبطيا ، وبعضهم يونانيـا ، لم يكن منهم شاعر عربى خالص ، وانما كانوا جميعا من هذه الأمم التى استعربت وأعربت عن شعورها القديم ، وعن عقولها القديمـة ، وعن وجدانها القـديم فى الشعر العربى ، والعقل العـربى ، والوجدان العربى » .

غلاة المجددين

وعندى أننا ، بهذه الحقيقة نرد على غـلاة المجددين فى الشـعر الداعين الى التحلل من الوزن والقافية .

نرد عليهم ، فننبههم الى ما أشار اليه الاستاذ العميد من أن هؤلاء الشعراء المبرزين لم يتناولوا صياغة الشعر العربى على الطريقـــة ألتى وفدا بها على آداب العربية وكان أولى بهم أن يدعوا هم الى التجـــديد الذى يدعى اليه اليوم • لكى يتيسر لهم السبيل •

ولكن الأداة عندهم كانت قد اكتملت بالاضافة الى الموهبة الاصلية فى أحاسيسهم ، فاختاروا الطريق الصحيح المساوق لفطرة اللغـــة ، وأركان القصيدة بعد مراحل الدراسة والاستيعاب وانى لا أعرض بأحد حين ألقى بالرأى فى هذا العوج الطارىء على آذاننا وما تناول الشعر منه خاصة فى هذه الناحية •

المقلدون

فلو أن متشاعرا ما اجتمعت لديه أدوات القصـــيد ، لمـــا دعا الى ما يدعـــو اليه المقلدون ومن لم يســـطع عليه نور الحقيقة الأجلى •

انهم يقاربون عروبتهم من الهجنة التى ألفوها والى العجمـــة التى اقتبسوها ، ودعوا اليها وان الأفكار الجديدة ومشاكلات العصر لا تمتـد الى مثل هذه الدعوة ، وعلى هذا النحو ، من الطفرة •

فكم من شعراء جمعوا الى العربية ثقافات عدة ، وكان ذلك سببا فى صفاء قرائحهم وسمو انتاجهم ، ومدعـــاة الى ايغالهم فى الابتداع فى الشعر على النهج العربى الخالص ، بالتلوين الجـــديد الذى لا يمس القوالب والصور •

الشعر الجديد

وما دمنا بصدد الحديث عن الشعر والأدب ، فانى أستميح القارىء عفوا اذا استطردت فى البحث فى أدق مناحى الأدب الشاغل للاذهان المبلبل للأفهام ذلك الذى تصطرع النظريات الأدبية ، ولا تلتقى عند مفاهيمه ، وأعنى به الشعر الجديد ، أو الحديث .

وقد أكون أكثر توفيقا فى خدمة هذه القضية ، بعرض آراء أعلام الأدب على عصرنا ممن عنوا بتجلية هذا الموضوع ، وذلك أوفق لانارة السبيل أمام الشبيبة المذخورة ممن يتطلعون الى آفاق هذا الطريق المضىء .

يقول الشاعر الكبير الاستاذ عزيز اباظة فى تقديم لديوان أحد الشعراء المجيدين وهو الاستاذ عبد الله شمس الدين صاحب نشيد « الله أكبر » أو نشيد النصر فى رأيى لما حالفه من توفيق فى حينه :

« بيد رواد الثقافة وضعت لبنات المدرسة الجديثة فى الشعر المصرى ، ونشط أساتذتها فى الدعوة لها ، حتى شغلوا الناس ردحا طويلا من الزمن ، وتوارد على منابر هذه الدعوة ، الأساتذة الاعلام : محمد السباعى ، عبدالرحمن شكرى ، عباس محمود العقاد ، ابراهيم المازنى » .

وكانت هذه المدرسة تتميز بسمات وخصائص فى انتاج أساتذتها . ثم برزت هذه السمات وتلك الخصائص فى انتاج طائفة من شعراء الشباب بقدر ما فى طاقتهم من فهم هذه المدرسة والتأثر بها . وبجانب هذه المدرسة استقام بناء مدرسة ثانية على دعائم من ثقافة أجنبية اخرى هى اللغة الفرنسية وآدابها ، وقد حمل لواء الدعوة لهذه المدرسة فى سبيل التمكين لها الشعراء الكبار ، مطران ، وناجى ، وأبو شادى رحمهم الله . وطيب ثراهم ...

وقد التقت المدرستان عند هدف واحد وغاية متفقة ، ذلك أنهما جهدتا فى تهوين العناية بالاسلوب والحفاوة بالديباجة والاحتشاد للتعبير المشرق الجميل ، وقد ظفرتا بقدر غير قليل من النجاح فى هذا الصدد ، ولكنهما ــ مع ذلك ــ بقيتا مدرستين يصدر عنهما شعر رقيع المقام ، وأدب عريق القيم .

وقد أشار هذا الالحاح من ناحية هاتين المدرستين على شعراء آخرين ، كان يتمتع عملاق منهم بشهرة جارفة .

أشار هذا الالحاح فى قوة وعنف الى مدرسة ثالثة ، وقف على قمتها « شوقى » فى قدرة وثقة واصرار . ولعله كان يعنى بهذا البيت فى مرثيته لحافظ شدة الهجوم ، وتساقط المهاجمين من حوله :

ما حطموك وانما بك حطموا   من ذا يحطم رفرف الجوزاء

مدرسة الشعر المنثور

ويوضح الشاعر عزيز أباظة فى جهر الحق حين يصدع الباطل رأيه فى الشعر الحديث ، بمواصلته فى القول :

« ثم انشقت الأرض عن مدرسة رابعة ارتجلت ارتجالا وفجأت الناس كما يفجأك النتوء فى عرض طريق مزدحم ، وأنت آخذ سمتك الى غاية جادة ، فاذا أصوات ملهوجة تملأ سمعك بما **هو أشبه بهذيان المحمومين ، تلك هى مدرسة الشعر المنثور ، أو النثر المشعور** التى عدلت عن الابانة الى الرطانة ، ولجأت الى علامات الاستفهام والتعجب تملأ بها السطور ، لتقوم مقام الأبيات الكاملة ، والقوافى المتماثلة ، وقذفت برسالتها تحمل أمثال هذه التعبيرات :

الأنين المشنوق ، الحزن الراقص ، الصمت المقمر ، الشمس المربدة ، اللانهائية الخرساء ، الى آخر هذا الفتح المبين فى لغة الجمال اللألاء ! !

وكان الشاعر « عبد الله شمس الدين » من مدرسة الشعر المصقول، القديم فى رأى الشاعر الكبير. فهو ليس من هؤلاء المشعوذين.

الدكتور مهدى علام

ولعلى أزيد الحقيقة وضوحا ، اذا عرضت هنا **الى أحدث رأى للجامعة المصرية** عن هذا الشعر الحديث ، على لسان عميد من عمدائها . المتخصصين فيه ذلكم هو الاستاذ الدكتور مهدى علام . يرد على أحد الشعراء ممن له رأى خاص فى الشعر القديم ويرى أن يوضع تخطيط لما **يسميه بالشعر الحديث** المنطلق من كل قيد . حتى قيد المعرفة . .!

يقول الدكتور مهدى علام فى مؤتمر أدباء العرب :

« أريد أن أتكلم فى هذه النقطة التى أشار اليها صديقنا الشاعر الحديث الذى دعا الشعراء والنقاد والأساتذة لان يتناولوا تدريس الشعر والأدب ، أن يخططوا للشعر الحديث ويدعوا اليه .

« وأنا كأحد هؤلاء الذين يقومون على خدمة هذه المادة مع زملائي المشتغلين في الجامعة استميحه عفوا باسم هؤلاء الأساتذة ، أرجو ان تأذنوا لنا ، اننا لا نخطط في هذا ، لأن الشعر باعتبـاره فنا من الفنون لا تقدم فيه القوانين ، ولا ترسم الخطوط وانما هو انفعال تلقائي » .

« ليتقدم به شاعر حديث في أيةصورة يشاء ، وبعد ذلك سيثبت جداره ، أو يختفي « فأما الزبد فيذهب جفـاء ، وأما ما ينفع الناس فيـمكث في الأرض » .

حافظ ابراهيم والشعر الحديث

واني بدوري لمطمئن أستاذنا الدكتور مهدي عـلام مذكر زميلنا الشاعر المستحدث بأن الشعر العربي ، قد امتحن وابتلى ، وتعرض لمثل هذه الآفات على عهد شاعرنا « حافظ ابراهيم » اذ يقول في قصيدة له يوجه القول فيها الى أمير الشعراء « أحمد شوقي »

أشـــكو اليك من الزمان وعصبة	جرحت فؤاد الشعر في أعيانه
كم خارج عن أفقه حصب الورى	بقريضه ، والعجب ملء جنـانه
كم حك مسمعنا بجنـدل لفظه	وأطال محنتنا بطول لسـانه

التفاتة وطنية لا تفارق طبيعة شـاعر الحرية ، وردت في سـياق استقبال أمير الشعر من منفاه بالأندلس ـ وردت في سـياق غرض من الأغـراض التي عن له أن لا يخفيه . وهو قوله « وأطال محنتنـا بطول لسانه »

فهو ينعي على ذلك الشاعر الذي جرح فؤاد الشعر ، ولم يرفق بنا ونحن في محنة الاستعمار ، ثم يستطرد في وصف هؤلاء النفر من الشعارير بقوله :

ما زال يعلن بيننـا عن نفســه	حتى استفاث الصم عن اعلانه
نصح الهداة لهم فزاد غرورهم	واشتد ذاك السـيل في طغيانه

ويصل الى الحكمة الساخرة منهم في قوله :

أو لم تر الفرقان وهو مفصـل	لم يخرج البـوذي عن أوثانه

* * *

الموازين القسط

ثم يضع الموازين القسط للشاعر الذى يجرى ولا يجرى معه على حد تعبير العرب فى تقسيم الشعراء الى مراتب بقولهم :

« والشـــعراء فأعلمن أربعه فشاعر يجرى ولا يجـرى معه
وشاعر من حقه أن تسمعه وشاعر من حقك أن تصـــفعه

يضع حافظ ابراهيم فى قصيدته هذه الموازين القسط للشـــاعر المبدع بقوله :

الشـــعر فى أوزانه لو قسته لظلمته بالدر فى ميـــزانه

الشعر التقليدى .. أيضا

واذ عرضنا لرأى حافظ فى الشعر على نحو ما قدمنا ، لابد لنا من الاشارة الى ما سجله من رأى فى الدعوة الى التجديد . ومظهر ذلك التجديد عنده .

وخير ما نعرضه فى هذا الســـياق ، ما جاء فى تقـــديم لديوانه بقلم الاستاذ أحمد أمين اذ يقول :

« قامت حركة فى مصر من بعض الأدباء والمثقفين ثقافة عربية ، وبعض قادة الرأى ، تعيب على الشعراء هذا الشعر التقليدى فى أسلوبه وفى أغراضه . وفى أوزانه وقوافيه ، وتشكو شوقيا وحافظا مر الشكوى لانهما قديمان فى اقطارهما مقلدان فى اغراضهما محافظان فى أوزانهما .

« وكان من آثار هذه الحركة فى حافظ أن ثار هو أيضا على الشعر القديم ، فأنشد قصيدته المشهورة فى الشعر والتى مطلعها :

ضعت بين النهى وبين الخيـــال يا حكيم النفوس يابن المعالى .

عاب فيها شعراء الشرق شعرهم فى الكأس ، والمدح ، والهجاء ، والرثاء ، وحب سلمى ، وليـلى ، ومكان الآثار والاطلال ، والرحال ، والجمال . ثم يقول :

آن يا شـعر أن نفك القيـودا قيـــد تنـابهـا دعاة المحـــال
فارفعوا هذه الـكمائم عنـا ودعونا نشـم ريح الشـــمال

فكانت ثورة صاخبة على الشعر القديم ، فهل جدد حافظ بعد ذلك فى شعره هل جدد فى بحوره وأوزانه ؟ أم جدد فى أسلوبه وبيانه ، أم فى تفكيره وخيـاله ؟ **لقد جـدد فى شىء هو فوق ذلك كله ، جدد فى موضوعه ، وأغراضه ، فبدلا من أن ينظم فى موضوعات امرىء القيس ، وطرفه ، وجرير ، والفرزدق ، وبشار وأبى نواس ، نظم فى موضوعات عصره ، وأمانى قومه .**

وقد بنى شعره الجديد فى الوطنيات ،والاجتماعيات، والسياسيات وكان فى شعره يقف موقف الصحافة الوطنية ، وقادة الرأى الاجتماعيين يغشى مجالس كل هؤلاء • ويتشرب من أرواحهم • ويستمد من وحيهم ثم يخرج ذلك كله شعرا قويا . ملتهبا ، يفعل فى النفوس ، ــ وذلك شأن الشعر الحى ــ ما لا تفعله الخطب والمقالات •

فكان حافظ حقا شاعر الوطنية ، وشاعر الشعب وشاعر السياسة، والاجتماع ، ولم يجاره أحد فى ذلك من شعراء عصره •

ونحن بدورنا نسوق للقارىء طرفا من تجديد الشاعر والاغراض التى تناولها ، استمع اليه يستحث المصلحين بأسلوبه الساخر :

واذا سئلت عن الكنانة قل لهم   هى امة تلهو ، وشـعب يلعب

انها الاستثارة ، فى الصياغة الجيدة .

ويقول متوعدا :

النسر يطمع أن يصـيد بأرضنا   سنريه كيف يصـيده زغلول !

***

أما الذى اصطاد الأسد ، وقطع ذيله فى بورسعيد ، وخلاه بعد أن ترك به سمة المذلة . فهو بطل ثورتنا « جمال » فتحقق بذلك حدس حافظ ولكن على يد « زغلول » آخر أشد شكيمة وأقوى مراسا .

وبنفس أساوبه الساخر اللاذع يلهب ظهر الشباب ناعيا على الأمة استسلامها للغاصب ، والقعود عن الجهاد :

أمة قد فت فى سـاعدها   بغضـها الأهل ، وحب الغربا
وهى والأحداث تسـتهدفها   تعشـق اللهو ، وتهوى الطربا
لا تبـالى ، لعب القوم بها   أم بها صرف الليـالى لعبـا

***

ان حافظا بهـذا النهج فى التقـريع كان يربى الشـباب ، ويستحثهم ليقظة من سبات :

أفقنـا بعـد نوم فوق نوم   على نوم كأصحاب الرقيم

.. حافظ يفك قيود الشعر ..

فاذا نحا شاعرنا الى فك قيود الشعر فى قوله :

آن يا شـــعر أن نفك القيودا   قيــــدتنا بها دعاة المحال

فانما كان يعنى ترسم الأقدمين مشيرا الى ذلك بقوله :

حملوك العنـــاء من حب ليلى   وسليمى ، ووقفة الأطـــلال

وبـكاء على عـــزيز تولى   ورسوم راحت بهن الليـــالى

واذا ما ســـموا بقـدرك يوما   أســـكنوك الرحال فوق الجمال

هذا هو حافظ فى مذاهب الشعر ، ورأيه فى التجديد : ترســـم للأقدمين فى القوالب والصور ، وتحرر من المعانى القديمة ، بالتطور مع مقتضيات الحال ، ومجاراة لخصائص الحياة الجديدة فى عصره ..

ويجمل بنا قبل أن نخلص من هذا البحث فى الشعر الجديد ، أن نفيض قليلا فى تناول كثير من آراء الأعلام والأدباء فيه اتماما للفائدة . وبهذا نعرض لرأى الدكتور محمد مندور وهو أحد أساتذة الجامعةالذين أسهموا فى رسالة الادب وعلم من أعلام الصحافه ـ يقول الدكتور مندور فى مقال له عن التيار الواقعى فى شعرنا المعاصر :

« ينادى الجيل الجديد الناهض من شعرائنا الشبان بمذهب جديد فى الشعر ، بل فى الادب عامه **هو المذهب الواقعى الذى يعبرون عنـــه أحيانا بقولهم :** الأدب الملتزم ، او الادب الهادف أو الادب فى ســـبيل الحياة ، وحتى اليوم لم تتضح بعد حدود فكرية وفنية حاسمة لهـــذا المذهب الذى لا يزال فى طور التكوين والتجديد ، وهو ما يمكن أن يعتبر تجديدا مطلقا » .

« ولو اننا قصرنا حديثنا على مجال الشعر لوجدنا أن **شـــعر هذا الجيـــل الناهض لم يتخلص ولا يمكن أن يتخلص من التيار الوجدانى ، لأن الشعر اذا جفت فيه العاطفة ، وخمد الوجدان لم يعد شـــعرا ، وانما الذى يريده هذا الجيل** ، هو أن يستعيض عن الوجدان الفـردى بالوجدان الاجتماعى ، اى أن يصبح الشعر موضوعيا ، بدلا من أن يظل خواطر متناثرة متداعية وعواطف منسابة أو متفجرة ، وهذا التغيير فى مضمون الشعر لم يكن بد من أن يصحبه أيضا تغيير فى صورته » .

ولســـنا فى حاجة الى أن نعلق على رأى الدكتور مندور ، فهو اوضح من ان يحتاج الي تعليق ، وان كنا نرى ان اضطراب الشاعر فى حياته لابد له من رابطة بهذه الحياة ، وان انتاجه انما يرتبط ارتباطا

وثيقا بما يتأثر به فى مجتمعه . وأن الشعر غناء وموسيقى ، والنفس الصادحة لا يمكن أن تستوحى النغم والتطريب الا عن نفس مطلقة ، وحياتها ، ومجتمعها ، ما هو الا صدى أحاسيسها . كما أن تطريبها ، وهزيجها انما هو تجاوب مع حيواتها ، ومشاعرها .

وهذه الدعوى الجديدة أشرنا اليها فى التحدث عن رأى حافظ فى التجديد فى الفصل السابق ، وأوضحنا أن (حافظا) نحا هذا النحو ودعا الى ضرورة الانطلاق من قيود القديم .

وطبيعى أن كل عصر له خصائص ، ومميزات ، بل وآفاق .

الفطرة

ولا يمكن أن تكون الصور والمرائى على عهد العصور المتخلفة من مهد الجاهلية الى اليوم وعلى تواكب عصور الأدب ، لا يمكن أن تتشابه مع عصرنا هذا ، أما النفس الانسانية ومشاعرها وصفاتها المتصلة بجوهر الشعور والادراك ، وما تتأثر به العواطف والوجدانات فهو (نفس واحدة) لا يمكن أن تتغير ، وبهذا فالتجديد قائم وهو فطرة متنقلة تتابع العصور وتتشكل بها ، هى سنة من سنن الحياة الكونية التى أودعها الله خصائص البشرية ، تتشكل مع طبيعة العصور ، لا بل ومع طبيعة الحياة . وقد نشهد فى العصر الواحد والبيئة الواحدة مختلفا من المشاعر والأحاسيس ، لعدد من الأدباء نشئوا معا فى هذه البيئة بل وتأثروا ثقافة واحدة . هذه هى الفطرة الصادقة وقد احترز الدكتور مندور فى حديثه بقوله فى استهلال الكلام عن الشعر المعاصر بقوله :

« وحتى اليوم لم تتضح بعد حدود فكرية وفنية حاسمة لهذا المذهب الذى لا يزال فى طور التكوين والتجديد » .

الشعراء المتمردون

وينتقل الدكتور مندور فى حديثه الى نقطة أخرى تتصل بقوالب هذا الشعر المعاصر فيقول :

واذا كان هؤلاء الشعراء المتمردون على العروض التقليدى قد استشعروا بعض الحرج فى الخروج عليه فانهم لم يلبثوا ان وجدوا على هذا التجديد فيما ظهر فى بيئة حضرية ، كبيئة الأندلس التى كانت تخالف البيئة العربية المحافظة ذات الطابع المحفلى الخاص مخالفة واضحة ، استطاعت بفضلها أن تبتدع فى العروض العربى نظام

الموشحات الذى يخرج على النظام التقليدى للبيت الشعرى ، وطريقة توزيع تفعيلاته بين شطرى البيت الواحد كما يخرج على وحدة القافية ، ويؤلف موسيقية ليست فيها الرقابة التقليدية ولكنها مع ذلك لا تخلو من موسيقى واضحة فى تنوعها » ٠

الوزن ٠٠

ــ وقيد الوزن والقافية فى رايى ما هما الا ظاهرتان للفن الشعرى فى أتم صوره وأكمل حالاته وهما مع هذه الحقيقة ليسا كل شىء فى الشعر ٠

الرافعى

يقول « الرافعى » ــرحمة الله عليه ــ ولو كان الشعر من هذه **الالفاظ الموزونة المقفاة لعددناه ضربا من قواعد الاعراب ٠ لا يعرفها الا** من تعلمها ولكنه يتنزل من النفس منزلة الكلام ٠

فكل انسان ينطق به ، ولا يقيمه كل انسان ٠ وأما ما يعرض له بعد ذلك من الوزن والتقفية ، فكما يعرض للكلام من استقامة التركيب والاعراب ٠ وانك انما تمدح الكلام باعرابه ، ولا تمدح الاعراب بالكلام ٠

هاشم عطيه

وفى كتاب الأدب العربى وتاريخه للمرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية ما يوضح هذا فى قوله :

ومن علماء العرب أنفسهم من جعل الشعر كلاما ، واجوده اشعره ، ولم يشترط له وزنا ولا قافية ، ويدخل فيه حينئذ مايشبه ان يسمى شعرا منثورا من حكمة أو مثل ، يبنيان غالبا على صواب التشبيه ، وايجاز اللفظ ولطف التصوير ، ومنهم من اشترط فيه اللفظ دون القافية ، ومنهم من جعله موزونا مقفى ، وأجاز تعدد القافية ٠

الجرجانى

وللقاضى على عبد العزيز الجرجانى رأيه فى الشعر ٠

يقول فى الوساطة :

« انه علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع ، والرواية والذكاء ـ ثم تكون الدربه مادة له ، وقـوة لكل واحدة من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منهـا تتكون مرتبته من الاحسان . ولست أفاضل فى هذه القضـية بين القديم والمحدث ، والجاهلى المخضرم ، والاعرابى والمولد الا اننى أرى حاجة المحـدث الى الرواية أمس ، وأجده الى كثرة الحفظ أفقر » .

قيود العروض

ونعود لرأى الدكتور مندور ، فنعرض فقرة أخرى له أوردها فى هذا السياق قد تنفع الناشئة والمشتغلين بهذا الفن الرفيع ·

يقول الدكتور مندور :

« واذا كانت الدعوة الى التحلل من قيود العروض العربى التقليدية فى وحدة البحر فى القصيدة الواحدة · ووحدة القافية ، ووحدة التنظيم فى توزيع التفاعيل بين شطرى البيت الواحد فان هذه التجديدات لم تخرج عن عروض الشعر التقليدى الا استجابة لذوق موسيقى واضح سليم عند من يستحقون أن يسموا شعراء » ·

والتيار الواقعى فى رأى الدكتور مندور « تيار له أصوله الفنية التى تبلورت خلال تطورات ومعارك أدبية وشعرية متلاحقة ، وربما كانت جدته فى المضمون الاجتماعى الذى رجح كفته تطورنا السياسى الأخير نحو التفكير الجماعى والنزعة الاشتراكية الشعبية ، والدعوة الى الحد من الاثرة · · الخ · ماجاء فى تعريف التيـار الواقعى فى الشعر المعـاصر »

ولست أرى الدكتور مندور قد أتى بجديد فى تعبيريه عن ملامح هذا التيار الواقعى فلكل عصر كما أسلفنا تياره الواقعى ، الذى يدفـع رجال القلم بالفطرة الى مسايرته والفيض عنه .

ولكن الجديد الذى وفد على أدبنا حقيقة هو ما يعبر عنه الدكتور فى سياق حديثه بقوله أنه نور الاصلاح الذى أخذ يبدد ظلمات الفساد الخانقة ، وأن ذلك ما نحس بانعكاساته عند براعمنا الشعرية حزينة شاكية حينا ومشرقة متهللة حينا آخر فى قصائدهم ودواوينهم التى أخذ يختلط فيها الواجدان الفردى بالواجدان الاجتماعى على نحو مانطالع فى اشعار أولئك الشبان .

تجربة

وتحضرنى فى هذا المقام تجربة عملية وضعت يدى عليها حين كنت أعمل رقيبا للاغانى بالاذاعة المصرية على أول عهدى بالعمل بها عام ١٩٤٩ اذ أن هذا الوتر الغنائى الذى يعتبر من أسمى الانفعالات التلقائية ، والذى يوقع أرفع الاحاسيس الانسانية ، لاحظت فى ذلك الحين جماعة من الزجالين الذى وقفوا على أول سلم الشعر ، والموهبة الادبية عندهم لم تكن قد تفتقت براعمها بعد . ولم يكن فيهم على كثرتهم من نال حظا من الثقافة والادب ، وما يمكن أن يكون الزاد لتلك المواهب المبتدئه .

لاحظت أن هؤلاء النظام كانوا يغذون هذه المؤسسة الكبرى والتى لها أكبر الأثر فى توجيه الشعب ـ بفيض زاخر طاغ من الأغانى الرخيصة المبتذلة فى أسلوب ركيك ، ومعنى ضحل ، وعاطفة باردة ، فلم يكن بدآنئذ من البحث عن مخرج ، وانتهى بى التطواف والبحث الى اقناع المسئولين بضرورة اخضاع هذا النغم الخالد الى نظام محكم وكان أن شكلت لجنة لتصفية هذه النصوص كانت تضم كبار شعراء العصر والموهوبين الاعلام من الموسيقيين . فلم نكن نعثر على المقطوعات الفنائية الصالحة الا بعد جهد كبير ، اذا انصرف كبار الشعراء والموهوبين عن الاسهام فى هذا المعترك . وتخلوا عنه لهذه الطائفة التى أشرنا اليها .

ولسنا فى مجال التحدث عن الغناء فى الاذاعة فذلك موضوع يطول البحث فيه ، وان كنت ارى ان الخبرة الطويلة ترشد الى ضرورة ، قيام لجنة خارجية من الاعلام المتخصصين للارشاد الى هذه القياثر ، تقديرا وتقييما لهذا الفن الاصيل ـ ولم تخل دواوين الشعراء من مقطوعات توائم هذا الفن الرفيع ، وتكون زادا أصيلا ، وهزجا يرتل فى كل آن

اقول : بأن موضوع الشعر المستحدث الذى ظهرت بوادره على هذه الايام ، ان هو الا محاولات لبعض المتادبين المبتدئين الذين لم تكتمل ادواتهم بعد ولم يستقوا من زاد الشاعرين قليلا أو كثيرا .

رعاية المواهب

ولو أن منتدى أو جماعة ممن يرعون النشاط الأدبى تبنت هذه البراعم واعدت لهم دراسات فى الشعر ، وزودتهم بذخائر الشعر العربى

المنتقى وضربت لهم أجلا بعيدا فى دراسة وبحث وحفظ لجيد الشعر ، واتاحة الفرصة بعد ذلك للانتاج أقول ان هذا قد يجدى في رعاية هذه الموهبة المبتدئة لدى هؤلاء المغمورين الذين يتنفسون بمحاربة الملكات المكتملة والفن الأصيل بمثل هذا المروق والانحراف والادعاء • حتى أصبحت وكأنها عصابة تترصد كبار الأدباء وأعلام الفنون ، بالتجريح المفرض ، ورأيهم : هو أن الشعر العربى ، فى جميع عصوره ، ان هو الا غثاثات العقول وفيض الجهالات وضع فى قوالب جامدة وصور هامدة ، كما أرتأوا وادعوا • وانهم وحدهم هم أساطين الفن والأدب والالهام •

وانى اذ أستطرد فى هذا البحث لأجدنى لم أوفه بعد حقه فان أمامى الآن صورا شتى من آراء الادباء أرى أن الفائدة تتم بعرض طرف منها • ولا سيما أنها أحدث الآراء التى يدلون بهـا فى مجتمع رسمى ، وتعبر عن مذاهبهم وآرائهم تعبيرا صادقا •

المؤتمرات الأدبية

فقد أتاح لنا مؤتمر الادباء المنعقد فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ بما ضم من أعلام الوفود العربية من خيرة الأدباء •• أتاح لنا الوقوف على رأى هؤلاء المشتغلين بالأدب وخاصة ما أشاروا فيه الى الشعر الجديد على وجه التحديد .

شعر منثور

يقول عضو وفد السودان :

ان جمال الكلمة من جمال المعنى الذى تؤديه ، وقليلا ما تؤدى الكلمة الجميلة معنى قبيحا ، فالقيمة الجمالية ، قيمة متحركة وقيمة نسبية •

أما الموسيقى ، فهذا مالا سبيل الى التجاوز عنها مادام هناك شعر . ان كل المحاولات التى حاولها المجددون والمحدثون لم تؤد الى جديد ولا الى حديث ، والشعر المنثور شىء لا نناقشه فى هذا المجال فهو ضرب من ضروب النثر •

الشعر ظل ثقافة أرستقراطية وان كان أقدم الفنون وأكثرها بدائية ولم يكن مصدر هذه الارستقراطية الا من أنها موهبة . وقليلا ماتكون الطبيعة ديمقراطية فى توزيع المواهب ثم يورد الاستاذ عضو الوفد السودانى فى المؤتمر مختاراته من الشعر للفرزدق فى القومية العربية •

لنا العزة القعساء والعدد الذى
عليه اذا عد الحصى يتخلف

ثم يورد لمهيار الديلمى الشاعر :

قومى اســـتولوا على الدهر فتى
ومشـــوا فوق رءوس الحقب

ثم ينشد فى المؤتمر قول شاعرنا « حافظ ابراهيم » بعد أن يسجل لهذا الشاعر مكانته بقوله :

« وحافظ وشوقى كانا من اكثر الشعراء الذين عملوا على بعث القوميه العربية وينشد لحافظ :

انا البحـــر فى أحشائه الدر كامن
فهل ســألوا الغواص عن صدفاتى

وســعت كتاب الله لفـظا وحكمة
وما ضقت عن آى به وعظـــات

فكيف أضيق اليـــوم عن وصف آلة
وتحـــديد أســـماء لمخترعات

ثم يردد أبياتا لشاعر سودانى فينشد :

ايه يامصر حسب مســعاك فخرا
ان أعـــدت الغداة مجد الجـــدود

يابنى العـــرب والحـوادث تترى
مفزعـــات كقاصـــفات الرعـــود

لا تصيخوا للغـــرب أو تستجيبوا
لنـــداء الاحلاف شــأن العبيد

حيث يهتف صوت حافظ من وراء التاريخ :

رجال الغـــد المأمول انا بحـــاجة
اليكم فسدوا النقص فينا وشمروا

فـــكونوا رجالا عاملـــين أعـــزة
وصـــونوا حمى أوطانكم تتحرروا

فمـــا ضـــاع حق لم ينم عنه أهله
ولا ناله فى العالمـــين مقصـــر

أجل لم يكن اجتماع مؤتمر ادباء العرب ، وتناوله لأدق الموضوعات الأدبية واخطرها وهو (الأدب والقومية العربية) موضوعا لدراساته وتوصياته ، لم يكن ذلك الا تقديرا لمكانة الأدب كما أسلفنا وبالتالى تكريما لرسالة الاديب .

ولقد يكون فى رأى استاذنا الدكتـــور طه حسين عميد الأدب عن

الشعر ومكانته على النحو الذى اورده فى خطابه ، ابلغ تحية لشاعر الوطنية حافظ ابراهيم ·

يقول الدكتور العميد فى تعقيبه على كلمة لأحد الأعضاء :

«وسمعت من السيد ·· أن الشعر أداة للقومية العربية ، وانى استأذن الأستاذ فى أن ألاحظ أن الشعر ليس أداة لشىء ، وأن الشعر هو منشىء القومية العربية أولا »

فأى تحية وتكريم يردان على لسان الاستاذ العميد لشاعرنا الذى أوضحنا كيف أنه عاش يتغنى بأناشيد الحرية ، ويعمل لهذه القومية حتى أصبح صاحب الحق فى أن يكون منشىء القومية العربية بذلك الرأى الحاسم الذى أدلى به عميد الأدب فى الدورة الثالثة لمؤتمر أدباء العرب ·

ثم يقول الدكتور طه حسين :

« الشعر هو الذى شارك فى تكوين القومية العربية وتقويتها بعد أن كونها القرآن »

«ان الأدب هو الذى أتاح لهذه القومية العربية أن تنمو وتزكو ، وتملأ الارض ثقافة ونورا » ·

ثم يحدد الاستاذ العميد وظيفة الأدب حيث يقول :

«فواجب الأدب بالقياس الى القومية العربية هو أن يكون لامجرد أداة لهذه القومية ، وانما وفيا نها يؤدى ماكان يؤديه فى العصور الاولى ، ومازال يؤديه فى هذا العصر »

وقد استبان للقومية العربية وشعوبها وفاء شاعرنا (حافظ) لها فيما يقع فى تضاعيف نتاجه الفنى الذى كان ولا يزال حاديا وهاديا لهذه الشعوب .

واذ ننتقل الى رأى عضو وفد البحرين يتحدث عن الشعر المعاصر الجديد فيقول :

« اذا سألتمونى الآن ما خطب هذا الشعر الجديد ، قلت ان لوحته لطخات من الألوان تفيض على غير هدى ، لا يستطيع القارىء ادراك ما يرمز اليه تشخيص الذاتية الا باستيعاب اللوحة فى نظرة شاملة · ثم يسرد على الأعضاء شعرا مستحدثا لأحد هؤلاء الشعراء بعنوان : من شاعر سورى الى مواطن أمريكى ·

***

انى لا أومن .. لا أومن
ابدا بقصائد تستورد
انى لن أخدع لن أخدع
بمبادىء عالمك الحر

بالامس اتى هـذا الخائب
ليزور تقـريرا كـاذب
صـور فيـه سـوريا
حمراء اللون شيوعية ! !

**

ثم يعلق السيد العضو على هذا الذى اسماه شعرا حديثا بقوله : افلا يذكركم هذا بقول شوقى رحمه الله :

وللحـرية الحمـراء باب
بـكل يد مضرجـة يدق

وفطنة المتذوق وفطرته تغنى عن التعليق !

أين هذا الذى استشعره السيد العضو فى مقطوعة الشـاعر السابقة من قول حافظ ابراهيم يخاطب المندوب السامى :

الم تر فى الطريـق الى كيـاد
تصـيد البط بؤس العالميـنـا

الم تلمح دمـوع الناس تجـرى
من البلوى ، الم تسـمع انينـا

كشفنـا عن نواياكم فلسـتم
وقد برح الخفـاء محـايدينا

الى أن يقول فى بيته اللاذع :

على رغـم المـروءة قد ظفرتم
ولكن ، بالأسـود مصفدينـا .

هيهات أن يلحق هذا العنان الضارب فى سموات الخيال والاعجاز لاحق فى هذا الميدان .

ولا يترك الاستاذ الدكتور سليم حيدر ما أورده الاستاذ مندوب البحرين فى موضوع الشعر الحديث ، بدون أن يعلق عليه بقوله :

قال الأستاذ العريض ، ان الشـعر الحديث يشبه اللوحات الفنية الجديدة التى يجب أن نتمتع بها من بعيد ، وهى لاتتحمل التدقيق والنظر اليها من قريب ، وهذا صحيح ، ومن المؤلم أن يكون هذا الامر صحيحا .

ويعلن رأيه بقوله :

أنا من الذين ينظمون على عمود الشعر القديم ، من صدر ، وعجز وقافية موحدة وبين الاتقان الفنى الذى يجب للشـعر الجديد ، والذى يقتضى وحدة القصيد ، والايحاء من بعيد أو قريب .

« ولعل ابرز مزايا الشعر الجديد وحدة القصيدة التي عرفت في الجاهلية ، وفي صدر الاســـلام ، ووحدة القصيدة هنا لا تقتضي اندماج البيت في البيت ؛ ولا تقتل وحدة البيت ، اذ أننا يجب أن نفهم وحـــدة البيت بمعناها الجديد . البيت يكون وحيدا بالمعنى الذى قصده الاستاذ ابراهيم العريض عندما يمكن أن يستل البيت من القصيد . فلا تفقـــد المعنى ، ولا يخسر القضية » .

« أما وحدة البيت بمعنى اتقان الصــــناعة فهذا أمر يجب أن نبقى متشبثين به ؛ فنحن نريد بناء من الحجر المصقول ؛ وكل حجر أجمل من أخيه ، ويبقى متينا وجميلا ، وتبقى جميع الاصول الفنية متوفرة فيه » .

ثم يشير الى ما ورد على لسان ممثل وفد السودان الأستاذ عبد الله البنا اذ يقول أن تغيير البحور وتعدد القوافي ، وما ظهر من الشـــعر الجديد لا يعتبر معركة أساســـــية ، ويعقب على ذلك بقوله انه الرأى الصائب .

ثم يقول : أعتقد أنه من الظلم للشعر الجديد أن نقصر تجـــديده على شكل القوافى والأوزان والاستغناء عن القوافى أحيانا ، وهذا الاطار حاول الغرب فى القديم أن يخرجوا منه فى الشعر الجاهلى . وخرجـوا على وحدة القافية ، فكانوا يقتطعون كل عشرة او سبعة أبيات فى قافية واحدة . وبعد ذلك أتى الاندلسيون وافتنوا فى التوشيح ، أما نحـــن فنقول أن الاستاذ لم يشأ أن يقدم لنا ، نماذج من الشعر الجديد الذى بهره مما تشبث به ، وما لا يمكن أن يكون شعرا ، انما هو لون من ألوان الأدب لا يعدو أن يكون نثرا فنيا ان كان فى المستوى الذى ينهض به الى هذا المسمى ، وهوولا شك ثروةأدبية ضخمة ، تعبير صادق للموهوبين الذين لم تعدهم الطبيعة ليكونوا شعراء .

ويتحدث الاستاذ مصطفى عبد اللطيف فيقول : «سواء أكان الشاعر هذا أم ذاك ، فالشاعر الذى نريده هو من يوقد فى الناس تلك الشـعلة المقدسة قبل أن ينير لهم الطريق الى القومية أو الوطنية ــ انا نريد ذلك الشاعر الذى تتبلور مبادئه ، والذى تكون له فكرة مستنيرة يسير بهـا على طريق الحادة » .

ركام من الشعر ٠٠ !

« ولقد سمعنا شعرا عن فلسطين فكان ركاما من الشعر ليس فيه الا بعض الماسات فيزجاج محطم ، وسمعنا شعرا كلاسيكيا عن بورسعيد – لماذا ، لان الشاعر لا يؤمن بالرسالة ، ولم تجر فى دمه هذه المبادىء الوطنية ، ولا القومية التى ندعو اليها ، ٠ قال بعضنا : انه يجب أن نفتن للشعر أوزانا نفرضها على الشعراء ٠ ولكن اذا كان لابد لنا من ذلك فلا بد لنا أن نراعي الأصول الفنية في الشعر ، سواء أكان حرا أم كلاسيكيا ، لان هذه هى المشكلة الحقيقية ٠ فنحن نقرأ بجانب الشعر الحر الرائق ، شعرا حرا فى غاية السخف ، يكتبه جماعة من المقلدين ، لا يفقهون الشعر الا على أنه تقليد مجرد واذا استمر على هذه الطريقة فسيصبح الشعر لا يعرف تناسبا ، ولا ايقاعا ، ولا نغما ، ولا يسرى فيه الانفعال ٠.

الشعر الحر الذى نسمعه الآن ليس بالشعر الجيد كله ، ويجبأن يكون للشعر عناصره الفنية ٠ وأن يجرى الشاعر فى ابداعه بمراحل عملية الخلق وهى مراحل يعرفها الموهوبون من الشعراء معرفة واعية » ٠

المثل الاعلى للشعر

ومما أمتع ما يتحفنا به الدكتور طه حسين عن رأيه فى المثل الاعلى للشعر ، بقوله :

« الناس يخطئون حين يظنون أن أصحاب الجديد لا يرون اللذة الفنية الا فى الجديد ، وهم مخطئون أيضا حين يرون أن أصحاب القديم لا يجدون اللذة الا فى الشعر القديم ٠ فأنا من أصحاب الجديد ، ومن أشدهم الحاحا فى تأييده والدعوة اليه ، ولكننى على ذلك أجد فى قراءة القديم لذة لا تعدلها لذة ومتاعا ليس يشبهه متاع – ذلك لأن القديم والجديد لم يستمدا جمالها الفنى من القدم والجدة وحدهما ٠ وانما استمداه من هذا الروح الخالد الذى يتردد فى طبقات الانسانية كلها ، فيحل فى كل جيل منها بمقدار ، وهو يتشكل فى كل جيل بالشكل الذى يلائمه ؛ ويتصور فى كل بيئة بالصورة التى تناسبها ؛ وهو من هذه الناحية مصدر وحدة وفرقة للانسانية ٠

ويقول :

« للقديم اذن جماله نشعر به نحن شعورا منقوصا ، وكان القدماء يشعرون به شعورا كاملا ، ويستطيع العلماء الذين يقفون أنفسهم على الدرس ويتعمقون فيه أن يجعلوا أنفسهم قدماء يتقنون لغتهم وحياتهم وظروفهم المختلفة ، فيشعرون من الجمال بما كانوا يشعرون به ٠

ولكن هذا على صعوبته وعسره ، لم يقسم ، ولا ينبغى أن يقسم الا لطائفة قليلة جدا من الناس » ٠

« لشعر القدماء معنى فى أذواقنا لانه يمثل حقيقة من الحقائق هى حياة القدماء ويمثلها بصورة تلائمها ٠ ولكن الشعر الحديث ليس له هذا المعنى ، لانه لا يمثل حياة القدماء لانه لم ينشأ لتمثيلها » ويستطرد الدكتور فى بحثه القيم ٠ الى أن يفيض علينا من بيانه عن المثل الاعلى للشعر فيقول :

« المثل الأعلى للشعر هو الكلام الموسيقى الذى يحقق الجمال الخالد فى شكل يلائم ذوق العصر الذى قيل فيه ، ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ويمكنهم أن يذوقوا هذا الجمال حقا فيأخذوا بنصيبهم النفسى من الخلود »

التطور فى الاندلس

ومعروف فى الدراسات الأدبية وبين أوساط الدارسين لتاريخ الأدب عامة والشعر خاصة أن مدلول التجديد فى الشعر على وجه التجديد فيما تناقلته آراء الباحثين انما هو التجديد فى معانى الشعر وأخيلته ، وأسلوبه ٠٠ الخ ما بينا ، وهو أمر لم يغب عن بال المدارس الأدبية التى تساير النهضات طوال العصور ، بل ان هذا هو الاصل فيما حدث فى الاندلس ٠ حين تناول التجديد بناء القريض وعمود الشعر الى الموشحات والزجل وكان سبب هذا التجديد بادىء ذى بدء تلك الحياة الجديدة التى تغاير الى حد كبير حياة العصور الخوالى وحاجة الاسماع الى التعبير عن تلك المجتمعات المتطورة بالاسلوب والمعانى والأخيلة التى تتسق معها ، وأن تكون الصور المستوحاة فى القصيد موائمة لصور الحياة ٠٠ وأدى الى ذلك تعلق الاذهان والاسماع بالشعر وتعشق الشعراء لهذا الفن ونظرتهم الى التجديد فيه والابداع ومجاراة الاقدمين ٠

ولكن هل استطاعوا أن يزيدوا فى غير مظاهر الحياة وصور الاجتماع المتغير وحالات البيئة ؟

لعلى اجزم بأنهم لم يغيروا كثيرا ولم يستطيعوا أن يسبقوا فى الشعر الوجدانى • وانما استطاعوا أن يتوسعوا فى مظاهر الحضارة وما يتصل بالوجدانيات من مباهج ومناظر وآثار المدينة والعمران •

وحين ابتكر الأندلسيون الأوزان الجديدة فى الشعر أحدثوا انقلابا فى الأوزان والقوافى واستحدثوا أوزانا لم تكن معروفة من قبل ، وبهذا استطاعوا أن يغيروا أو يزيدوا فى بناء الشعر ، ولم يرتبطوا بنظام القوافى المعروف •

لقد أدخلوا ما أسموه : القريض ، الموشح ، الدوبيت ، الزجل ، المواليا ، وهى لا تخرج عن تلك النماذج المتداولة والمأثورة عن أدب الاندلس فى جملتها والتى غلب عليها التعريف (بالموشحات)

ويطل الاستاذ الدكتور أحمد ضيف ذلك الى « حب الابتكار والميل الى الجمال والرفاهية عندهم والذى تناول أوزان الشعر فمزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافى المتعددة فى قصيدة واحدة ، وربما الفوا بين وزن مخترع ووزن معروف وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة وقد يلحنون كلامهم هنا ويغنون به لما فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ » •

وقد سقت تعليق الدكتور ضيف لا لأنوه بهذا الدور الخطير من استحداث انقلاب فى أوزان الشعر ، ولا لأشيد بهذا الدور وأحتفل له ، لا وانما سقته لأوضح أشياء كادت أن تخفى أهمها :

ان هذا الخلط الذى حدث نشأ فى مجال النهضة الادبية لا النكسة الادبيه ، ولانك لا تجد فيه ذلك الجلال وتلك الروعة التى يتضمنها الشعر الاصيل الذى لم يتاثر بهذا المزج وذلك الخلط ، ولكى ابين أن هذا كان مبدأ لانهيار عمود الشعر فى الاندلس ، وأن التطور الذى انتهى بالشعر الى الموشحات تولد عنه ما يعرف بالزجل ذلك الذى أعفى من قواعد اللغة وملامحها وسمانها وكان مولودا غير شرعى تحرر من عادات قومه وانحسر عنه ذلك المدى الفطرى الذى يحفظ عليه بهاءه وسموه ، فاذا به (أى الزجل) يصبح عامية الشعر التى يتسلقها ذوو الثقافات المحدودة والمواهب التى لم تنضجها الدراسة والتهذيب والتحليق بها

يقول ابن خلدون فى مقدمته :

« وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتاخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه أسماطا أسماطا ، وأغصانا أغصانا ، ويكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عدد قوافى تلك الاغصان ، وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهى عندهم الى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها

بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيهـا ويمدحون كما يفعل فى القصائد وكان المخترع لهذه الموشحات بجزيرة الاندلس اسمه (مقدم ابن معافر الفريرى) من شعراء الأمير محمد بن عبد الله المروانى ، وأخذ عنه بعد ذلك ابن عبد ربه صاحب العقد ـ ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما ثم يذكر أن أول من برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح وكان يقال لايقاعه : كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم ، شـمس ضـحى غصن نقـا ، مسـك شم
مـا أتم ، ما أوضـحا مـا أورقـا ، ما أنم
لا جـرم ، من لمحـا قد عشـقا ، ثم حـرم

ويذكر انه لم يسبق عبادة وشاح من معـاصريه الذين كانوا فى زمان ملوك الطوائف ، وتبعه ابن ارفع شـاعر المأمون ابن ذى النون صاحب طليطله فطار صيته اذ يقول مبتدئا موشحته :

العـود قـد ترنم بأبـدع تلحـين
وشـقت المـذانب ريـاض البسـاتين

ويختمها بقوله :

تخطـر ولا تسـلم عسـاك المـأمون
مـروع الكتـائب يحيى بن ذى النـون

ثم يجىء نوع آخر هو الموشحات المذهبة نسوق منها للتطليق قوله :

كيف السـبيل الى صبرى وفى المعـالم أشـجان
والركب وسـط الفلا يا لخـرد النواعم ، قـد باتوا

وأيضا :

ضـاحك عن جمـان سـافر عن بـدر
ضـاق عنه الزمـان وحـواه صـدرى

ويقول ابن هردوس فى موشحة له :

يا ليلة الوصل والسعود بـالله عـودى

وابن مؤهل :

ما العيد فى حلة وطاق وشـم طيب
وانمـا العيد فى التلاقى مـع الحبيب

ويعود الدكتور ضيف فيعلل نشـــــأة الموشحات في الاندلس واختراعها الى ما تولد في النفس من ميل الى الخلاعة والدعابة في الكلام وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الأوزان القديمـــة المرونة ، لضيق تلك الاوزان عن احتمال عبث الشعراء على حسب أهوائهم ، وقد سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعـــروفة ، وحاولوا ابتكار شيء جديد ، فاخترعوا تلك الأوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام في بحبوحة اللهو والطرب والرقص وانشاد الشـــعر بطريقة خفيفة على النفس ، وقد وجدوا ذلك أدعى الى تحريك النفوس فبـــدأ بالاوزان العربية الخفيفة ، كالرمل والهزج والمقطوعات وغيروا فيها القافيـــة وولدوا من ذلك الموشحات ، وأباحوا لأنفسهم التغيير في الوزن والقافية فاخترعوا من الأوزان مالا قاعدة له ثم توسعوا في هذه الأوزان وشـــمل هذا الضرب كل ألوان التسلي واللهو وتمشى في نفوس الناس حتى أصبح نوعا من الشعر العام ٠

ويواصل الدكتور ضيف قوله في التطور الذى حدث لهـــذا النوع المبتدع في الشـــعر بقوله ٠ ثم انتقل الى بلاد البربر وغـــيرها من بلاد المشرق وكثير من البلاد الاسلامية وانتشرت وتناقلهـــا الكثيرون حتى أصبحت الموشحات قريبة من لغة العامة ، وصارت من كلامهم وأناشيدهم ويقول :

« وكلما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى ، وعن الشعر العربي الفصيح »

« وتأثرت هذه التواشيح بالحياة العقليه ومجتمع العوام » ٠

« فلا غرو أن نجد في الموشحات خلطا بين الشعر العربي الفصيح والكلام العامي الملحون ، وكثيرا ما تتخللها عبارات عامية ؛ وعلى غير قواعد اللغة فليست الموشحات عربية صرفه ولا عاميه بحتة ، ثم توسعوا في ذلك حتى تعددت اللهجات وكثير من هذه اللهجات لا يتذوقها من يعرف العربية الفصحى ومن هنا تطرقوا الى الزجل، ذلك الشعر العامي المعروف٠

***

وقد استطردت في ايراد هذا البحث الخاص بنشأة الموشـــحات وتطورها لأصل الى هذه الحقيقة ٠٠

تلك التي أفسدت اللغة والشعر وامتدت الى ادخال لهجات ورطانه لا يمكن أن تتسع لهما ثياب العربية الصحيحة ٠

واذا كان لي أن أعلق على هذا ، فهو ما أريد أن أوضحه للقارىء من أن هذه الفترة الأندلسية أو هـــذا التطور الأدبي الذى دخـــل على الشعر العربي فيه بابتداع الموشحات وان عاش فترة طويلة وأبدع فيه

مبدعوه ، وأساغه سامعوه الا أنه كان كما رأيت من الشواهد مقاطع ليست بذات خطر فى جدية الانشاء الشعرى وجلال القصيد ، كما انها كانت ذات نهاية مفجعة مطورة للغة لا الى تحسين وارتفاع وادخال مذاهب مجدية ، وانما الى استحداث وابتداع ، لا ابداع ٠

هذا وان كنا لا نغض عن بعض تلك الموشحات الشهيرة التى اضطلع بابداعها وانشائها المهرة من كبار الشعراء والمبدعين ٠

فموشحة لسان الدين بن الخطيب التى مطلعها :

جادك الغيث اذا الغيث همى — يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك الا حلما — فى الكرى أو خلسة المختلس

والتى فيها يقول :

ان يكن جار وخاب الأمل — وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول — ليس فى الحب لمحبوب ذنوب

ويقول فيها أيضا :

تبصر الورد غيورا برما — يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآس لبيبا فهما — يسرق السمع بأذنى فرس

حافلة بالمعانى الرقيقة والاسلوب السهل والافتنان فى الصياغة وحوك المعانى ٠

وكذلك موشحة بن سهل التى يقول فيها :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى — قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثلما — لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بدورا أطلعت يوم النوى — غررا تسلك فى نهج الغرر
ما لقلبى فى الهوى ذنب سوى — منكم الحسن ومن عينى النظر

وهى عربية صريحة تنم عن قدرة صاحبها وثقافته

وكذلك موشحة بن سناء الملك وفيها يقول :

كللى يا سحب تيجان الربا بالحلى
واجعلى سوارك منعطف الجدول

وبعد فان الداعين الى الشعر الجديد على عهدنا هم أمثال تلك الجماعة التى تستخدم العامية واللهجات وتنزلهما منزلة الشعر ، بل ويقارب ما يكتبونه ويدعون انه شعرا ما هو معروف بالزجل ٠

وان جاء عربيا فصيحا ألحق بالنثر الفنى حيث أنه متحلل من كل وزن أو قافية ٠٠

صيداح الوطنية

ليس بغريب على شاعرنا (حافظ ابراهيم) أن يمدح صديقا له فى تهنئة ، أو تحية لمناسبة من المناسبات أو غرض من الأغراض • أو أن يتناول موضوعا اجتماعيا، أو دينيا ، أوقوميا فيضمنه احساسه ومشاعره نحو وطنه ، وان كان مقام القول ومناسبته بعيدين كل البعد عن التغنى بأمجاد الوطن واستثارة ذكرياته •

أجل ، ليس ذلك بغريب ولا عجيب على شاعر الوطنية ، فقد كان الوطن أمرا يعتلج فى نفسه ، ونارا تهيج خواطره •

كان وتره كلهاة الطائر ، يستثيره الحنين ، ويهيجه الشجن ، فهو على طرب دائما وفى ترنيم ، وهو بين هذا الطرب والترنيم ، متصل المشاعر بقوميته ، لا يتخلى عنها ولا تتخلى عنه •

يهنىء صديقا له بامارة الحج ، فلا ينسى أن يضمن شعره الهاتف الخفى المستكن فى نفسه فينشد :

هزك البيت الحرام له   هزة المشتاق للوطن

ويهنىء الاستاذ الامام بمنصب الافتاء ، فلاينسى وطنه وأمته فى قوله :

وخفضت من حزنى على مجد أمة   تداركتها والخطب للخطب يعتلى

***

أليس من صميم الوطنية أن يشير الشاعر فى قصيدة يحيى بها واصف غالى عندما نشر كتابه المعروف (بحديقة الازهار) الذى ترجم فيه بعض الشعر العربى القديم الى الفرنسية ، وكان يشيد بذكر مصر ، ونتاجها الأدبى فى محاضراته التى كان يلقيها بفرنسا عن مصر والشرق أليس من صادق وطنيته أن يتخذ من هذا الموضوع الشخصى موضوعا قوميا :

غرست من زهرات الشرق طائفة
في ارض (هوجو) فجاءت طرفة الجانى
بالأمس كان لها شرق تضوع به
واليوم صار لها بالغرب شرقان

ثم يعقد مقارنه بين شاعرين فرنسيين وآخرين عربيين •

سل (الفريد) و (لامرتين) هل جريا مع (الوليد) أو (الطائى) بميدان

وينوه بموقف واصف غالى فى الدفاع عن آداب العرب فى قوله :

وقفت تدفع عن آدابنا تهما كادت تقوض منها كل بنيان
فكنت أول مصرى أقام لهم على نبالة مصر ألف برهان
مازلت تلقى على أسماعهم حججا فى كل ناد ، وتأتيهم بسلطان

وفى هذه القصيدة يرد حافظ على قالة الفرنسيس ودعواهم من قصور الادب العربى عن استيعاب فنون الشعر ، فألجمهم الحجة اذ يقول :

محوت ما كتبوا عنا بقاطعة من البراهين فلت قول (رينان)
أنحى على الأدب الشرقى مفتريا عليه ما شاء من زور وبهتان
ظن الحقيقة فى الأشعار تنقصنا واللفظ والقصد والتصوير فى آن
وأننا لم نصل منها الى مئة عدا ، وذاك لقصد أو لنقصان
ولو رأى «ابن جريج» فى قصائده لقال آمنت فى سرى واعلانى

بمثل هذا الحجاج كان ينافح الشاعر عن وطنه ، يتصيد الفرصة ليدلى بحجته فيخرس ألسنة المهاترين ٠

شكسبير

ولم يكن حافظ يعيش بعقلية عصره فحسب ، وانما كان يسبح بخياله فى قضايا العالم وشواغله مما يشغلنا نحن الآن من انحراف عن أسس الحضارة ، وتسخير العلم للتدمير ، اقرأ معى أبياته فى تحية ذكرى شاعر الانجليز (شكسبير) ناعيا على الحضارة الزائفة تسخير العلم لغير ماوضع له وما يرجى من خير به :

فليتك تحيا يا أبا الشعر ساعة
لتنظر ما يصمى ويدمى ويؤلم

وقائع حرب أجج العلم نارها
فكاد بها عهد الحضارة يختم

ولعله كان يشير من طرف خفى الى تلك الأمة يتنسب اليها الشاعر منددا بمنهجها فى اهراقها دماء الشعوب واستنزاف أموالهم بالحروب والاستعمار :

أفق ساعة وأنظر الى الخلق نظرة
تجدهم وان راق الطلاء هم هم

هل طهرها من شر أطماعهم دم
وفوق عباب البحر من صنعهم دم

غيرة

ومن غيرته على أمجاد أمته وتاريخها الحافل ، أن يشير فى أبيات له نظمها فى زيارته لآثار الفراعنة . يشير اليهم وقد عرضوا على النظارة ، فى متحف الآثار ، فينكر على قومه اهدار مكانة هؤلاء الملوك الذين كان لهم شأن فى تاريخ مصر :

قد زرت متحف مصر ، فى ظهر يوم الخميس
فى زمرة من رفاق غر الشمائل شوس
فضقت ذرعا بأمر على النفوس بئيس
رأيت جثة خوفو بقرب (سيزوتريس)
فقلت يا قوم هذا صنع العقوق الخسيس
أجساد أملاك مصر وشائدى منفيس
من بعد خمسين قرنا لم تسترح فى الرموس

ويهتز الشاعر أسفا ، وحزنا على ذلك المشهد من اذلال الفراعنة وعرضهم على الناس على النحو الذى يجليه فى هذه الأبيات :

أرى فراعين مصر فى ذلة ونحوس
معروضة للبرايا أجسادهم بالفلوس
قديس ظلما حماهم وكان غير مدوس

ثم ينبه الى ما هم أولى به من تكريم واعزاز فى قوله :

لو أن أمثال مينا فى الغرب أو «رمسيس»
بنوا عليهم وخطوا حظائر التقديس

سعد زغلول

كان حافظ وقاد القريحة حين يصول فى ميدان الوطنية ، وكان فنه مسعفه ومواتية وكانت خاطرته مطاوعة له اذا ما لمس وتره ليشدو بأغانى وطنه فى قوله يحيى سعد زغلول :

الشعب يدعو الله يا زغلول أن يستقل على يديك النيل
فاوض فخلفك أمة قد أقسمت ألا تنام وفى البلاد دخيل

ويحذر المفاوض المصرى من ختال الانجليز ، وخداعهم ، وهل يحذق هذا الفن غيرهم ؟ أو يعرف خباياهم سوى شاعرنا ! وقد خبرهم فى

السودان ، وهو يعمل مع رجالهم العسكريين والسياسيين انه يحذر سعدا من ذلك النهر الذى يسمى (التاميز) وينبه الى ما قد يغرز به ، والى عمق السياسة الانجليزية ودقة خيوطها ، وخفاء وسائلها بقوله :

لاتقرب التاميز ، واحذر ورده — مهما بدا لك أنه معسول
الكيد ممزوج بأصفى مائه .. — والختل فيه مذوب مصقول
ولهم أحابيل اذا ألقوا بها — قنصوا النهى فأسيرهم مخبول
فأحذر سياستهم وكن فى يقظة — سعديه ان السياسة غول

وما أبرع ما تواتيه القريحه فى قوله :

ان مثلوا فدع الخيال فانما — عند الحقيقة يسقط التمثيل
الشبر فى عمرالسياسة فرسخ — واليوم فى فلك السياسة جيل
ولكل لفظ فى المعاجم عندهم — معنى يقال بأنه معقول

الى آخر ما أورده الشاعر فى قصيدته مما يصلح لأن يطبع بوزارة الخارجية ويذاع على السفارات على أنه نصائح شاعر ، وان كان أبطال السياسة يحذقون هذه الفنون . ويسبرون أغوارها .

ولله در الشاعر وهو ينعى عليهم دولتهم فى قوله :

كم دوله شهد الصباح جلالها — وأتى عليها الليل وهى فلول

لطفى السيد

ولا ينسى وهو يقدم تحية الى أستاذه احمد لطفى السيد أن يغمز مزهره الوطنى فينشد :

انا نناضل آمة — اقطابها أسد ضوارى
عركوا الزمان وأهله — وتحصنوا من كل طارى
أمست سياستهم كطلسم — يحير كل قارى

لا بل ، انه يهدى بأبياته الى صديقه (حفنى محمود) فيهتف بوطنه من حيث لا يعنى :

ان رشحوك فأنت من بيت رمى — بسهامه عن حوزة الأوطان

وكان الشاعر مشوقا الى يوم الخلاص فى قوله :

وتنظرى ان الخلاص مجتنم ... — فالله أسئلم أمرنا لموفق .

وحين يحيى شوقي بقصيدته التي مطلعها :

بلابل وادى النيـل بالمشرق اسجعى
بشـعر أمـير الدولتـين ورجعى

يهتف :

لدى كل شعب فى الحوادث عدة ... وعدتنـا ندب التراث المضيع
فيا ضيعة الاقلام ان لم تقم بها ... دعامة ركن المشرق المتـزعـزع
عزيزعليه يابنى الشرق أن ترى ... كواكبـه فى افقـه غـير طلع
وأعلامه من فـوقه غـير خفق ... وأقلامه من تحتهـا غـير شرع
وكيف يوقي الشر أو يبلغ المنى ... على ما ترى من شمله المتصدع

ويصل الى ذروة البراعة الفنية المشوبة بالشعلة المقدسة شـعلة الوطنية :

فان كنـت قـوالا كريمـا مقـاله
فقل فى سبيل النيل، والشرق، أودع

جهاد المرأة

ولا ينسى أن يحيى جهـاد المرأة ويرسم لها الطريق لبنـاء مصر الحديثة ، انه يحيى جمعية المرأة الجديدة بلمسات المزهر الوطنى المعبر :

يقولون نصف النيل فى الشرق عاطل ... نسـاء قضين العمر فى الحجرات
وهذى بنات النيـل يعملن للنهى ... ويفرسن غرسـا دانى الثمرات

ويسجل للمرأة صدق الكفاح :

وفى السـنة السوداء كنتن قدوة ... لنا حين سال الموت بالمهـجات
وقفتن فى وجه الخميس مدججا ... وكنتن بالايمان معتصـمات
وما ها لكن الرمح والسيف مصلتا ... ولا المدفع الرشاش فى الطرقات
تعلم منكن الرجال ، فأصـبحوا ... على غمـرات الموت أهل ثبات

فكتور هوغو

وحين يتغنى حافظ بالحرية ، ويدافع عنـها ، ويضـمنها موضوعاته ، يؤدى رسالة ندب لها ، يتحدث عنها ، وهو يشير الى نفى « فكتور هوغو » حين نفاه لويس بونابرت عام ١٨٥١ .

هاف في متفــاه ان يدنو به عفـــو ذاك القـــاهر المغتصب
بشروه بالتـــداني ونســوا انه ذاك العصـــــامي الابي
كتب المنفي ســـطرا للذي جاءه بالعـــفو ، فاقـرأ واعجب
أبرىء عنـــه بعـــفو مذنب ؟ كيف تسدى العفو كف المذنب ؟

ثم يندد باعتقال العــقول ، والحجر عليها ، واثر « هوجو » في تحريرها .

جاء ، والاحــلام في أصفادها مالها في سجنــها من مذهب
طبــع الظلم على اقفــالها بلظـــاه خاتمـــا من رهب
جاءها « هوجو » بعـــزم دونه عزة التـــاج ، وزهو الموكب
وانبرى يصـــدع من اغلالها باليراع الحـــر ، لا بالقضب
هاله الا يراها حـــــرة تمتطي في البحث متن الكوكب

مصر ، والعراق

وهاهي الوحدة العربية أغنيته المحببة الى نفسه ، يرددها على قيثار مختلفة وبألحان منوعة :

استمع الى هذا الوتر :

النيل ، وهو الى الاردن في شغف يهدى الى «بردى» اشواق ولهان
وفي «العراق» به وجد «بدجلته» و «بالفرات» وتحنان «لسيحان»
ان دام ما نحن فيه من مدابرة وفتنة بين اجنـــاس ، وأديان
رأيت راى المعرى حين ارهقه ما حل بالناس من بغى ، وعدوان
لا تطهر الارض من رجس ومن درن حتى يعـــاودها نوح بطـوفان

ونقف هنا وقفة قصيرة ، لنسجل لشاعرنا تحيته للدكتور طه حسين بعد أن فصل من الجامعة

قد اجدبت دار الحـجا والنهى بعـــدك من آرائك النـــافعة
واخصبت أرجاء مصـــــر بمن صــــير مصرا كلهـــا جامعــة

شعر لم يف بالقصد

وهو في رايي انه شعر لم يف بالقصد ، فالدكتور طه عميد البيان ، وهذا الايجاز فيه تكلف ظاهر ، ودون قدر الدكتور طه حسين .

هل ينساب القريض فى انشاده بتحية الدكتور طه حسين كما ينساب فى قصيدته التى يحيى بهـــا المقتطف ، وشيخيه ، « نمر » ، « صروف » :

شيخان قدخبرا الوجود ، وادركا ... ما فيه من علل ، ومن اسـباب
واستبطنا الاشياء حتى طالعـــا ... وجه الحقيقة من وراء حجـاب
خمسون عاما فى الجهاد كلاهما ... شاكى اليراعة ، ظاهر الجلبـاب
لا تعجبوا أن خضـبوا قلميهما ... وبياض شيبهما بغر خضـــاب
فلكل حســـن حليـــة يزهو بها ... وأرى اليراعة حليـــة الكتـــاب

الى آخر تلك القصيدة التى تربو أبياتها على الخمسين .

أقول ، هل كان حافظ فى تحيته للاستاذ العمـــيد صـادق العاطفة ، أم انه استجاب لدعــــوة طلبة الجامعة فى اشتراكه فى تكريم العميد المفصول بهذين البيتين ؟

أما كان يستحق هذا الموقف الرائع ، الذى انتهى بالدكتـــور العميد الى حرمان الجامعة منه فى ذلك الحين ، الى أن ينشد حافظ فى تكريمه ما يستأهله علمه وفضله ووطنيته من تقدير ؟

* * *

وحين يكرم الشــاعر ينشـــد فى المحتفلين به قصــيدته التى مطلعها :

ملكتم على عنــان الخــطب ... وجزتم بقـدرى ســماء الرتب

كان ذلك فى عام ١٩١٢ ، وسجل الشاعر ما يستشــعره فى نفسه من حق مصر عليه فيقول :

أتسمى الى حمـــاة القـريض ... وتمشى الى سراة العـــرب
وتنظم فى عقـــود الجـــمان ... وتنـــشر فوقى نثـــار الذهب
وأكـــرم حتى كأنى نبـــغت ... وقمت لمصر بمـــا قـــد وجب

يرى حافظ أن تكريم الشعب له ، يجب أن يقوم على قدر قضائه حق الوطن عليه ، فياله من مكرم ، ومكرم .

مزهر الوطنية فى مراثيه

فى مطالع هذا القرن كان حافظ ابراهيم على موعد مع دعوة التحرير التى هتف بها قلب العروبة ، وقد اشـــتهر مع حافظ فى الثلث الاول من القرن العشرين شوقى ، وصبرى ، ومطران ، وهم الشعراء الاربعة الذين أجادوا وأبدعوا وسايروا النهضة الحديثة ، وكونوا دعامتها فى الشرق .

واذا كان الشرق فى تلك السنين التى لمع فيها هؤلاء الاعلام ، قد عانى من صراع المستعمر ، وصياله ، ما يعرفه الخاصة والعامة ، فان هذه الاوتار قد تركت للامة العربية ذخيرة من الآداب والفنون ، لم يتح لها فى غير هذه الظروف ، أن تفوز بمثل نفائسها .

ولقد أخذ كلّ شـاعر من هؤلاء بحظه فى تخطيط رسـالته فى الشرق على النـحو الذى اتجهت فيه ملكته وطريقته ، بل ومدرسته ، فانهم وان التقوا على ميعـاد ، وفى عصر واحد ، وأمام ظروف موحـدة فقـد ضرب كل حيث نزعت به فطرته ، وحيث تأثرت حياته واذا أفردنا بحثنا اليوم لاحد هؤلاء الشعراء الاربعة وهو حافظ مكتفين به ، فانما كان ذلك ، لأن منهج البـحث قد وضـع له فليس ذلك لتفضيل أحدهم عن صحابته .

وحين نتحدث عن حافظ الشاعر ، نعود الى نشأته تلك التى تميزت بالنشأة المصرية الشعبية .

وحياة حافظ تلك التى كانت مضطربا بين الصعيد ، والقـاهرة ، وطنطا ، ثم ذهابه الى السودان ، وعمله بالجيش المصرى بالسودان ، وبعده عن الامراء ، وتشبثه بالاندماج بالشعب اندماجا تاما ، هيأ له الوقوف على مشاعره ونزعاته ، واتصاله بزعماء النهضة الفكرية والوطنية . أمثـال محمد عبده ، وسعد زغلول ، ومحمد فريد .

كل ذلك وجهه الى التعبير عن أمجاد مصر . وتجاوبه معها فى كفاحها ضد الغاصب . فكان حافظ لسان مصر ، وضمير الشعب يتحدث عنهـا ويتجاوب مع أهـداف الوطن ، وصيحاته . بما آتاه الله من فن بليغ فى القول ، والبيان ، ومناحى الابداع الشعرى .

واتخذ حافظ من الرثاء مظهرا من مظاهر الوفاء للقادة والمصلحين وكان لقصائده احتفال ، واهتمام ، من الشعب ، حيث يلقيها فى المحافل العامة . والمناسبات الوطنية .

كان حافظ ينفث سحره فى الشعر ثم يرسله ليطوق به القلوب فما تستطيع عن تأثيره فكاكا . كان يأسرها ، ويأخذها ببرهانه ، فشعره متصل بشجون الناس وشئونهم ، وشئون الشرق وآلامه . وهو فوق ذلك ثائر ثورة المتجاوب مع هذه الشجون والآلام ، فكان حزنه حين يحزن ، وألمه حين يألم ، وغضبته حين يثور وينفعل ، من ضمير القلب وشعاعه النفس .

والروابط الوثيقة ، والصلات التى كانت تربط حافظا بأستاذه الامام وأضرابه من الزعماء والقادة وأصحاب التوجيه ، ومن تلقى عنهم دروس الوطنية على عهده ، هذه الروابط وتلك الصلات ، كانت تنمو ، وتزكو ؛ وكان حافظ وفيا شديد الوفاء حين كان يبكى علما من أعلام مصر الذين تأثرهم وفارقوه .

بل لقد كان تعبيره من ذلك اللون الذى ننشده من الحزن والألم فيما يبثه سياسياته ، وما يودعه قصائده فى مصاب الشرق ، وما يحيط به من كوارث ومحن .

فصلاته بهؤلاء الوطنيين الذين كانوا يوجهون الشعب ، ويبصرونه بشئونه ، وحقوقه ، كانت صلات مشتركة ، وروابط وطنية ، وانسانية تربطه بهؤلاء . فاذا ما فقد حافظ أحد هؤلاء الاعلام ، انتقل من الرثاء والبكاء الى تضمين قصيده الاثر الذى تركه هؤلاء فى نفسه بعد وفاتهم والفراغ الذى خلا بفراقهم ، وحاجة الوطن اليهم ، نزعات وطنية صادقة ، ومشاعر انسانية عليا .

يقرأ الدكتور طه حسين ابيات حافظ فى رثاء الامام الشيخ محمد عبده حين يقول :

سلام على الاسلام بعد محمد	سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا، على العلم والحجى	على البر والتقوى ، على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت بعده	فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوا لهفى ، والقبر بينى وبينه	على نظرة من تلكم النظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا	كأنى حيال القبر فى عرفات

لقد جهلوا قدر الامام فاودعوا   تجاليده في موحش بفلاة
ولو ضرحوا بالمسجدين لا نزلوا   بخير بقاع الارض خير رفات

يعلق الدكتور طه حسين على هذه الابيات بقوله :

« في لفظ هذه الابيات من الروعة والرصانة ، ماعرفناه في شعر حافظ كله أو أكثره ، ومعانى هذه الابيات مألوفة شائعة ، ليس فيها غرابة ولا ابتكار ، ولكن فى الابيات مع ذلك شيء لا أدرى ما هو ، يملأ النفس روعة ولوعة ، والقلب أسى ، بل أنا أدرى ما هو ، هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم فى نفس حافظ حزنا صادقا على صديقه ، ووليه واستاذه ، نفذ هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى فجعله حزنا كله . »

أجاد حافظ في رثاء الأستاذ الامام ، وفى رثاء مصطفى كامل ، لأن الأول كان فقده رزءا فى عظيم من عظماء الدين ، ومن عظماء النهضة الفكرية ولأن الثانى كان فقده رزءا فى عظيم من عظماء السياسة .

فكان حافظ فى رثائهما . ناطقا بلسان الجماهير .

وبراعة حافظ فى تصوير آلام الشعب أكسبت شعره السياسى ، ورثاءه لاصحاب السياسة لونا من الخطابة يمنحه قوة غريبة ، تسيطر حقا على نفوس الجماعات فتفعل فيها الاعاجيب .

ويسوق الاستاذ العميد أبياتا من شعر حافظ فى رثاء مصطفى كامل يستشهد فيها على براعته وكيف ان الشاعر استحضر فيها شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة فى قوله :

انى أرى وفؤادى ليس يكذبنى   روحا يحف به الاكبار والعظم
أرى جلالا ارى نورا ارى ملكا   أرى محيا يحيينا ويبتسم
الله أكبر هذا الوجه أعرفه   هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته   من القلوب اذا لم تسعد الكلم
لبيك نحن الألى حركت أنفسهم   لما سكنت ، ولما غالك العدم
جئنا نؤدى حسابا عن مواقفنا   ونستعد ونستعدى ، ونحتكم

يشير الدكتور طه حسين الى هذه الأبيات بقوله :

« هذه أبيات لو قراها ارستطاليس صاحب الخطابة ، ومنشىء علم البيان لما تردد أن يتخذها مثلا لما يسميه في الكتاب الثالث « وضع الشيء تحت العين » » .

رحم الله حافظا ، لم يكن رثاؤه صورة لمـــا يثور فى نفسه ونفس الناس من حزن فحسب ، وانما رثاؤه يصلح مصـــدرا من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعى فى هذا العصر . فقد كان حافظ يبالغ ويغلو ، ويطبع الخيال ويضطر الى المحال ، ولكنه رغم هذا كله ، لم يكن يفسد الحقائق .. ولا يعبث بها . وانما كان مؤرخا صادقا للحوادث فى رثائه وشعره السياسى ، كما كان مصورا متقنا للنفوس » .

كان حافظ حين يبكى علمـــا من أعلام العروبة ، يفيض بشـــجو يستثير الالم ويجمع القلوب حول مصاب الشرق فى آماله وقادته ، وكان يبكى الآمال وأحلام الامـــة فى عالم العروبة التى عاش ينـــافح عنهـــا :

بكى الشرق فارتجت له الارض رجفة ... وفاضت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون ، وفى الصين جازع ... وفى مصر بـــاك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع ، وفى الفرس نادب ... وفى تونس ماشئت من زفـــرات

يبكى الامام الشيخ محمد عبده بهـــذه الابيات ، انه يصـــور فيه الشرق كله والدين الحنيف .

تبارَكت هذا الدين دين محمد ... أيترك فى الدنيـــا بغير حمـــاة
تبارَكت هذا عالم الشرق قدقضى ... ولانت قنـــاة الدين للغمـــزات

انه الوفاء ، وحق الوفاء . فى نفس شاعر والحرية والوفاء .

حافظ ومطران

وواجب الوفاء والتقدير لهذا الشـــاعر الملهم يقضى بأن نشير الى ما اعتلجت به خواطره ، وانثالت به مشاعره فى عام ١٩١٣ ، أى فى مدى

نصف قرن تقريبا يكرم زميله وصديقه شاعر القطرين (خليل مطران) ويضمن هذا التكريم معانى كريمه من صلات القربى بين أبناء العروبة .

تعرض هذه الطرفة الفنية على أعين القراء لنجلو صفحة فخـــار لحافظ الذى تغنى بوحـــدة القطرين من نصف قرن ، وقد كان حلما من احلامه يتمناه للشرق .

وقصيدته التى نعرضها اليوم تعبر تعبيرا صادقا عن مشاعر حافظ نحو العروبة وهى مشاعرنا اليوم ، مشاعر الامة العربية المتحدة .

مصر والشام

يصور حافظ مصر ، والشام بروضتين زارهما ، وتنقل بين خمائلهما فى جنة العروبة المزهرة .

جاز بى عرفها فهاج الغراما ودعانى فزرتها المناما
جنة تبعث الحياة وتجلو صدأ النفس رونقا ونظاما
وتنقلت فى خمائلها الخضر يمينا ويسرة وأماما
فاذا روضتان فى ذلك الرو ض تمسيان تحت ريح الخزامى

ثم يواصل سيره فى هاتين الروضتين ، ويتلفت على حوريتين تمثلان سورية ، ومصر : تتناجيان على النحو الذى صاغه خيال الشاعر الفنان :

جاءتا تخطران ، والنجم ساه وعيون الازهار تبغى المناما
جازتا موضعى فهب نسيم اذكى منى الاسى وهاج الهياما
فترسمت فيهما أثر الخطو وخافت فى المسير احتشاما
وتسممت علنى أطفىء الشو ق وأروى من الفؤاد الأواما
فاذا لهجتان من لهجات الشر ق ، قد شاقتا فؤادى فهاما
تلك سورية تفيض بيانا تلك مصرية تسيل انسجاما
مالتا تحته دوحة ترسل الاغصا ن ، واختارتا لديها مقاما
ثم ألقت قناعها بنت مصر وأماطت بنت الشآم اللثاما
ظنتا ذاك المكان خلاء لا رقيبا يخشى ولا نماما
فجرى فيه ما جرى من حديث كان بردا على الحشا وسلاما
حين قالت لاختها بنت مصر انكم أمة ابت أن تضاما
تمتطون الخطوب فى طلب العيش وتبرون للنضال السهاما
فانبرت ظبية الشآم وقالت بعض هذا فقد رفعت الشآما
أنتم الاسبقون فى كل مرمى قد بلغتم من كل شأو مراما
انما الشام والكنانة صنوا ن رغم الخطوب عاشا لزاما
أمكم امنا ، وقد أرضعتنا .. من هواها ، ونحن نأبى الفطاما
قد نزلنا جواركم فحمدنا منكم الود والندى والذماما
وحللنا فى أرضكم فأصبنا منزلا مخصبا ، واهلا كراما

وغشـــينا دياركم حيث شـــينا فلقينـــا طـــــلاقة وابتساما
وشربنا من نيـــلكم فنســـتينا ماء لبنان سلســـلا والغمـــاما
وقبســـنا من نوركم فـــكتبنا واجـــدنا نثارنا والنظـــاما
فأشارت فتـــاة مصر ، وقالت قدك ، لم تتركى لمصر كلامـــا
انتم النـــاس قدوة ، ومضـــاء ونهوضا الى العلا ، واعتزامـــا
اطلعيت أرضكم على كل افـــق انجمـــا اثر انجم تترامى
نحن فى حاجـــة الى كل ما ينمى قوانا ويربـــط الارحـــاما

وهذه قصيدة حافظ حين كرمه السوريون بفندق شبرد تقديرا لمكانته وشعره :

وحسبه فيها ، أنه عبر عن تلك الحقائق التى كان يرهص لها من نصف قرن ، وهى آنئذ آمال ، وأحلام .

لمصر أم لربوع الشـــام تنتسب هنا العلا ، وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لازالت ربوعهمـــا قلب الهلال عليها خافـــق يجب
خدران للضاد لم تهتك ستورهما ولا تحول عن مغناهمـــا الادب . .

الى أن يقول فى ترديد المشاعر الكريمة بين الشعب الواحـــد فى الدولتين :

اذا ألمت بوادى النيـــــل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب
ففى الكنانة بل فى الشام عاج على ربوعها من بنيها سادة نجـــب

حافظ والجلاء

واكبر ظنى أن يوم جـــــلائهم ويوم نشـــور الخلـق مقترنان

بهذا الاسى على حق الوطن فى جلاء الغاصب عنه ، وأنه سيظل جاثما على صدرنا ، وأغــلا فى عظامنا كسرطان عياء ليس له دواء ، جرى وتر الشاعر .

واكبر ظنى أن يوم جــــلائهم ويـــوم نشــور الخلق مقترنان

لقد كان حافظ ضابطا فى الجيش فهو عليم بخفـــايا أمورهم ، واسرار سياستهم ، وما افتنوا فيه ، من وسائل وألاعيب فكان حدسه وظنه بهم فى تقريره هذا الذى يسوقه بوضوح وجلاء فى أنهم قوم ناكثون للعهود مضيعون لها ، فهم ماكثون فى أرضنا الى يوم النشـــور وهل يظن خيرا بمثل أولئك اللئام ، كيف يظن بهم خيرا وهو يدمغهـم بالحجة البالغة ، فسياستهم واحدة فى كل مكان ؟ .

ارى مصر والسودان والهند واحدا بها «اللورد»و«الفيكونت» يستبقان

ولكنه يستدرك ، فيضع الدواء الناجع لهـــذا الداء يصفه لمصر صريحا مريحا ، الدواء الوحيد الذى خبره مع المستعمر ، ودرس به سجيته ، انها القوة وحدها . لقد كان رجال الثورة على بينة من هـــذه الحكمة ، وكانوا أسبر غورا من شاعرنا هذا وأبعد دربة وكفاية . يقـول حافظ يصف الدواء لهذا الاحتلال :

اذا غاضت الامــواه من كل مزبد
وحـــزت بروج الرجـم الحدثان .
وعاد زمان الســــمهرى وربه
وحــكم فى الهيجاء كل يمـــانى
هنــالك اذكــرا يوم الجلاء ونبها
نيـــاما عليهم يندب الهرمان

وتشوف الشعب ليـــوم الجـــلاء يظهر فيما يسجله حافظ من دراساته لمواعيد عرقوب التى كان السادة الانجليز يعتنقونها ، ويخدرون بها وطنية الشعب ولا يرى فيها حافظ الا اكذوبة ابريل المشهورة .

اقرأ معى تنــديده بكاتب فرنسى كان قد زعم أن جــلاء الانجليز اقرب مما ، يتصوره ، غلاة الوطنيين ، فضرب له موعدا حدده بشـــهر اكتوبر ، فيسخر منه الشاعر بقوله :

كم حـــددوا يوم الجــلاء الذى أصبح فى الابهـــام كالمحشر
وسن قوم الطيش من جهلهـــم كــذبة (ابريــل لاكتـــوبر)

حافظ ، ومظالم اسرة محمد على

ذلك مايرقمه الشاعر ويسجله فى تضاعيف شعره عن هذه الاسرة التى غرقت فى النعيم الى أذقانها ، وطامنتها الايام عهدا عهيدا فى حين تسترق الشعب المصرى ، وتسومه الهوان ، وتقنص من المغانم ، مايطيب لملوكها ، وحواشيها ، من المال والمتاع ولذائذ الحياة ، فى بذخ ، وسعة ، وبطر بنعمة الله سبحانه .

يرسم الشاعر الساخر بريشة الفنان لوحة بارعة ، يضفى عليها من صريح مصريته الالوان ، والظلال ، والملامح ، ويوضح الخطوط والمعالم لتخرج الصورة بمرائيها على القلوب والنواظر .

يخاطب عميد الدولة المتسلطة « انجلترا » مشيرا الى عهد اسماعيل .

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ... حواشيه حتي بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى ... وان أصبح المصرى حرا منعما
أعد عهد «اسماعيل» جلدا وسخرة ... فانى رايت المن انكى وآلما

يرحب الشاعر بالجلد والسخرة على يد الاسرة الخاسرة محسنا الظن بها فى انتسابها لمصر . ويأنف المن والتسلط المستخفى الذى يسوم به الغاشم الشعب ويذيقه هوانا بحذق وكياسة ، فان نال الشعب خيرا بجده وعمله من عليه ونسب الفضل وحسن الأحدوثة له . وهو لا يأتى بخير أبدا .

وأى نياط يتفطر عنها قلب الشاعر لمواطن شهم مغلوب على أمره وهو ينشد :

عملتم على عز الجماد وذلنا ... فأغليتم طينا ، وأرخصتم دما

وتصل سخريته الى فلسفة التعبير اذ يوضح حال البلاد والانهيار الاقتصادى الداخلى بسبب الاستعمار . فى ظل حكام مصر ممن يعاونون المستعمر ويشدون من أزره . وهو يصور حال البلاد على تلك العهود :

نهش الى الدينار حتى اذا مشى ... به ربه للسوق الفاه درهما

ينعى شاعرنا على الالقاب والرتب ، وهو الذى كان يحمل رتبة البيكوية وكان يلقب (بحافظ بك ابراهيم) اى انه نال هذه الدرجة المشرفة على عهده لعلية القوم ممن نالوا الحظوة ، ولكنه كان يكن سرا فى نفسه ، انه يحقر تلك المظاهر الخادعة . وينعى على الوطن مثل تلك الصور الزائفة الطلاء .

وهل فى مصر مفخـــرة سوى الالقـــاب والرتب !

بل لقد دعا الى الاصلاح العام ، ونادى بالتطهير الذى سارعت الثورة اليه عقب التحرير فى قوله :

وذى ارث يـــــكاثرنا بمـــال غير مكتسب

حياد الذئب

أخذت مصر بمبدأ الحياد بين الكتلتين الشرقية والغربية وحملت راية السلام بين الشعوب ، ونظمت لذلك مؤتمرات الشعوب الحرة لا مؤامرات الذئاب لتخليص الانسانية ، من تسلط القوى على الضعيف ولرفع نير العبودية عن كواهل الشعوب المغلوبة على أمرها .

بهذا المنهج الواضح جاء حيادنا ، تخطيطا لمثل عليا تفيض على الانسانية خيرا ، وأمنا وسلاما ، وتشيع عدلا ، ويمنا .

ولكن كلمة (الحياد) كانت تستخدم على عهد المستعمر مخدرا للشعوب ، وستارا يخفى المستعمر تحته ألاعيبه ، وما أعده من نكال لها .

ولم يفت شاعرنا ، وكأنه كان يحصي عليهم حركاتهم ، ويعد لهم أنفاسهم — لم يفته أن يسجل عليهم ماخفروا من عهود ، ومانقضوا من وعود . ناعيا عليهم التشدق بهذه الكلمة المضيئة فى حقيقتها ، والتى جللوها بالسواد حين اتخذوها دريئة للعبث ، وختالا للشعوب الحرة :

أبعد حياد لا رعى الله عهده
وبعد الجروح الناغرات وئام

اذا كان فى حسن التفاهم موتنا
فليس على باغى الحياة سلام

ويعيد عليهم التقريع ، مسفها أحلامهم ، كاشفا عن ألاعيبهم ساخرا من مكرهم ، منكرا عليهم أن يتحدثوا بين الشعوب عن الاخلاق .

لا تذكروا الاخلاق بعد حيادكم
فمصابكم ومصابنا سيان

ويقول :

لقد طال الحياد ولم تكفوا ... أما أرضاكم ثمن الحياد ؟
أخذتم كل ما تبغون منا ... فما هذا التحكم فى العباد ؟

ولله در الشاعر وبيانه فى الذروة يسخر بالقوم كاشفا عن حالهم المستور .

بلونا شدة منكم ولينا ... فكان كلاهما ذر الرماد
وسالمتم وعاديتم زمانا ... فلم يغن المسالم والمعادى

ثم يعلن باسم الشعب طبيعة هذه الامة الابية ودستورها اذا ماتجنى عليها معتد ، يعلن الشاعر صفة من أهم صفات هذا الشعب ،

وهي الاباء ، والعزة ، والفداء . يجهر في شجاعة وشهامة ، بأن مصر سوف تستأنف جهادها لتستخلص حقوقها .

فليس وراءكم غير التجني وليس أمامنا غير الجهاد

وينعى على هؤلاء الناكثين ازهاقهم للحق وحيادهم الكاذب :

(قصر الدبارة) قد نقضت العهد نقض الغاصب
اخفيت ما أضمرته وابنت ود الصاحب
الحرب أروح للنفوس من الحياد الكاذب

ويوجه النداء الى عميد السياسة الباغية في مصر (مندوبهم السامي) :

ألم تلمح دموع الناس تجرى من البلوى ، ألم تسمع أنينا
ألم تخبر بنى التاميز عنا وقد بعثوك مندوبا أمينا !
بأنا قد لمسنا العذر لما وأصبح ظننا فيكم يقينا
كشفنا عن نواياكم فلستم وقد برح الخفاء محايدينا

ويصاولهم بقولة الحق ، يرسلها الحر الأبي ، صيحة أسد كاسر :

سنجمع امرنا ، وترون انا لدى الجلى كراما صابرينا
وناخذ حقنا رغم العوادى تطيف بنا ، ورغم القاسطينا

لقد صابرناهم ، ثم كشفنا حقيقة حيادهم الكاذب الذى يقوم على الضلال والخداع . أين ذلك الحياد من حيادنا الآن ، نبغى به حياة كريمة لجميع الشعوب في ظل الامن والحق والسلام .

ولكن هيهات للذئب أن يستجيب ، وحياته الخداع ، والكذب والتضليل !

ولله دره ، وهو يندد بهذا الحياد الكاذب « حياد الذئب » بقوله يخاطب الانجليز بقصيدته :

أمحايد ، أم حائد عن منهج الحق المبين
نازلت شعبا اعزلا بمدرعين مدججين
وأمنت عقبى الظالمين وبئس عقبى الظالمين

وفيها يتحدث عن مدى صلابة الشعب ، وما تنطوى عليه جوانحه من عزم ، ووطنية صادقة :

مهمـــا تصب منـــا فلسنا   الجـــازعين البائســـــين
انا بجبـــــار الســـــماء   وبالعقيــــدة نســـتعين
ان العقيـــــدة لا تزلز   لهـــا حـــراب الغاصبين
فلئن ملـــكتم يومـــكم   فغـــد لرب العـــالمين

ويحذر من قوى الشعوب وسلطانها حين تغضب ، وان كانت عزلاء مستكينة الى حين مشيرا الى آخرة نابليون :

كم من قـــوى هـــده   كيد الضعيف المســـتكين
او لم تروا ماذاقـــه   بالامس ذيـــاك الســـجين
فى « سنت هيلين » قضى   من دوخ الدنيـــا سنين

وهاهو يسوق القصيد يضم ماقرفه المستعمر من آثام جملة فى قوله ، ولعله كان يذكى بذلك وقودا للشـــعب وللشباب ليذكره على مر السنين :

ضـــقنا بكيد محايدين لنـــا   وكيـــــد مبشـــــــرين
ثاروا على دين الهــــدى   وتخطفـــوا منـــا البنـــين
داســـوا العرين ، وقد خلا   من اســـده ذاك العـــرين
خسر المبشر ، ان ديـــــن   الحـــق دين المسلمين
الله حاميـــــه وكافيــــه   شـــــرور المعتــــدين

ولا ينسى التنـــديد بهذا الحيـــاد الكاذب ، فيواجهه بما يبهته بأبياته :

قل للمحـــايد هل شهدت دماءنا   تجرى ، وهل بعد الدماء سلام ،
سفكت مودتنا لكم ، وبدا لنـــا   أن الحيـــاد على الخصـــام لثام
ان المراجـــل شـــرها لا يتقى   حتى ينفس كربهـــن صـــمام
انا جمعنـــا للجهـــاد صفوفنا   ســـنموت أو نحيـــا ونحن كرام

لوحة الفنان

ويجمل بنا فى هـذا البحث أن نعرض لوحة من لوحات حافظ الرائعة ، وفنا من فنون حياته ، وهو يشق طريقه على طريقته الخاصة في مواجهة الحياة ، والاتصال بالناس ، واستشعار صلاته بهم ومسايرته لأحداث تلك الحياة وشأن حافظ فى هذا المجال هو السمت الصادق المعبر عن صدى أحاسيسه ، وكوامن نفسه ، وفطرته فى معالجة أحداث الحياة ، والحكم على الأشياء ، والنظر فى دخائل الأمور .

اننا حين نلم بطرف من هذا ، لنفتح صفحة جديدة فى تاريخ حافظ صفحة من حياته ، بل من طبيعته ، ورأيه ، واتجاهه .

وحين يميل حافظ الى النصيحة ، يقسو قسوة شديدة فى سوق المثل الشرود ، والحكمة البالغة :

اقرأ له معى فى عياب كثير العيوب :

يا ساكن البيت الزجاج هبلت ، لا ترم الحصونا
أرأيت قبلك عاريا يبغى نزال الدارعينا

اما تلمح أيها القارىء فى معالجة هذا العيب الاجتماعى ، من وجهة نظر الشاعر أنه مرتبط بفتوته ، تلك الفتوة الوطنية ، المرتبطة بمجتمعه العسكرى الذى اتصل به . ألا ترى معى أنه حين يضمن شعره تلك الألفاظ القوية (الحصون) ، (نزال) ، (الدارعين) أما ترى أنه ــ مصاول ومناضل من خيرة الشجعان ، أما تتصل هذه الألفاظ فى تلك القوالب الشعرية من جودة الصياغة ، بالحاسة الوطنية التى اختلط بها احساس حافظ ، وارتبط بها شعوره فى كفاحه ، وتعبيره عن ذلك الكفاح .

واذ يكتب حافظ ويعبر عن ملك ضعيف الرأى بقوله :

لا تعجبوا فمليككم لعبت به أيدى البطانة ، وهو فى تضليل
انى اراه كأنه فى رقعة الشطرنج او فى قاعة التمثيل

تراه معبرا عن سخطه وتبرمه من عنجهية الملوك وسطوتهم . فهو يتلقف ذلك الملك الغاوى ، ويلقى به فى يد البطانة ، فتلعب به كما يلعب بقطع النرد فهو ضعيف كليل لا يدرى من أموره شيئا ، أو هو مسير يمثل به كما يجرى فى قاعة التمثيل ويستبد الغضب بالشاعر ، فهو يسجل ذلك الغضب معبرا عمن كثرت مخازيه فى قوله :

هنـــا يستغيث الطرس ، والنقس والذى
يخط ، ومن يتـــلو ، ومن يتســـــمع

مخـــاز وما أدرى اذا ما ذكـــــرتها ..
الى الحمـــــد أدعى أم الى اللوم أدفـــع

ضجر ، وسخط شديدان يعصفان بهذا الذى ألقت به المقادير فى طريق حافظ ، فوسمه بتلك السمات التى يستغيث منها ، الطرس ، والنقس .. ومن يتلو ، ومن يتسمع !. وهو لا يسكن ، أو يهدأ حتى ينفس عن نفسه فى عتاب صديق صدوق ..

رجـوتك مرة ، وعتبت أخـرى   فلا أجدى الرجاء ، ولا العتاب
نبذت مودتى ، فاهنأ ببعـدى   فآخر عهدنا هـذا الكتـاب

انها مقاطعة صريحة ، لغضب عارم ، راح به يهـدد صـديقه ، ويتوعده ، بقـول الشاعر موجهـا خطابه لصديقه .. أهنأ ببعدى ، وهو مدرك أن لبعده عن صـديقه ذاك ، وقع شـديد وألم ممض لدى هذا الصديق اذ يردف قوله : « وآخر عهدنا هذا الكتاب » .

ومن أرق ما يكتب حافظ فى اثارة كوامن الاشجان لدى الأصحاب والخلان ، ما بعث به من السودان الى صديق له ..

أثرت بنا من الشـوق القـديم   وذكرى ذلك العيش الرخيم
وأيـام كسـوناها جمـالا   وأرقصنا لهـا فلك النعيـــم
ملأناها بنـا حسـنا فكانت   بجيـد الدهـر كالعقـد النظيم

وحين يصف صحابته فى يسر حاله وطيب عيشه يذكر حياته معهم فيصف ما هـــو فيه وما هم عليه من شيم حسان ، وأخـــلاق كريمة .. بقوله :

وفتيـان مســـاميح عليهم   جلابيب من الذوق السـليم
لهم شـيم ألذ من الأمـانى   وأطرب من معـاطاة النـديم
كهمك فى الخلاعة ، والتصابى   وان كانوا على خـلق عظيم
دعوتهـم الى أنس فوافـوا   موافـاة الكريم الى الكريم
وجاءوا كالقطا وردت نمـيرا   على ظمـأ ، وهبوا كالنسيم

ويسكب حافظ كأسه من اللهو ، والسرور ، وينشدنا فى ذلك شعرا .. فى قوله :

وكان الليل يمرح فى شـباب   ويلهو بالمجـرة ، والنجـوم

الى ان يقول :

سلام الله يا عهد التصابى ... عليك ، وفتية العهد القديم
احن لهم ، ودونهم فلاة ... كأن فسيحها صدر الحليم
كأن سرابها اذ لاح فيها ... خداع لاح فى وجه اللئيم

ثم يشكو حاله وهو يواجه الخطوب ، ويذكر طماحه ، وانه لولا صورة المجد عنده ، لعاش قانعا لا يعرض نفسه لمثل هذه المكاره :

نزحت عن الديار أروم رزقي ... وأضرب فى المهامه والتخوم
وها أنا بين أنياب المنايا .. ... وتحت براثن الخطب الجسيم
ولولا سورة للمجد عندي ... قنعت بعيشتي قنع الظليم

وحين يكتب الى صديق آخر ممن اضطلعوا بمثل رسالته .. يعبر عن معان فخمة فى نفسه ، وتقدير عظيم فى شعوره وحسه ، انه يكتب الى صديقه الشاعر داود عمون فى الشام وهو يحن حنينا الى تلك الديار ..

شجتنا مطالع أقمارها ... فسألت نفوس لتذكارها
وبتنا نحن لتلك القصور ... وأهل القصور ، وزوارها
ذكرنا حماها ، وبين الضلوع ... قلوب تلظى على نارها
فمرت بأرواحنا هزة ... هى الكهرباء بتيارها
وأرض كستها كرام الشهور ... حرائر من نسج « آذارها »
اذا نقطتها أكف الغمام ... ارتك الدرارى بأزهارها
وان طالعتها ذكاء الصباح ... ارتك اللجين بأنهارها

ثم ينتقل الى مناجاة صديقه ..

اذا ثرت ماجت هضاب الشآم ... وباتت ترامى بشوارها
ألست فتاها ومختارها ... بشبل فتاها ومختارها
(اداود) حسبك أن المعالى ... تحسب دارك فى دارها
وان ضمائر هذا الوجود ... تبوح اليك بأسرارها
وانك اما حللت الشآم ... رأينك جذوة أقطارها
وان كنت فى مصر نعم النصير ... اذا ما أهابت بأنصارها

ويرد عليه ذلك الصديق الشاعر ..

أمن ذكر سلمى وتذكارها ... نثرت الدموع على دارها

وفى هذه القصيدة يشكو ذلك الشاعر حال الشرق ، وما هو فيه من سوء حال وظلم وظلمات :

أطوف فى الشرق على أرى ... بلادا تطيب لأحرارها
فلم أر الا أمورا تسوء ... وتصدع أكباد نظارها
فظلم بتلك ، وذل بهذى ... وجهل ، مغش لأبصارها
تعوق مراحم رعيانها ... وترعى الولاء لجزارها

عهد عهيد فى الطغيان والعسف ينال الشرق على يد المستعمرين الغلاة .. كان من آثاره :

يدب التراخى على تربها ... ويجرى الخمول بأنهارها

ثم يناشد شاعرى مصر شوقيا ، وحافظا .. أن يؤذنا بأذان الجهاد .

أشوقى ، أحافظ، طال السكوت ... وترك الأمور لأقدارها
فصوغا القوافى مصقولة ... وشقا الجلود بتبارها
عساها تحرك أوطاننا ... وتنشر ميت احيائها
أقول ، واعلم انى سأرمى ... بأنى محرك ثوارها
وانى الدخيل ، وأنى الغريب ... وانى النصير لقهارها

عهد الوفاء ..

وما أبر شاعرنا بعهد الوفاء ، وما أسرع مجاوبته لهتاف أمير الشعراء وهو فى منفاه ، اذ يقول شوقى وقد بعث بهذه الأبيات الى حافظ :

يا ساكنى مصر ، انا لا نزال على ... عهد الوفاء ، وان غبنا ـ مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم ... شيئا نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة ... ما أبعد النيل الا عن أمانينا .

فيجيبه حافظ بقوله ..

عجبت للنيل يدرى أن بلبله ... صاد ، ويسقى ربا مصر، ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ... ولا ارتضوا بعدكم عيشا ، ولالينا
لم تنأ عنه وان فارقت شاطئه ... وقد نأينا وان كنا مقيمينا

حافظ فى تقويم الباحثين

أثار الأستاذ الشاعر محمد عبد الغني حسن في كتابه « أعــلام من الشرق والغرب » الى ظاهرة هــامة رأى أن يعقدها تحت عنوان « شوقى وحافظ بين الكتب »

تلك الظاهرة هى قلة ما أخرجته المكتبة العــربية من كتب عن شاعرنا حافظ ونحن اذ نطرف القارىء بما يجتزئه من أسلوبه وقلمه حول هذا الموضوع نؤدى خدمة جليلة للقارىء ..

يقول الاستاذ الكبير « لما ظهر المتنبى ملأ الدنيا وشغل الناس، كمــا يقول ابن رشيق القيرواني واختلف النـــاس فيه بين متعصب له ومتحامل عليه ، فتعصب له ابو الفتح عثمان بن جنى ، وتنقصه ابن عباد ، ووقف القاضي على بن عبدالعزيز الجرجانى موقفــا قواما بين المادحين والقادحين فى كتابه « الوساطة بين المتنبىو خصومه »

« وقد شغل شوقى وحافظ الناس بالحديث عنهما حيينوميتين ولن يقف مدى الكلام عنهما ، ولن يكون القول فيهما معادا مكرورا مع قصر العهد بينهما وقرب الزمان منهما »

« واذا أنت قلبت المكتبة التاريخية لرجل مثــل نابليون فانك واجد فيها مئات من الكتب تتناول هـــذا الرجــل من جميع نواحيه ، ففى كل يوم يظهر عنه بحث جديد ، ويقول القراء : هل من مزيد » .

« فليس اذن بالكثير على المتنبى أن تظهر فيه عشرات من الكتب ، وليس كثيرا على شوقى الشاعر أن تظهر فيه بضعة من الكتب ... وليس كثيرا ان ظهر فيه وفى زميله الشاعر محمد حافظ ابراهيم عدد خاص من مجلة ابولو عام ١٩٣٢ . وليس كثيرا أن خصصت لهمــا مجلة الكتاب عدد اكتوبر عام ١٩٤٧ احياء لذكراهما وتخليدا لآثارهما »

« ان هذا التنبيه الأدبى هو قرين للتنبيه القــومي ونتيجة له ونرجو ان يحور هــذا التنبيه الناشىء الى وعى عريق الأصول عميق الأسس » .

وللناس نصيب من الشهرة فى حيــاتهم وموتهم كنصيبهم من الغنى المقدر والتراث الموفور ، فهذا شـــوقى قد ظفر من المكتبة العربية بأحد عشر كتابا تناولت شعره ومسرحياته وحياته على حين لم يظفر زميله وصديقه حافظ الا بكتاب واحــــد ظهر عام ١٩٤٧ وتعرض له من ناحية واحدة هى الشعر السياسى » .

هذه الماعه الكاتب الاديب عن شوقى وحافظ واغفال المكتبة العربية العناية بهما احياء لذكراهما وتخليدا لآثارهما ٠

ويسعدنى أن أبادر بتحقيق أمنية الصديق الاستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن فى الكتابة عن شاعر النيل .

ولكننى لم أكن معنيا حين رغبت فى الكتابة عنه باحياء ذكراه ولا بتخليد آثاره ، وانما رأيت وقد وجدت أن لهذه الذكرى حياة أقوى من حياة الأحياء ، وأحسست بما لآثاره من التماع فى صفحة الحياة يكاد يكون أنصع من فلق الصباح وجبهة الشمس

واذا كانت فكرة الكتاب قد خفقت فى روحى أول ما نبضت حين وقفت بلبلة الشرق « ام كلثوم » تسجل قصيدة حافظ « مصر تتحدث عن نفسها » وشهدتها عن قرب وهى تنفعل معها بكل قواها الفنية التى تنسجم مع ما فى هذه النفحة الوطنية من تعبير حاذق ٠ اشاعته فى اللحن والنغم وجرى قدرا فى أوتار الغناء ، فقد نبضت فى قلمى يوم ترددت على أذنى ابان العدوان الثلاثى الغاشم على مصر:

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وقد أفردت بحثا لتحليل هذه القصيدة ، أثبته فى موضع آخر من هذا الكتاب .

واعود فأرى ان أشارة الاستاذ عبدالغنى حسن تنم عن بصر وتقدير فان مثل شاعرنا حافظ حقيق بأن تعد فيه البحوث الضافية، والدارس لشعر حافظ ابراهيم ، الدارس المنصف ، يستطيع أن يستجلى فى شعره أفانين من خير ما يقدم للشباب زادا ينفع فى تربية الملكات واذكاء الروح القومى وتربية الخلق الرفيع ، وامتاع الذهن ، وبناء المشاعر وتوجيه النزعات والسمو بالأحاسيس ، والانطلاق الى الغايات . فهو يسرف فى شعره وتناول النواحى المتصلة ببناء الشباب، وارساء دعائم المجتمع . وهو تاريخ مصر ونبضات كفاحها ، واستمساكها امام الطغاة .

ولن يبلغ النثر ما بلغه الشعر فى تهيئة النفس للتقبل وهو يحدوها بنغم يسرى فى الروح مسرى الضياء ٠٠ فى آماق الابصار ٠ أو هو التيار يدفق فى الاعصاب بالنور والنار .

وانى لأشعر برحمة وعطف شديدين على ذلك التراث المذخور الذى خلفه شاعرنا حافظ مقدرا ما اعتور حياته من عنت وما احتمل من ارهاق الى جانب الجهد المضنى فى تلبية نداء الوطن والكوارث تتتابع والأحداث تتدافع وليس له عن غشيان هذه الأوضاع معدى ٠ وحياته موزعة بين اعداد قصيدة ، وانشادها وتلقى التهانى أو النقد فيها .

وليس الشعر كما يظنه المتطفلون عليه كما يقول الاستاذ على الجندى بالشيء السهل المنال ، القريب الفور .

« انه فن والفن تعب ! ، انه عبقرية والعبقرية جهد متصل : انه سلطان متكبر جائر لا يعطيك بعضـه الا اذا أعطيتـه كلك ، واذا هجرته شهرا هجرك دهرا » .

« لقد كان الفرزدق ـ وهو أحد الثلاثة السابقين فى العصر الأموى يقول : تمر على الساعة وخلع ضرس من أضراسى أهون على من عمل بيت من الشعر ، وكان جـرير ـ وهو أحـد المطبوعين الذين كانوا يغترفون من بحر ـ اذا أراد القول ربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة فى الخلوة بنفسه وربما أمر فرشت الأرض بالماء ، ونزع ثيابه ونام فى الوحل !!

وكان أبو نواس لا يقرض حتى يشرب فاذا صار الى حال بين الصاحى والسكران واتاه الشعر .

وابن الرومى ـ وهو من أعلام العصر العباسى ـ يشكو صعوبة الشعر فيقول :

مطلبه كالمغاص فى درك اللجـة من دون دركهـا الخطـر

ويقول بعض نقاد العرب « ان عمله (أى عمل الشعر) على الحاذق به أشد من نقل الصخر ، وهو كالبـحر أهون ما يكون على الجاهل به ، أهول ما يكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته » .

ويقول بعض نقـاد الغرب : لأن أقود جيشـا أسهل على من أن أكتب ستة أبيات .

وانى لأشارك الأستاذ الكبير على الجندى فيمـا أورده عن قرض الشعر ، وبهذا يكون نقده أيسر من رياضته وتصفيته ونخله ، فالشعر ذوق وجمال وافتتان .

وهو كما أثبتنا فى ديواننا « مزامير » ضرب من ضروب التعبـير الموسـيقى البليغ وسمو بيان الشاعر فى مخاطبة الشعور والوجـدان وائتلاف موسيقاه بموسيقا النفس وهواتف الشعور .

وانس النفوس البشرية بموسيقا الشـاعر ظمأ فى خلايا الحس والشعور ينزع أبدا الى الارتواء .. ولا يمكن أن يرويه أو يمتعـه الا ذلك القدح المسكر من رحيق البيان الساحر .

« وكلما عذب الراح اشتد هتاف الارواح الى مزيد من الشراب وكان ذلك الارتواء ظمأ متلاحقا متجددا .. وظمأ الوجدان آية الحساسية الفنية فى أوتار البشرية .. وهيهات يدرك فاقد الحس بليد الشعور ادراكا وجدانيا ينبع من حاجة الحواس الفنية الى الارتواء »

ولهذا فانا لا نضع فى حسابنا حين ننوه بشأن حافظ ذلك النـوع فاقد الحس بليد الشعور فليس له عندنا اعتبار .

ذلك أن الاقلام الواعية والمشاعر المرهفة والملكات المصقولة ذوات الفطر المستقيمة التي لا تتحرف ، ولا تتحيز ، آمنت بمكانة هذا الشاعر بل ان الزمان نفسه قد ائتلف مع القدر في الاشادة به والاحتفاظ له بتلك المكانة التي تتسع آفاقها ويزيد وضوحها كلما ضربت الذكرى في التاريخ ايغالا وفي الزمن قدما وقد أشرنا الى نفر من ذوى المكانة والرأى ممن احتفوا بذكرى شاعرنا حافظ وان كان بين يدينا كثير من ذوى الاقلام النابهة يضفون عليه من حبهم له وشغفهم بأدبه صفحات ناصعة .

ويتحدث الدكتور طه حسين عميد الادب العربى عن الشاعرين « شوقي وحافظ » في كتابه عنهما بقوله :

كلا الشاعرين قد رفع لمصر مجدا بعيدا في السماء ، وكلا الشاعرين قد غذى قلب الشرق العربى نصف قرن أو يقرب من نصف قرن بأحسن الغذاء وكلا الشاعرين قد أحيا الشعر العربى ورد اليه نشاطه ونضرته ورواءه ، وكلا الشاعرين قد مهد أحسن تمهيد للنهضة الشعرية المقبلة .. الى أن يقول : « هما أشعر أهل الشرق العربى منذ مات المتنبى وأبو العلاء من غير شك » .

المازنى وحماقة الشباب

وللمازنى آراء في شاعرنا حافظ ، فهو يرى أن حافظا يمثل المذهب القديم في الشعر بينايرى أن شوقي يمثل الذهب الجديد . وهو لا يرى في شعر حافظ ما يراه في شعر شوقي انه ينهض بشعر شوقي وينزل حافظا دون مكانته بل انه ليرى آن بيتا واحدا لشوقي يرجح شعر حافظ جملة .. ! ولقد استبد به التعصب دون شاعرنا حافظ حتى بلغ ذلك منه مبلغا استحل فيه لنفسه أن يقول عن حافظ :

« ان البحث أعياه ليجد شيئا لا تنقبض منه النفس ولا ينبض عنه الذوق ، ويرى أنه ليس بشاعر فهو في رأيه وازن تفاعيل ومقطع أبيات ، ويرى أنه ليس بشاعر فهو في رأيه وازن تفاعيل ومقطع أبيات ، وهو يجزم أن شعره سيعفى عليه الزمان ويذهب به وبذكرى صاحبه . لقد نعت المازنى حافظا بنعوت فاحشة : نعته بالسرقة ، وجمود الخيال ، وفساد الذوق ، وغثاثة المعنى والجهل اللغوى » ولسنا في مقام الرد والتفنيد فما نسوق الا الرأى أمام الحجة البالغة واضحة المعالم ووضوح الحجة لحافظ هنا على مزاعم خصيمه انما تظهر في ذلك التراجع العجيب الذى أودى بقيمة الملكة الادبية والمقاييس الفنية في النقد لدى المازنى حين أصدر بعد عشر سنوات على آرائه تلك كتابه « حصاد الهشيم » وفيه يقول : «اما النقد فقد اسقطناه من جملة ما كتبنا غير آسفين على اسقاطه» ويعتل لذلك بقوله : « فقد كان مما أغرت به حماقة الشباب »

ويشير الى نقده ذلك بقـــوله « انه هراء قديم » أى انه كان يهرف بما لا يعرف • ويتصدى لأمر فى غير أمانة عفا الله عنه ••

ولعل فى هذا عبرة لكل من يتطاول دون مقدرة ، وفى غير جـهـد ومعرفة فما هنالك فى المحافل الادبية من سقطة مثل ما ســقط فيه صاحبنا وهو يعتذر لنفسه عن ضلالة ارتكبها وحماقة غوى بها .

أحمد محفوظ ، وعزيز أباظه

واذا كان لى فى هذه الحلبة ان أمحص حياة شاعرنا فى تلك الحقبة التاريخية الحافلة بالاحداث ، والتى حين نذكرها نذكر فجر ثورتنا وبواكير كفاحنا وتضالنا ، ونحن عندما نتلفت لنرى كيف أصبحنا وأين كنا ، نجدنا والحمد لله فى موكب الامانى التى كانت تتراءى صورا وأحلاما على عهد صاحبنا الشاعر ورفـــاقه المناضلين أمثـــال مصطفى كامل ، محمد فريد وعلى يوسف ممن اضطلعوا بأعباء النضال عقب الثورة العرابية .

أقول انه اذا كان لى أن أقدم للقـــارىء نماذج مما خطت الاقـــلام وعالجت فيما يتصل بهذه الحقبة من تاريخـــنا وابراز الدور الذى تعرض له حافظ فى هذا التاريخ ، والظروف التى اكتنفت حياته •

فانما أفيض فى وضع أكثر من نموذج للنقد الفنى أمام القارىء ، وأكثر من رأى ـ كيف كان هذا الرأى ـ ولكى أتيح لقـارىء أن يدرس معى تاريخ أمته وســـجل رواد نهضته • ولقد يرى الرأى معـى وهو فطن ذكى ذاك المدى الذى ينفسح أمام أخيلة الكتاب والبـــاحثين عنـد تنميقهم وتزويقهم ، كما يرى نزعات الشـــيطان فى هوى النـفوس وانحرافها عن جادة البحث الحر فى كثير من الاحايين . بل قد يرى الحمق والسرف فى أحايين أخرى يتعرض لها الكاتب المملاق وهـــو ينفس على الشاعر مكانته أو هو لا يسـيغ منـه اتجاها معينـــــا كان يستهويه فى حياته على أنى أدرك أن اختـــلاف الآراء ليس مرده الى هذا كله أو الى لون واحد منه ، وانما قد يكون حين تصـــدقنى فراستى أن أرده الى فلسفة البحث وارتباط هـذه الفلسفة بطبيعة الناقد واستعداده بل ودراســـــته • وحين ألجأ الى أولاء القلة ممن عالجوا حياة حافـــظ وسجلوا رأيا لهم عنه فاننى أتخير منهـــم من اتصلت حيـــاته بحيـــاة الشاعر ، وبهذا أريح وأستريح وأجمــــع الى اصالة الرأى صدق النظر وامانة التاريخ .

ويحدثنا الاستاذ أحمد محفوظ فى كتاب له أصدره على عهـد قريب عن « حياة حافظ ابراهيم » حديثـا مستفيضـــا مستغرقا فيـــه استغراقا لما كان له من صلات بالشاعر وهو يعمل معه موظفا بدار الكتب بقوله :

« كان شعره لا يمله القلب ، فان روحه الحلوة تنساب فيه فقد كان ينظم بقلبه لا بخياله »

« كان حافظ مرزوق الشعر عند كبار النقاد والفنانين كان لا تمل قراءة شعره الاذهان وان كانت مستنيرة عالمة بالجيد الرائع من الشعر والبليغ السامى ، وان سألت الاذهان المستنيرة عن هذا الاصغاء العجيب لأجابتك قائلة :

« ان فى هذا الشعر جاذبية غير واضحة ولا مفهومة ، يحسها القلب وينكرها الذوق الفنى »

« وكانت هناك شخصية حافظ التى كانت تسيطر على شعره . فمنها كان يستمد سره وفيه بركتها كما يقول العوام »

ويواصل حديثه عن شخصية حافظ يقول :

« ولا يسعنا الا أن نقابل بالتكريم والتنويه شخصية حافظ ابراهيم المطرود من السودان والمتجول فى أكناف القاهرة بغير عمل ولا مورد رزق معروف ولا جاه ولا ثقافة عالية ولا أسرة كبيرة ، ولا أية أداة من الادوات التى تقدم الفنان فى هذا الجو الشرقى .

فقد اعتاد الشرق أن يقدر الفن ويقدر العلم ويعرف للنبوغ حقه اذا سانده كل هذا جاه أو مال أو عصبية .

وكان حافظ خلوا من هذا ، كان فقيرا ، وكان عاطلا ، وكان من اسرة متوسطة وبرغم هذا فرض نفسه على الجو الفنى فى عصره ، وكان منافسوه أقوياء »

فالبارودى : كان وجيها وحامل لقب فخم ، وناثرا عظيما ، وباعث نهضة شعرية وكان شوقى : غرس نعمة بيت محمد على ، وربيب توفيق ، وصديق عباس وصهر عائلة غنية معروفة .

وكان مطران : مؤيدا من رجال لهم خطرهم ولهم صحفهم ولهم اقلامهم وله بعد ذلك منهم التقديم والتنويه لأنهم كانوا يعدون شأنه امرا وطنيا .

واسماعيل صبرى كان وكيل وزارة وحامل لقب عظيم .

وبرغم هذا فقد اندس هذا المحامى الخائب والضابط المعزول بين هؤلاء الاربعة وتطاول حتى فات ثلاثة منهم شهرة وقف له الرابع بعبقريته وجاهه ولكنه لم يستطع أن يهزمه الا بعد عهد طويل من العناء والغيظ وبذل الأموال ..

وبهذا الذى أورده الأستاذ محفوظ فى كتابه عن حافظ نرى أن شاعرا ما برغم ما لقيه فى حياته من بؤس وعنت مما يعوق الملكات ويشغل النفس ويثقل عليها ، برغم هذا وبرغم منافسيه وما تأتى لهم من ظروف كانت كفيلة بأن تدفعهم دفعا الى مراقى الشهرة ، قد بزهم وهزهم هزا عنيفا ، ولم يبلغه أو يسبقه شوقى على حد قوله الا بعد طويل العناء وبذل الاموال .

والذى يمكن أن نقرره بعد : أن حافظ ابراهيم لو لم يكن شاعرا

فحلا استطاع أن يضرب بسهم وافر فى آفاق الشعر ، وأن يتميز تميزا ملحوظا ، وأن يكون لشعره ذلك السحر فى النفوس والمكانة فى الاوساط الادبية لاندثر أدبه وعفى على فنه ما عفى على الكثيرين ولما كان له ذلك الشأو البعيد والصيت البالغ .

ونرى أن نشير الى ما كتبه الأستاذ عزيز أباظة ، وهو من كبار الشعراء المعاصرين وأحد تلاميذ حافظ الذين كانوا يختلفون الى مجالسه حيث كان يحب الجلوس اليه والسماع عنه .

يقول الاستاذ عزيز أباظة :

« كنت حريصا على الاختلاف الى المجامع التى كان يقف فيها خطيبا منشدا ، وذلك عند نزولى القاهرة للدرس ، ثم تأكدت المودة بيننا ، فكان صديقا لى ، وأستاذا موجها الى الأدب الرفيع والشعر الجزل من تراث الفحول من شعراء العرب وأدبائهم . ثم ينوه بما كتبه الاستاذ محفوظ وهو يقدم كتابه « عن حافظ ابراهيم » بقوله

« طلب الى الاستاذ محفوظ أن أقدم له كتابه فى « حياة حافظ »

« وقد رجوت أن يعفينى من تقدمة كتابه ذلك لان اجلالى لذكريات حافظ أبلغ من اجلالى لشعره »

« وحافظ طريف فى صياغته واسلوبه ومراميه »

« وقد تعرض المؤلف لضروب شعر حافظ بالنقد فانصفه فى بعضها وتجنى عليه فى البعض الآخر . والنقد قبل كل شىء ذوق خاص للناقد لا يلتزم به الا هو . وقد يخالفه فيه بعض ، ويشايعه بعض آخر .. » ثم يسجل رأيه عن حافظ بايجاز فيقول :

« ولكن الذى لا شك فيه أن حافظ ابراهيم : هو أحد تلك العمد التى قام عليها ذلك الصرح العالى الذى أرسى قواعده البارودى الشاعر الأشهر ، وأقامه على الجزالة وجمال الأسلوب بعد أن اندثر هذا الطراز من الشعر الفحل فى الشرق العربى من مئات السنين »

« وحافظ ابراهيم كما يقول الاستاذ محفوظ جاهد وثابر وزاحم حتى اعترف به الوسط الشعرى وعده فى طليعة الشعراء الذين ازدهر بمقدراتهم الشعر الفخم الجليل فى مستهل هذا القرن ، فقد كان حافظ يذكر بالتقدير والاعجاب فى نسق مع البارودى والشاعر الخالد شوقى »

ويذكر الأستاذ « أباظه » مكانة حافظ وانه أوفى على الغاية فى الشعر الوطنى بقوله :

« وقد ساهم الشاعر فى مواقف رائعة جليلة فى الوطنية والاجتماع ولعله كان أبرز شاعر عرفته المواقف الوطنية فقد كان حرا منطلقا

لاتحجزه قيود كالتي كانت تحجز شوقي في تبعيته للقصر ، وتلك التي كانت تقوم بين اسماعيل صبري وبين واجبه الوطني فقد كان هـــذا الشاعر الرقيق موظف دولة ، فـرضت عليه قوانين ولوائح تعترض سبيل انطلاقه الى حيث كان ينطلق حافظ ابراهيم العائد من السودان مفصولا عن وظيفته وحافظ قريب الى قلوب قراء شعره ففي هــذا الشعر طلاقة وبداوة ونسمات طيبة من روح حلوة صادقة ... »

لقد تشرب روحه من تلك الارواح المصرية الخالصة فكان رحمه الله شـــاعرا مصريا قحـــا . كان الشعب مدرسته فمنها اكتسب غالبية ثقافته وفي هذه المدرسة تخرج حافظ ابراهيم شاعرا كبيرا .

والذي يعنينا من عرض هذه الآراء للاستاذ عزيز أباظــة عن شاعرنا حافظ ابراهيم هو ماأشار اليه الأستاذ محفوظ في كتابه عن حافظ فقد أنصفه في نواح وتجني عليه في نواح أخرى ، وأن النقد ذوق خاص للناقد لا يلتزم به الا هو قد يخالفه البعض ، ويشايعه آخرون ..

وهو بهــذا يوافقنا فيما أوضـــحنا عن منزلة النقد ، وعن رأى الناقد وارتباطه بذوقه هو وميوله واتجاهه وفلسفته وتخصصه .

وبهذا لا يمكن الحكم على الشاعر برأى فردى يصدر عن هوى أو عن تأثر بجانب خاص ، يكون صدى لانطباعات الشعر في نفس الناقد .

دسوقي أباظه ، وطه حسين

والى القارىء الكريم صورة أخرى .. ولكنها تغاير الصـــورة السابقة ..

نشرت مجلة أبولو رأيا للدكتـــور طه حســين عن حافظ أورده السيد الأستاذ ابراهيم دسوقي أباظه رحمة الله عليـــه وكان من الوزراء المشتغلين بالأدب الى جانب الســياسة في تضاعيف مقـــال دبجه عن حافظ وذلك لمناسبة اصدار المجلة عددا خاصا عن شاعر النــيل احتفاء بذكراه .

يقول الاستاذ ابراهيم دسوقي أباظة .. واذا كان لكل شـــاعر شيطان أو ملاك ملهم فان ملاك حافظ كان مشغوفا ببني أباظه يلهمــــه في مديحهم المعجزات ، أما شيطان طه حسين فلا يغريه الا بالطعن والتعريض والهجاء فهو يقول « بأن شعره في رثاء أصدقائه الاباظيين متكلف لا يدل على حزن صـــادق ولا لوعة وانما دفع اليه بواجب المجاملة ، وانك تحس عندما تقرؤه كأنما تقرأ شعر طالب وضع أمامه

نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها فأخذ معانى القدماء وذهب مذهبهم فى الغلو السقيم » ويشبه الدكتور تعزية حافظ للأباظيين بتعزيته للانجليز فى فقد ملكهم ويعقب الاستاذ دسوقى أباظة على قول الدكتور طه حسين هذا بقوله :

ولست أدرى لم يكون الأمر كذلك ؟ وقد حدثت القراء بنشأة ما كان بيننا من صلة ولم يشبهنا الدكتور طه حسين بالانجليز غفر الله له ؟ وأجدادنا عرب علموا الناس الوطنية والثبات ، ولم نعبد اليوم ماكنا نحرمه بالأمس ولا حرمنا اليوم ما كنا نعبده من دون الله ، ولااتخذنا السياسة تجارة ؟ ويعلل لذلك بقوله :

والسبب فى هذا كله ما وجده فى رثائه من الغلو فهو يقول فى رثاء احد الاباظيين

لا تحملوه على الرقاب فقد كفى ... ما حملت من منة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه ... يسرى به للروضة الفيحاء
خلق كضوء البدر أو كالروض أو ... كالزهر أو كالخمر أو كالماء
وشمائل لو مازجت طبع الدجى ... مابات يشكوه المحب النائى
ومناقب لولا المهابة والتقى ... قلنا مناقب صاحب الاسراء

وهى أبيات من مرثيته للسيد سليمان اباظة ، ثم يرد الاستاذ دسوقى اباظة على نقد الدكتور طه لحافظ بقوله :

هل سمع الدكتور شعرا عربيا له أو لغيره فى الرثاء أو المدح خاليا من المبالغة والاغراق ؟

ويواصل الأستاذ دسوقى أباظه قوله :

أما ما يعجب به الدكتور طه ويحبذه فهو رأى للاستاذ لطفى السيد فى قوله :

لقد كنا نعجب بشعر حافظ منذ كنا أطفالا يافعين ونرى فيه زعيما من كبار الزعماء الوطنيين المخلصين نتغنى بشعره ونفضله على سائر الشعراء **لأنه كان يضرب على الوتر الحساس ويهيب بالشباب ، ويلهب العواطف ، ويحفز الهمم ويكافح اليأس والتواكل ويدعو للجهاد والأمل** » .

ثم يقارن بين شوقى وحافظ فى الجانب الوطنى فيقول :

« وكان شوقى فى منصبه الرسمى لا يستطيع خوض غمار السياسة بحرية ، وصراحة ، فانفرد حافظ واستولى على القلوب وأحرز مكانة لاتدانيها مكانة » .

ويحتج الأستاذ أباظه لشوقى بقوله :

أى أديب لم يتغن بقصيده ، فى جميع ضروب الشعر ، وأى أديب

لم يفرع الى سنـــماعه ؛ يتدفق فى الحفل بصوته الجهـــورى الممتع والقائه البديع الخلاب الذى كان يدوى بين الجماهير فيضم سحرا وفخامة جديدين الى ديباجتـــه الساحرة الفخمـــة ٠٠ ولسنت أحب ان أعيد عليكم قصائده الخالدة فى البارودى ، وعثـــمان اباظة والاستاذ الامام ، وقاسم أمين ، وصبرى ، وعلى يوسف ، والمويلحى » ٠

ويسوق لنا مختارات من شعره فى قصيدة ينوه بشأنها وهى خمرية بذ فيها أبا نواس ولم يبلغ شأوه فيها أحد كما يقول وهى :

اوشك الديك أن يصيح ونفسى	بين هـــم وبين ظن وحـــدس
يا غـــلام : المدام والكأس والطا	س وهيىء لنـــا مكـــانا كأمس
اطلق الشمس من غياهب هذا الد	ن واملأ من ذلك النـــور كأسى
وإذن الصـــبح أن يلوح لعينى	من سناها فذاك وقت التحسى
وادع ندمان خلوتى وائتنـــاسى	وتعجل واسبل ستور الدمقس

شوقى وحافظ

يقول الدكتور طه فى كتابه (شوقى وحافظ) :

كنت مرة عائدا مع الاستاذ لطفى الســـيد بعد أن حضرنا اجتماعا لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقى ، وكنا نتحدث فى أمر الشاعرين فقال لطفى بك :

لقد خدعنى حافظ عن نفسه كما خدعنى شـــوقى عنها ! كنت القى حافظا اول عهده بالشعر وكان يسمعنى من شعره فلا يعجبنى ، فقلت له ذات يوم ! أرح نفسك من هذا العناء فلم يخلقك الله لتكون شاعرا ولكنه لم يقبل نصحى وحسنا فعل فما زال يجد ويكدح حتى أرغم الشعر على ان يذعن له وأصبح شاعرا وكنت شديد الاعجاب بشعر شوقى أقرؤه فى لذة تكاد تشبه الفتنة وأثنى عليه كلما لقيته ، فما زال شوقى يكسل ويقصر فى تعهد شعره حتى ساء ظنى بشعره الأخير ! ٠

ويحتكم الاستاذ أباظه الى القراء فى هذا الذى أثبته الدكتور طه عن حافظ فى كتاب (شوقى وحافظ) بقوله :

واكتفى بأن أحتكم للقراء فى رأى أســـتاذنا « لطفى بك » وموافقة الدكتور طه عليه فان الاجماع يقول غير ذلك يقول بضعف شعر حافظ فى السنين الأخيرة من حياته ، أما شوقى فلم يدرك الضعف شعره ولا تطرق اليه الوهن وكل من قرأ قصة مجنون ليلى وقد أخرجهـــا شوقى فى آخر حياته يرى فيها البرهان الساطع والدليل الناصع القاطع ، فما تلوتهـــا

مرة الا أخذتنى هزة الطرب ونشوة العجب وأكبرت لغة العرب . وقد قال عنها حافظ بأنها معجزة المعجزات وآية الآيات فليسمح لى الدكتور طه المعجب بالفيلسوف ديكارت القائل بنظرية الشك حتى يصل الى الحقيقة أن أشك فى اسناده هذا الرأى لأستاذنا الكبير لطفى السيد .

ثم يتحدث الاستاذ دسوقى أباظه عن حافظ بقوله :

واسقنا ياغلام حتى ترانا	لا نطيق الكلام الا بهمس
خمرة قيل انهم عصروها	من خدود الملاح فى يوم عرس
مذ رآها فتى العزيز مناما	وهو فى السجن بين هم ويأس
أعقبته الخلاص من بعد ضيق	وحبته السعود من بعد نحس

ويستطرد الاستاذ الاديب الكبير فى التنويه بشأن حافظ بقوله :

« وقد برع فى النظم فى الاجتماعيات فاهتز لشعره العالم العربى كله ، وتبوأ المكان اللائق ، تحت الشمس ، وأخذ بعض الناس يفاضلون بينه وبين شوقى ، وتلك مرتبة لم ينلها قبله أحد» .

« أما قصائده فى تأبين الشيخ محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسامى البارودى وفى عزل السلطان عبد الحميد ، فقد جاوزت الابداع ، وجرت مجرى المثل فعظم خطره وتألق نجمه وأصبح شاعر النيل غير مدافع » .

وكان اذا خلونا به يحمل على شوقى وشعره ، ولا يسلم له بالامامه ولا يعترف له بالزعامة وكان يحب كبير الشعراء خليل مطران ويخلص له وطالما سمعته يطنب فى مدحه ويذكر الاساتذة محرما (الشاعر أحمد محرم) والكاشف ونسيما بالخير . ويذكر بالخير الكاتبين المازنى والعقاد وله فيهما وفى الدكتور طه حسين رأى معروف .

شاعر

وَلـكِنَّنِى فِى مَعْرَضِ الْقَوْلِ شَاعِرٌ
أَضَافَ إِلَى التَّارِيخِ قَوْلاً مُخَـلَّدَا

حافظ .. نشأ شاعرا

وحين أشار الاستاذ ابراهيم دسوقي أباظه الى شاعرنا حافظ ابراهيم في حديثه عنه بدار الأوبرا في الحفل الذي أقيم عام ١٩٣٧ بقوله :

« ولد حافظ في ٤ من فبراير عام ١٨٧١ م في ذهبية كانت راسية أمام ديروط على النيل لأعمال كانت تقام باشراف أبيه ، ولعمري أنه لميلاد جدير بشاعر » ، ثم يقول :

ولو كنت شاعرا لزعمت أن ميلاد شاعر النيل في أحضان النيل وفي مهد من جمال الطبيعة الساحر كان له تأثير في شاعرية حافظ المبكرة ، وفي انه فتن بوطنه وبرح به هواه فحمل قيثارته يتغنى بعظمته ويبكي لمصابه ، ويهيب بأبنائه لانقاذه ويذكره بماضيه وحضارته حتى استحق أن يلقب بشاعر النيل ويكفيه ما في اللقب من اعجاب وتقدير وتبجيل .

أقول أنه عندما تحدث الاستاذ ابراهيم دسوقي أباظه بهذا لم يسع الاستاذ العقاد الا أن يعلق على هذا بعد وفاة حافظ بقوله :

«لااخال أن حافظا في مولده قوبل بترحيب أوفق من هذا الترحيب»

ثم مضى الاستاذ أباظه يؤرخ لحافظ فسرد لنا جانبا من حياته يجمل بنا أن نقتطف فقرات منه :

« نشأ حافظ شاعرا ، فقد حدثني رحمه الله أنه نظم كثيرا في أثناء الدراسة الابتدائية ولكنه عندما شب عمد الى شعر الحداثة فأتلفه جميعا لكيلا نحظى من كلامه الا بالشعر الناضج الرصين» .

توفي أبوه بعد عامين من ولادته فأقام في أكناف خاله وأمه السيدة زينب ، ولم تمض سنوات حتى ماتت أمه أيضا فأمسى اليتيم لطيما .

وأحسب أن تلك الظروف القاسية أحدثت في نفسه ثورة ألم عظيم وهم مقيم وجعلته ينظر الى الدنيا نظرة كئيبة قاتمة حالكة السواد وغلب على شعره الكلام عن البؤس وشكوى الزمان .

اختار حافظ كتاب البؤساء لهوجو فعربه ، فكنت ترى شبح حافظ يهيم في كتابه بين أولئك البائسين ، وكان مبدعا في شكواه بليغا

عظيما ، قاسيا رحيما حتى عرف بالتفوق أولا فى هذا الباب ، ولفت اليه الأنظار ، وكان ممن لفت نظرهم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وبعض أصدقائه وفى مقدمتهم سليمان أباظه من وزراء المعارف السابقين وسعد زغلول وجمع عظيم من العلماء والاعيان ٠

وما أن اهتم به الامام وأصدقاؤه الكثيرون حتى أخـــذت السحب تنجاب شيئا فشيئا والغيوم المتلبدة تنقشع رويدا رويدا ٠

وقد أبدع فى شكوى الزمان فى قوله :

جنيت عليك يا نفسى وقبـــلى ... عليك جنى أبى فدعى عتـــابى
ولولا أنهـــم وأدوا بيـــانى ... بلغت بك المنى وشـــفيت مابى

ويقول يشكو بؤسه ويصور حاله :

وددت لو طرحوا بى يوم جئتهم ... فى مسبح الحوت أو فى مسبح العطب
انى احتسبت شبابا بت أنفقـــه ... وعزمة شابت الدنيـــا ولم تشب ٠
كم همت فى البيد والآرام قائلة ... والشمس ترمى أديم الارض باللهب
اذا نطقت فقاع الســـجن متكأ ... وان ســـكت فان النفس لم تطب

ويتحدث عن رحلة اشتراكه فى حملة السودان :

« انتظم حافظ فى ســـلك طلبة المدرسة الحربية وكانت غاية أمله ومعقد رجائه وبعد أن أتم دراسته بها عام ١٨٩١ م التحق بالجيش المصرى برتبة الملازم الثانى بالطوبجية » ٠

ثم اشترك فى حملة السودان الشرقى بسواكن ثم فى الخرطوم ٠٠ وكانت النفوس اذ ذاك تضطرم بوطنية قوية ملتهبة يتعهدها الخـــديو السابق ويذكيها ، فاكتشف الانجليز جمعية سرية من الضباط لها صلة بالخديو ــ ومنهم حافظ ــ فأحيلوا الى المحـــاكمة فى قلعة الجبل فأحيل الى الاستيداع ٠

« لجأ حافظ عقب ذلك الى الاستاذ الامام وتمكن رحمه الله من اعادته للخدمة فى البوليس ثم أحيل الى المعاش بعد أن قضى فى خدمة الجيش والبوليس أربعة عشر عاما » ٠

شاعر النيل

«واتصل بأمير الشعراء (أحمد شوقى) وبفضل صداقته لصاحب الاهرام التحق بها فطار صيته ، ونبه قدره ، واشتهر شعره ونثره ولقبته الاهرام بشاعر النيل ، وأجمع الناس عليه فاستولى على هذا اللقب وعرف كيف يذود عنه ويحميه ، ويدافع عنه منافسيه فيه » ٠

شاعر الوطنية

« وكانت البلاد تغلى غليانا يقود زمامه فتى شجاع يشعل فيها روح الثورة والكفاح هو المرحوم مصطفى كامل ، فأعدها للنضال ، وجاء حافظ يقيم له جهوده ويوقظ النار تحت مرجل العواطف الوطنية الصادقة ، فكان لسان بلاده الغاضبة الحانقة الثائرة ، وكان شاعر الوطنية والاجتماع والمناسبات الخطيرة ، وكانت قصائده تدوي فى الآفاق فيتلقفها المتحمسون والسياسيون والادباء على السواء ، وتضفى عليهم الى جانب الوطنية علما وأدبا وتفيض على الشرق كله أخلاقا وبلاغة وسحرا ، فكان شاعر الوطنية الأولى » ٠

ونحن نثبت هذا المقال عن حافظ لصديق له كثيرا ما تودد له واحتفى به ومس جدثه الطاهر حين دعى لتخليده بقوله :

« ليس فينا من لايشعر نحو شاعر مصر الكبير بدين يتطلب الوفاء ولكن شعورا آخر يقعد بنا هو العجز عن حسن الأداء» ٠

شوقي في شعر حافظ

وإذا تردد «شوقي» في شعر حافظ ونهض حافظ بواجب الولاء لشوقي وأعلن انضواءه تحت رايته ، فهو أمر لا غرابة فيه ، فما قامت هناك ملاحاة بين الشاعرين الكبيرين اللذين ضمهما عصر واحد ولا سيما أن شوقيا كان يعطف على حافظ ، وكانت حال حافظ على مانعرف من الضيق والشدة ولعله قد اختار ميدانه الوطني المرتبط بوجدانه المصقول وأحاسيسه الثائرة فحاله شبيهة بحال وطنه وكلاهما طريد البؤس والاضطهاد اضطهاد الحياة وخشونة الزمن فحين يركن اليها ليواسيها ويبكي عنها ، ويشكو بلسانها ويدفع عن حوزتها يرفه عن نفسه ويتعزى ، كما تعزى امرؤ القيس وهو يخاطب الورقاء بقوله :

أجارتنا انا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب

أقول بأن الصبوة التي أذكاها البؤس في حياة حافظ التقت بالجو السياسي القائم والمشبع بضروب العنت والعسف . فأرهف في نفسه الحس وزاد من فورته وثورته ووجد في نضرة أمه الباقية ، الخالدة ، المستذلة (مصر) ترويحا عن نفسه واستمساكا لروحه ، وحين غامر وقامر وصفقت له الجماهير واندلعت شرارة الثورة في أعصاب الشباب ، ورأى أن له في النفوس فعل السحر وأنس الى القلوب المكلومة التي التفت به وانعطفت له تفجرت قريحته بذلك الينبوع الوطني والشعر السياسي الذي اجتمعت له عدته واستوت له طريقته ، وأوتي أكله من راحة الضمير واسترواح النفس وصفاء البال حين يأخذ بيد قومه وهو المصري الأصيل ابن النيل الذي يهتز للمعروف ويغيث الملهوف ويتعشق البطولة ، لقد كان كالمغني الشعبي الذي يأخذ بزمام الجماهير فما تزال تصفق له وتحتفي به وتقدر مروءته ومكانته وهو يشجيها ويبث فيها الحياة ، ويسقي ظمأها ويرأم التياعها .

ثم كان ذلك الشأو المرموق الذي اتخذ شكله الأدبي العام فهو شاعر النيل وهو المنافح عنه ، وهو درة الحفل والاقة المهرجان .

ثم كان ما وهب الله له من طلاقة في الالقاء وتعبير في الصوت ، والتفات وبراعة في اخراج ذلك الكلام المنغوم ، ذلك اللحن الساحر .

وكانت المحافل وهي تلتقط تلك الدرر وتذيع فيما بينها وتتناقل صدى تلك الألحان التي ينشرها حافظ ويذيعها بين الصحف والحفلات .

كان عود الثقاب في يوم الحر الصائف يقع وينبث في الهشيم فما هي الا النيران والدخان وما وراءهما من عرام .. وصدام .

وكان قبل ذلك وبعد ذلك كله شاعرية حافظ وموهبته النامية في الجو المهيأ لها .

فاذا أنشد أمير الشعراء احمد شوقي يخاطب شاعر النيل بقوله :

ياحافظ الفصحى ، وحارس مجدها وامام من نجلت من البلغاء
مازلت تهتف بالقديم وفضله حتى حميت أمانة القدماء
وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل للدهر اصغار وحسن ثناء

حين يحيى أمير الشعراء حافظا بقصيده هذا نجد حافظا يتحدث عن نفسه بترفق يطامن زمانه ويجامل أقرانه في تواضع الأعلام آونة ..

وهل أنا الا امرؤ شاعر كثير الأماني قليل النشب
يقول ويطرب أترابه ويقنع منهم بذاك الطرب

وفي أسلوب ساخر لاذع يكاد فيه ينكر نفسه :

تعلقت حينا بذيل البيان وأدخلت نفسي فيمن كتب
فلا السبق لي في مجال النهى ولا لي يوم الفخار العجب
ولا أنا من علية الكاتبين ولا أنا بالشاعر المنتخب

ثم يذكر نفسه قليلا ، ويطلق لأحاسيسه التعبير ولكنه يقيم عليها حارسا من فنه وفطنته وحاجته :

لم أجد أحدا في الشعر يسبقني الا فتى ماله في السبق الاه
ذاك الذي حكمت فينا براعته وأكرم الله والعباس مثواه

وماذا يضيره اذا احترس لنفسه ولم يركب رأسه فيغضب شوقي اذا هو جهر بمكانته التي يحسها ، ويكتمها ، ولا يبوح بها الا لخلصائه ، ومنادميه ، ان ذلك لن يكون على حساب غيره بل على حساب نفسه هو وهو حر فيها هو الذي يملكها ، وهو الذي يحمل اصرها ووزرها .. فلا عليه اذا سعى مع الساعين وانضم الى الوافدين ، ودخل مع لداته وأقرانه وأجمعوا على مبايعة شوقي بالامارة .. ولا عليه اذا نكس رءوس قوافيه احتشاما وتكريما :

أتيت سوق عكاظ أسعى بأمر الرئيس
أزجي اليه قواف منكسات الرءوس
ليست بذات رواء تزهى به في الطروس

ولا بذات جمال .. يسرى بها فى النفوس
لم يحبها فضل شوقى بقيـة من نسيس

وكأنما كان شوقى ملكا يحكم ، وكان حافظ وزيرا له يحوطه بما يحيط به الوزراء ملوك الطغيان بالهل والهيلمان :

قال الرئيس ومن ذا يقول بعد الرئيس
سقى الحضور شرابا ينسى شراب القسوس
معتقا قبل عاد فى مظلمات الحبوس
يريك والليل داج شموسه فى الكؤوس

ثم يغمز المزهر أو يضرب على الصنج ويزف شوقى فى حلبة المهرجان :

بنات أفكار شوقى فى جلوة كالعروس
تزهى بمعنى سرى أتى بمعنى شموس

وهو اذ يبدع فى بيانه هذا ويمتع ، يمكر بالحفل ومن فيه ولا ينسى أن يأخذ بحقه فى ذلك الاعجاز الشعرى الذى يديره على النفوس ويكرم به شوقى .

ان عقارب الشعراء حين تدب دبيبها ليست فى حاجة أكثرمما برع فيه حافظ ليستهويها ويرقصها ويتحاشى أذاها ، فالمكانة الرسمية التى كان يتمتع بها شوقى والمنزلة التى أنزلها من الملوك والحكام ومن يلوذ بهم لم تكن ضعيفة الحيلة اذا هى أرادت أن تحيط بهذا الشاعر الذى نبغ فنه وبزغ نجمه .

ها هو شوقى يعود من منفاه فيستقبله حافظ ويسكره ويسحره :

ورد الكنانة عبقرى زمانه فتنظرى يا مصر سحر بيانه
النيل قد ألقى اليه بسمعه والماء أمسك فيه عن جريانه

ويعيد ويزيد ..

فاصدح وغن النيل واهزز عطفه يكفيه ماعناه من أحزانه
واذكر لنا الحمراء كيف رأيتها والقصر ماذا كان من بنيانه
ماذا تحطم من ذراه وما الذى أبقت صروف الدهر من أركانه
واها عليه وأهله وبناته أيام كان النجم من سكانه

ويذكر ملك الأندلس بما لا يدع لغيره فيه وصفا :

اذ ملك أندلس عريض جاهه وشبابه المبكى فى ريعانه

الفتح والعمران آية عهـــــده وكتائب الأقـدار من أعـــوانه
بسـت به الدنيا لباس حضارة قد كان يخلعه على جــــيرانه

ويحلق حافظ وتصفو قريحته ويعتدل مزاجه ويغمر زهوه الابداع فينشد :

هـذا امرؤ قد جاء قبـــل أوانه ان لم يكن قد جـــاء بعد أوانه
ان قال شــــعرا أو تسنم منبرا فتعـوذوا بالله من شــــيطانه
تخذ الخيـــال له براقـــا فاعتلى متن الســــها يستن فى طيرانه
ما كـــــان يأمن عثرة لو لم يكن روح الحقيقة ممســـكا بعنـــانه
انا لنلهـــو اذ نجـــد ، وانـــه ليجد اذ يلهــــو بنظم جمـــانه
أقلامه لو شـــاء شك قصـــيرها هام الثريا ، والســـها بسنانه

ويبشر وطنه بلقاء العندليب العائد ..

فالحمــــد لله الذى قـــد رده من بعـــــد غربته الى أوطانه
فتنظروا آياته وتســــمعوا قـــد قام بلبلكم على أغصانه

ويفيض فى الاعتذار مع تقديم آيات الاجلال والاكبار حين تمسك به الظروف الخاصة عن حضور حفلة قران احدى كريمـــات شوقى ، ولعله ما تخلف الا لتحرجه منغشيان ذلك العرس الذى تتألق فيه الحللوترف فيه الموشيات وهو ذو القناع الأسود واللباس الأنكد ..

انه يتلمس العله فيجدها فى المرض ولا بأس فى ذلك ولكنه يحرص على الاعتذار :

يا ســــيدى وامامى ويا أديب الزمـــان
قد عاقنى ســـوء حظى عن حفلة المهـــرجان
وكنت أول ســـــاع الى رحاب «ابن هانى»
لـكن مرضت لنحسى فى يـــوم ذاك القران
وقـــــد كفانى عقابا ما كان من حــــرمانى
حرمت رؤية شــوقى ولثم تلك البنــــان !

وحين يهتف الشاعر ويصرح فى ذلك المهرجان المشهود الذى بـويع فيه شوقى أميرا للشعر نضع أمام القارىء أبياتا من قصيدة تبلـــغ المائة بيت أنشدها فى مهرجان تكريم شوقى عام ١٩٢٧ مع رتل من شـــعراء الاقطار العربية :

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعى
بشـــعر أمير الدولتين ورجعـــى

أعيدى على الاســـماع ما غردت به
براعة شـــوقى فى ابتداء ومقطـــع

براها له البـــارى فلم ينب سنها
اذا ما نبا العســـال فى كف أروع

وفيها يقول حافظ :

لئن عجبوا أن شاب شوقى ولم يزل
فتى الهوى والقـــلب جم التمتع

لقد شاب من هول القوافى ووقعهـا
واتيـــانه بالمعـــجز المتمنـــع

ويقول له عملت على نيل الخلود ، ولا يقول له سوى هذا الأسلوب:

تملكت من ملك القريض فسـيحه
فلم تبق يا شوقي لنا قيـــد اصبع

فبـــالله دع للناثرين وســـيلة
تفىء عليهـم واتـق الله واقنـــع

عملت على نيـــل الخـــلود فنلته
فقـــل في مقام الشكر يارب أوزع

جـــلا شـــعره للناس مرآة عصره
ومرآة عهد الشعر من عهد تبـــع

أتراه يحترس فى التعبير واختيـار اللفظ ثم يفتن فى الزهو بابراز أوابده :

أجل لقد كان حافظ وهو يكتب يتخير اللفظ الذى يضم المعنى الذى يعنيه ويدرك به مرامه :

نفيت فلم تجـــزع ولم تك ضارعا
ومن ترمه الأيام يجـــزع ويضرع

فى المصراع الثانى من البيت السابق ما يشير الى المعنى الذى قصدنا اليه ، فما كان حافظ ليضرع وينكس رءوس قوافيه لشـــوقى لولا رمية الأيام له .

وأخصبت فى المنفى وما كنت مجدبا
وفى النفس خصب العبقرى السميدع

تذكرت عذب النيـــل والنفس صبة
الى نهـــلة من كوب ماء مشعشع
وأرسلت تستـــتسقى بنى مصر شربة
فقطعت أحشـــائى وأضرمت أضلعى

وهو يهنىء شـــوقى ويهنىء وطنه ويثبت لله عطفه ولطفه ورحمته لعودته :

أبى الله الا أن يردك ســـالما ومن يرعه يسلم ويغنم ويرجع
وعدت فقرت عين مصر وأصبحت رياض القوافى فى ربيع موشـــع
وأدركت ما تبغى وشيدت آية على الشاطىء الغربى فى خير موقع

وما أحسن ما يصف به كرمه ابن هانىء فى خيال خصب لماح :

حمى يتهادى النيل تحت ظلاله تهـــادى خود فى رداء مجزع

ثم يذكره بظمئه لنهلة من ماء النيل ويغريه ليعب منـــه وقد ذلله الله له :

لقـــد كنت ترجو منه بالأمس قطرة
فدونكه فأبرد غليـــلك وانقع

ثم يعلن الآمر الذى اجتمعوا له فى بيته الشهير :

أمير القـــوافى قد أتيت مبايعـــا
وهذى وفود الشرق قـــد بايعت معى

وهو يقوى نفسه فى البيت قوة لا ضريب لها فحينما بايع بايعت معه الوفود ، ولم يكن ثم اختلاف ..

والبيت الأخير يكفى وحده لأن يكون قصيدة خالدة !

اخوة الادب . واخوة العرب

ولا يفوتنا ونحن نسجل رأى حافظ ابراهيم فى أمير الشـــعراء أن نثبت دون تزيد أو تعليق ماصادفنا فى البحث مما ندعه لفطنة القارىء .

يذكر الاستاذ الجليل الشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق فى تقديمه لديوان الشاعر عبد المحسن الكاظمى .

يقول الاستاذ الشيخ المغربى :

كان الامام (يقصد الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه) يتعهد الشاعر الكاظمى فى آخر كل شهر بعشرة جنيهات ، يودعها غلافا ثم تسلم اليه فى داره دون أن يشعر بما فى الغلاف أحد ، وبعد وفاة الامام لم يجد مندوحة عن السعى لدى الخديو فى أن يكون له مرتب شهرى من الأوقاف فتوسط فى هذا الامر الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، فكان الشيخ يراجع الخـديو فى تقرير الراتب ، والخـديو يأبى ـ كلما روجع بشأنه ـ الا الرضخ له من مال الاوقاف بنحو خمسين جنيها ، وكنت أذهب مع الشيخ عبد المحسن الى الديوان فيقبضها ، وقد تكررت هذه المعاملة المرة بعد المرة ، والشيخ عبد المحسن فى كل مرة يظهر التأفف من تناوله المعونة على هذه الصورة التى ماكان يراها تتفق مع كرامته ، واباء نفسه . وكان يلح على الشـــيخ على تارة بنفسه وطورا بواسطتى أن يكلم الخديو فى تعيين راتب شهرى مقطوع يريحه من عناء التوسط ومكابدة المعـــاملات الديوانية .

وان انتساب الشيخ الكاظمى الى الامام المفتى ان كان من شأنه أن يحدث فتورا نحوه من نفس الخديوى ، فما كان قط ليحدث مثل هـــذا الفتور فى نفس الشيخ على يوسف ، فكنا ننزه الشيخ عليا عن وصمة الفتور لكننا كنا واقفين وقفة الايجاس من حالة الخديوى عباس .

ثم ضاق الشيخ عبد المحسن بالأمر ذرعا فكلفنى أن آخذ من الشيخ على وعدا بانجاز المسألة مع الخديو : اما سلبا يريح النفس . أو ايجـابا يزيح العلة فتركت الشيخ عبد المحسن فى غرفة التحرير ، ودخلت عـلى الشيخ على ، وبلغته الرسالة وكان يصحح مقالة للطبع ، فترك القلم من يده وتنفس الصعداء ، ثم قال :

ـ ماذا أصنع يا أستاذ ؟ أنهيت القضية أمس مع الخـديو ووعـــد

وعدا أكيدا باصدار أمره بتعيين الراتب ، وقد شكرت له ، وخرجت من عنده ، لكنني لم أكد أبرح الباب حتى دخل عليه بعض النـــاس (ولم يسمه لى) .

فقال للخديو : رأيت فلانا خارجا من عندك ، فماذا يبغي ؟ فقـال : قررنا راتبا للشيخ عبد المحسن الكاظمى ، قال : أنسيت أنه شاعر المفتى (يقصد الشيخ محمد عبده) وقد قال فيه من الشعر كذا وعرض فيك بكذا وكذا ٠٠ ؟

قال الشيخ على يوسف : فما كان من الخديوى الا الشح برفده ٠٠ والنكول عن وعده ، فلما وعيت هذا رجعت الى الشيخ الكاظمى ، فأخبرته الخبر فتأثر جد التأثر وقال : أتعرف من هو بعض الناس ؟ قلت : لا٠ قال: هو احمد شوقى .

ويعلق الاستاذ حكمت الجادرجي قنصل المملكة العراقية بالاسكندرية وهو الناشر لديوان الكاظمى على هذه الحادثة بقوله :

جاء فى عدد مجلة الرسالة الصادر فى ١٣ من اكتوبر سنة ١٩٤٧ مايلى بقلم (الجاحظ) فى معرض الـكلام عن رأى حافظ ابراهيم شـاعر النيل فى أحمد شوقى .

رأى حـافظ

« وقص علينا حافظ ابراهيم كيف جاء المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمى الى مصر غريبا طريدا فحب أن يكون له فى رحاب الخـــديو متسع ، ولكن شوقى خشى منافسة الشاعر العراقي فسد عليه الباب وقطع عليه كل رجاء ، وكفر فى هذا بأخوة الأدب واخوة العرب وبالواجب نحو رجل شطت به الدار ووجد السيد عبد المحسن فى الاستاذ الامام حمى ، ولكن الحمام لم يمهل الاستاذ الامام ، وهنا تهدج صوت حافظ ، ودمعت عيناه ولم يستطع أن يتم الحديث » .

أفق ساعة ..

أفق ساعة ، وأنظر الى الخلق نظرة   تجدهم ـ وان راق الطلاء ـ هم هم
على ظهرها من شر أطماعهـــم دم   وفوق عبا بالبحر من صنعهم دم
تفانوا على دنيا تغر وباطل . . .   يزول اذا ما ضجت الأرض منهم
فليتـــك تحيـا يا أبا الشعر ساعة   لتنظر مايصمى ، ويدمى ، ويؤلم
وقائع حرب أجج العـــلم نارها   فكاد بها عهد الحضارة يختـــم
وتعلم أن الطبع لازال غالبـــا   ســـواء جهول القـــوم والمتعلم
فما بلغت منـــه الحضارة مأربا   ولا نال منه العلم ما كان يزعـــم

حاسد وعذول !

ويأخذنى العجب ، وتتملكنى الدهشة من ذلك الذى يسألنى : لم تكتب عن حافظ ؟ وكيف تعده شاعر القومية ؟ وهو الذى كتب ما كتب فى مديح المعتمد البريطانى •• ! الى آخر تلك الحملة المغرضة ضد ذلك الشاعر الوطنى الخالص •

ولو أنى فى حديثى عن حافظ أخلص هذا البحث فى مثل ما يخالج أمثال هؤلاء لهان الأمر فى الحجاج والإقناع • بل اننا اذا ماالتفتنا لمثـل هذه القضايا فسوف نحيد عن جوهر بحثنا ، فان هذا الشاعر الذى يرى فيه بعض غلاة الرأى مايرون من ضروب الأقاويل ، وتهاويل الكلام ، قد حكم فيه التاريخ ، وأصدر فيه الأدب ما يسمو به عن تلك النزوات •

فمن نفس على حافظ مكانته واعتبر ذيوع صيته ونباهة شأنه أوفى من شاعريته ومن كبر عليه أن يعقد له تاج الخلود بجانب ضريبة شـوقى وخاصة فى ميادينه التى اختص بها ومن اعتل عليه بما قرأ له فى سياسياته من أبيات صانع فيها الانجليز ومن كانوا من أتباع مدرسته ، وأشـــياع آخرى •

أقول لكل هؤلاء ، وهم يعسرون فى الحساب ، ويتواصون بالكيد له والولوغ فى مكانته وشاعريته •• ان لكل رأيه فيه ، بيد أن هذه الآراء مع اختلافها لا ينبغى أن تأخذ الطريق على الساعى الى الروض يتملى من حسن زهراته ويروى من طيب نفحاته ، وعلة العلل فينا أننا نتعصب ولا نذعن للحجة القارعة •

ولو أن منصفا نظر الى هذا العملاق نظرة متجردة ، فنظر الى شعره بالنسبة الى عصره ، ومجتمعه ، وما كان يخب فيه ويضع فى حياة لم يكن أمثال أى مجترىء من هؤلاء بمستطيع أن يشجع كما تشجع حافظ

هل يضع الناقد فى حسابه ذلك الجو الذى تنفس فيـه حافظ وهو يتحدث عن وطنه ويقول :

اذا نطقت فقاع السجن متـــكأ   وان سكت فان النفس لم تطب

ومن هو حافظ هذا فى اصطراعه مع هؤلاء الغلاة من المستعمرين ، بل عملائهم المصريين ؟ ألم يستشهد من استشهد فى الصراع الذى طـــال وامتد الى سبعين عاما ؟ ألم يلق العنت كثيرون ؟ ومن ذا الذى كان يستطيع

غير حافظ أن يجهر بالشكوى فى حادث دنشواى ؟ وفى خطاب المعتمد البريطانى بمثل ماجهر به حافظ وبمثل مأيقظ به أمته ·

ألا نعد حافظا أحد هؤلاء الاعلام الذى كانت لهم القيادة والبطولة فى ايقاظ مصر ، ومجاهدة المستعمرين ، والصبر على أذاهم ، فى السودان

ثم يدخل فى الموضوع، موضوع الشعب وحقوقه ، ومظالم الاستعمار وفى مصر ·· لقد اصطنع بعض اساليب السياسيين وهو يعيش معهم ، فاذا وجه خطابه الى الانجليز بقوله : وهم القائمون بالامر فينا ، مشيرا الى حادث دنشواى :

أيهـا القائمون بالامر فينـا هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟ !

خفضوا جيشكم وناموا هنيئا وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا

مشيرا الى القيد الذى يرسف فيه الشعب :

انمـا نحن والحمـام سواء لم تغادر أطواقنـا الأجيـادا

ويشير الى قتيل الشمس بقوله :

لا تقيدوا أمـة بقتيـل صادت الشمس نفسه حين صادا

ثم يثور ويفور بقوله بعد فترة الاستهلال :

ليت شعرى أتلك محكمة التفـ ـتيش عادت أم عهد نيرون عادا

ويبلغ ذروة البيان فى التهكم والسخرية بهم اذ ينشد :

كيف يحلو من القوى التشفى من ضعيف ألقى اليه القيادا

انها مشـلة تشف عن الغيظ ولسنا لغيظكم أندادا

ان المرمى الذى حدا بالشاعر أن ينشد قصيدته تلك ، ليس هو المناجاة لتلك الدولة المتعسفة أو التقرب الى مندوبيها بمصر ، أو التماس منفعة لدى حكام مصر من العملاء ، أو عطف قلب المدعى العمومى ابراهيم الهلباوى الذى يخاطبه حافظ بقوله ينعى عليه موقفه المزرى من بنى وطنه:

أيهـا المـدعى العمومى مهلا بعض هـذا فقد بلغت المرادا

قـد ضمنـا لك القضـاء بمصر وضمنـا لنجلك الاسعادا

ويدمغه بالحجة ويحمله وزر الحدث المشئوم بقوله :

أنت جـلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

وانما حدا بالشاعر أن يسكب دمعة على الحدث الخطير ، دمعة يستثير بها بنى وطنه ويفتح أعينهم على الخطب الذى وقع بين ظهرانيهم ، وينبه

هذا الشعب الى معرفة أعدائه ـ من المستعمرين ـ الذين لايملك الشعب فى مقارعتهم الا النوم والاستكانة حينذاك :

أمة النيـــل أكبرت أن تعـــادى من رماها وأشفقت أن تعـــادى
ليس فيهـــا الا كـــلام والا حسرة بعـــد حسرة تتهـــادى

وهو فى هذا الجو المكفهر جو السياسة العابس والتسلط من القوى المتربص مسلوب المروءة والضمير ضـد الشعب الضعيف الأعزل ، يهيب ببنى وطنه من عملاء المستعمر فى شخص ذلك المدعى العمومى، بل ويصرخ فيه وفى أمثاله مخاطبا مصر :

لا جرى النيل فى نواحيك يا مصـ ـــر ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبـــت يا مصر فأضـــحى عليك شـــوكا قتادا

فاذا تصرمت أشهر ثلاثة والدمع لم يجف على الشهداء والنفوس فى جزعها مانزال هالعة ، واذا ما أوشكت الحادثة أن يخف أثرها أو يشغل الناس شاغل عنها ، يجد الشاعر فى استقبال اللورد كرومر وهو عائد من مصيفة فرصة للمعاتبة والمغاضبة ، العتب على الحدث الذى ما يزال ماثلا فى قلب كل مصرى ، حادث دنشواى ، والمغاضبة لما نقلته أسلاك البرق من ذلك التقرير الظالم الذى رفعه اللورد كرومر الى دولته ، وفيه يطعن على المصريين ويجرحهم وقد نشر هذا بالصحف المصريه •

كتب عميد الانتداب البريطانى الى انجلترا ينـــدد بمسلك الشعب المصرى ويتهمه بأنه لايقابل الجميل بالجميل ، فهو يدعى ان الاصلاحات التى تقدمها الدولة المسعورة كان يجب أن تقابل بالشكر والامتنان وعرفان الجميل ، ولكن شعب مصر فى نظره ذلك الشعب الذى نصبت فيه محاكم التفتيش فى دنشواى ليس أهلا للخير •

كتب هذا «كرومر» الطاغية ، فتصدى له الشاعر يفند حجته ويحاور خديعته وينافحه ويلاحيه ، ثم يأخذ بتلابيبه ، ثم يوقظ شعبه ، ويكشف ألاعيب المستعمر :

استمع اليه يخاطب (قصر الدوباره) وهو يعنى ساكن القصر بمـا أمده الله من حول وطول وقوة ، وهل لحافظ ابراهيم الشاعر الفقير الضعيف حول وطول وقوة الا هذا البيان الناصع :

أهـــلا بساكنك الكريم ومرحبا ؟ بعـــد التحيـــة اننى أتعتب

صيغة رسالة بعث بها حافظ فى أبيات من الشعر فحين نتشر هذا البيت نقول :

المعتمد البريطانى ـ ساكن القصر المكرم ـ تحية وأهلا بك ومرحبـا

انني أحمل اليك عتاب هذا الشعب فيما ذهبت اليه

ثم يقول :

نقلت لنـــا الأسلاك عنك رسالة — باتت لهـا أحشــاؤنا تتلهب
ماذا أقول وأنت أصـدق ناقل — عنا ، ولـكن السياسـة تكذب

أفطنت معي أيها القارىء في هذه الابيات ماذا يعنيه الشاعر : ؟

انه يصور حالة مصر من تلهب أحشائها واضطراب جذوة الغضب فيها بعد ماأحيطت بما نقله اللورد كاذبا عليها ، وان كان تقريره أصدق تقرير تستمع اليه دولته ، ثم يجاذبه الحوار ويحيطه علمـــا بأن مصر لاتستجيب لظواهر الاصلاح ، وان ذلك من حقها :

علمتنـــا معنى الحيـــاة فما لنا — لانشرئب لهـــا ، ومالك تغضب

ثم يدخل في الموضوع،موضوع الشعب وحقوقه ومظالم الاستعمار.. والحزن المسيطر على النفوس وما اجترحوه من سيئات وفظائع في الحادث المشئوم :

ان ضـــاق صدر النيل عما هاله — يوم الحمام فان صـــدرك أرحب
أو كلمـــا باح الحـــزين بأنة — أمست الى معنى التعصب تنسب

ويترفق في عتابه على طريقته اللاذعة وهو يحس بأن شعبه كليـــل مستضعف :

رفقـــا عميد الدولتين بأمـــة — ضاق الرجاء بها ، وضاق المذهب
ان أرهقوا صيـــادكم فلعلهـــم — للقوت لا للمسلمين تعصـــبوا
ولربمـــا ضن الفقير بقـــــوته — وسخا بمهجته على من يغصـــب

وينتقل الشاعر الى مرحلة أخرى في القصيدة ، هي وصف الفاجعة وترديد أحداث المصاب ، اثارة النفوس، وبعث الضغينة في القلوب وتحريك الشعب :

حسبوا النفوس من الحمام بديلة — فتسابقوا في صيدهن وصــوبوا
خليتهم والقاســـطون بمرصـــد — وســـياطهم وحبـــالهم تتـأهب
جـــلدوا ولو منيتهـم لتعلقـــوا — بحبال من شنقوا ولم يتهيبـــوا
شنقوا ولو منحـوا الخيـــار لأهلوا — بلظى ســـياط الجالدين ورحبوا
يتحاســـدون على الممـــات وكأسه — بين الشـــفام وطعمه لا يعـــذب

ويتصعد الأسى في نفسه وتهيجه الذكريات فيواصل وصف الفاجعة:

موتان : هـــذا عاجـــل متنمر — يرنو ، وهـــــذا آجل يترقب

والمستشار مكاثر برجاله ومعاجز ومناجز ومحزب

ويلقى عليه درسا بالغا فى السياسة بقوله :

طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير ما يرجو العميد ويطلب

حب يحاول غرسه فى أنفس يجنى بمغرسها الثناء الطيب

أى انهم قتلوا الشهداء الاربعة ثم أرادوا بهذا ما يحاولون غرسه من حب ، أى أن فى هذا الحادث القضاء على ماقد يكون هناك من علائق بين المستعمر والشعب • وضياع بكل أساليب السياسة فى عطف القلوب المخدوعة بتلك السياسة •

ويوجه اليه الخطاب مناصحا فى أسلوب الحكيم يسدى النصح الى الأغرار :

فاجعل شعارك رحمة ومودة ان القلوب مع المودة تكسب

واذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب

واستبق غفلتها ونم عنها تنم فالناس امثال الحوادث قلب

واذا كان الشاعر لايكاد يستريح ذهنه حتى يلتمس سببا للشكوى من الاحتلال فانه لايفتأ يخاطب ذلك العميد ويحاسبه ويكشف ألاعيبه ويرصد حركات سياسته وخداعه :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظما

ويطلب اليه أن يكف عن المن والأذى ويرفض باسم الشعب مايدعيه من اصلاحات ويطلب اليه أن يعيد عهد اسماعيل فانه خير من المن وان كان عهد اسماعيل أطغى وأظلم فقد كانت تجلد فيه ظهور الناس ويسخرون تسخير الحيوان :

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وان أصبح المصرى حرا منعما

أعد عهد اسماعيل جلدا وسخرة فانى رأيت المن أنكى وآلما

وفى تعبير الشاعر بقوله : «أخصب الثرى» فيه احتراس من اسناد الخير اليهم ، فالخصب والنماء طبيعة أرضنا • ومع هذا فهم يمنون علينا بتلك الطبيعة الصادقة •

ويرى الشاعر أن فى خصب الارض وجدب أهلها ما لايستحق المن فالفقر محقق ، وهو بهذا يشير الى أن خصب الارض ليس بعائد على الشعب وانما الشعب فى فقر وجدب بسبب نهب غلاتهم وسلب أموالهم ومحصولاتهم فى قوله :

اذا أخصبت أرض وأجدب أهلها فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما

ولله دره وهو يذكرهم بما أصيبت به البلاد على أيديهم :

نهش الى الدينـــار حتى اذا مشى   به ربه للسوق ألفاه درهمـــــا

وفى مثل المرة السابقة أى بعد شهرين آخرين ، يقف الشاعر وقفة جديدة وكأنما هو محام اختارته مصر للدفاع عنها ، والقضية تؤجل وتنظر على فترة من الزمان مابين خمسين يوما أو سبعين .

فهذا العميد البريطانى يستقيل ويعود ، فمن ذا الذى يحاسبه على سياسته فى تلك المدة ومن ذلك المحامى الذى يقـــوم منذرا تلك الدولة الاستعمارية ويضرب لها الأمثال عن تلك الفترةالطويلة التى لم ينجح فيها.

في دنشواى ..!

أو كلمـا باح الحـزين بأنه … أمست الى معنى التعصب تنسب
رفقـا عميـد الدولتين بأمـة … ضاق الرجاء بها وضـاق المذهب
في (دنشواى) وأنت عنا غائب … لعب القضاء بنـا ، وعز المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة … فتسابقوا في صـيدهن وصـوبوا
نكبوا ، وأقفرت المنـازل بعدهم … لو كنت حاضر أمرهم لم ينـكبوا
خليتهم والقاسطون بمرصـد … وسـياطهم وحبـالهم تتأهب
جـلدوا ولو منيتهم لتعلقـوا … بحبال من شنقوا ، ولم يتهيبـوا
شـنقوا ولو منحوا الخيـار لأهلوا … بلظى سياط الجالدين ، ورحبـوا
والمسـتشار مكاثر برجـاله … ومعـاجز ، ومنـاجز ومحزب
يختال في أنحائهـا متبسـما … والدمع حـول ركابه يتصبب

حافظ ابراهيم

حديث الناس . . !

وحين يؤرخ للتاريخ فترة تزيد على اربعة وعشرين عاما حكم فيهـا عميد الدولة الانجليزية (اللورد كرومر) مصر يتحدث حافظ بلسـان الشعب حديث الناس فى قصـيدته تلك التى نشرت فى ابريل عام ١٩٠٧ ، وبينا يسخر منه بقوله :

لقد حـــان توديع العميد وانه ... حقيق بتشييع المحبين والعـــدا
فودع لنا الطود الذى كان شامخا ... وشيع لنا البحر الذى كان مزبدا

ويزيد فى تهكمه وسخريته به في قوله :

أمنا، فلميسلك بنا الخوف مسلكا ... ونمنا، فلم يطرقبنا الذعر مرقدا

ثم يدير عليه وعلى القارىء رأيه فى قوله ويحصى عليه تاريخه :

تشعبت الآراء فيك فقـــائل ... أفاد الغنى أهلالبلاد ، وأسعدا
وكانت له في المصلحين سياسة ... ترخص فيهـا تارة وتشـددا

بينما يعلن له ذلك بباغته بالحقائق الدامغة ، وبما جره من افساد وما اقترفته السياسة الانجليزية فى مصر مما أوضحه بأسلوب شـعرى ناصع لايحتاج الى تعليق أو شرح :

قضيت على أم اللغـــات ، وانه ... قضاء علينا ، أو سبيل الى الردى
ووافيت والقطران فى ظـل راية ... فما زلت «بالسودان» حتى تمردا
فطاح كمـا طاحت مصوع بعـده ... وضاعتمساعينا بأطماعكم سدى

ويذكره بمطاعنه على المصريين وحجب المؤيد ومنعـــه من دخول السودان :

حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ... ولم تستقل حتى حجبت المؤيدا
وأودعت تقرير الوداع مغـامرا ... رأينا جفـاء الطبع فيها مجسدا
غمزت بهـا دين النبى واننـا ... لنغضب ان أغضبتفى القبر أحمدا
يناديك أين النابغون بعهـدكم ... وأى بناء شـامخ قد تجـددا
يناديك : وليت الوزارة هيئـة ... منالصم لم تسمعلأصواتنا صدى

ثم يعاوده فى العتب والمحاورة الجريئة التى يأخذ فيهـــا بتلابيبه لمحاسبته الحساب العسير كمواطن حر جرىء :

بربك ماذا صدنا ولوى بنـــا ... عن القصد ان كان السبيل ممهدا
أشرت برأى فى كتابك لم يكن ... سديدا ، ولكن كان سهما مسددا
وحاولت اعطاء الغريب مكانة ... تجر علينا الويل والذل سرمدا
فياويل مصر يوم تشقي بندوة ... يبيت بها ذاك الغريب مسودا

ثم يعدد له سوءات السياسة الاستعمارية :

ألم يكفنا أنا سلبنا ضياعنا ... على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا فى العيش كل ممارس ... خبير ، وكنا جاهلين ورقدا
وما الشركات السود فى كل بلدة ... سوى شرك يلقى به من تصيدا
فهذا حديث الناس، والناس ألسن ... اذا قال هذا صاح ذاك مفندا

الذل شنشنة العبيد ..

عجبت لقومى لايحفظون تاريخهم .. ذاك الذى سطره صاحب اليراعة الساحر «حافظ» وهو يستقبل معتمدا جديدا فى مصر بعثت به اليها الدولة الاستعمارية عام ١٩٠٧ بعد رحيل سلفه اللورد كرومر .

فبينما يشيع حافظ العميد الراحل ويعلق فى رقبته «كشف الحساب» ويدمغه بذلك الاطار الاسود الذى جلل صحيفته زهاء قرن من الزمـان يعيث فيه فسادا فى ربوع بلادنا .

تراه يستقبل تبعا آخر من أتباع تلك الدولة الخاسرة هو السـير «غورست» .

وفى دراسة قصيدته تلك التى يسجل فيها آراءه ومشاعره وينفض بها همومه وأحزانه وما استوعبته نفسه ، واستودعه سره من بغض شديد لهذه العصابة التى لاتني تسرف فى التنكيل بالشعوب ، تراه يستهلها بما يقوى همته ، ويشد عزيمته وما به يزهى على التاريخ فى مواقفه ، وكأنه بطل فاتح يسجل لنفسه يوما مشهودا :

بنات الشعر ، بالنفحات جودي ... فهذا يوم شاعرك المجيـد

ثم يستعلى بمكانة القصيد الذى يرفعه الى سموات الذرا :

اذا ما جل قدرك عن هبـوط ... مريه الى سمائك بالصعود

ولله دره ، وهو ينزه نفسه فى مقامه هذا مقام الغايات الكبرى حيث يصوغ قريضه وينسق نشيده دفاعا عن وطنه لاطمعا فى عرض زائل :

فما أنا واقف برســـوم دار ولا مستنجز خُنـز الوعـود
ولكنى وقفت أنـوح نوحـا على قومى ، وأهتف بالنشـيد
وأدفع عنهـم بشـبا يراع يصـول بكل قافيـة شرود
بنات الشـعر ان هى أسـعدتنى شكوت من العميـد الى العميـد
ولم أجحد عـوارفه ، ولـكن رأيت المن داعيـة الجحـود

ولعلها شكاة شعب فى ثوب ميثاق ودعوى الى عدل واصلاح ، بل لعلها نذير يقدمه للمستعمر الجديد ، فيقص عليه طرفا من سيرة سلفه ، لا بل انه يفصح له بأن الشعب المصرى واع لألاعيب المستعمر ، مستمسك بحقه ، وان المفكرين فى هذا البلد لايمكن أن يعيشوا فى غفلة :

اذا اعلولى الصـياح ، فلا تلمنا فان الناس فى جهد جهيـد !
على قدر الأذى ، والظـلم يعـلو صياح المشـفقين من المزيد
جراح فى النفـوس نغرن نغرا وكن قد اندملن على صـديد

ثم يتحدث الشاعر باسم شعبه وكأنه مفوض عنه بالمطالبة جهرا بحقه:

ولكنـا نطـالبـكم بحق أضر بأهـله نقض العهـود
رمانا صاحب التقرير ظلمـا بكفران العـواقب والـكنود
وأقسـم لا يجيب لنـا نداء ولو جئنـا بقرآن مجيـد
وبشر أهـل مصر باحتـلال يدوم عليهـم أبد الأبيـد
وأنبت فى النفوس لهم جفـاء تعهده بمنهـل الصـدود

ثم ينتفض الشاعر وكأنماهاجته الذكريات وأشجتهالأحداث فيتحدث عن دنشواى بناقوسه ذاك الذى يقرع به الآذان :

قتيل الشـمس أورثنا حيـاة وأيقظ هاجـع القوم الرقود
فليت كرومرا قد دام فينـا يطوق بالسلاسل كل جيـد
ويتحف مصر آناً بعـد آن بمجلود ، ومقتـول شـهيد
لننزع هذه الأكفان عنـا ونبعث فى العوالم من جـديد

ثم يندد بسياسة المستشار « دنلوب » بما هو أهل له :

هبوا « دنلوب » أرحبكم جنانا وأقدركم على نزع الحقـود
وأعلى من « غلادسـتون » رأيا وأحـكم من فلاسفة الهنـود

ويعلن رأيه بصدد تصرفاته :

فإنا لا نطيــق له جــوارا — وقد أودى بنــا أو كاد يودى
مللنا طــول صحبته وملت — ســوابقنا من المشى الوئيد
خذوه فامتعوا شــعبا سوانا — بهــذا الفضل والعــلم المفيد

ثم يعلن الضيق أشد الضيق بالانجليز وأتباعهم فى مصر :

أرى أحداثكم ملكوا علينــا — (بمصر) موارد العيش الرغيد
وقد ضقنا بهم ، وأبيك ذرعــا — وضــاق بحملهم ذرع البريد
فخبرهم وأنت بنــا خبير — بأن الــذل شنشــنة العبيد
وأن نفوس هــذا الخلق تأبى — لغير الهــا ذل الســجود

أنت جلادنا

أيها المــــــدعى العمومى مهــــلا   بعض هذا ، فقد بلغت المــرادا
قد ضـــــمنا لك القضـــاء بمصر   وضــــمنا لنجلك الاســــعادا
فاذا ما جلست للحـــــكم فاذكر   عهد مصر ، فقد شفيت الفــؤادا
لاجرى النيل فى نواحيك يامصـ   ـــر ولا جادك الحيا حيث جـادا
أنت أنبت ذلك النبت يا مصـــــ   ـــر فأضحى عليك شوكا قتــادا
أنت أنبت ناعقـــا قام بالأمســـ   ـــس فأدمى القلوب ، والاكبـــادا
ايه يا مدرة القضــــــاء ! ويا من   ساد فى غفلة الزمان وشـــــادا
أنت جلادنا ، فـــلا تنس أنـــا   قد لبسنا على يديك الحـــدادا

حافظ أبراهيم

الشاعر والزعيم

أجل كان حافظ على منابر القاهرة ، وفى حشود الشباب يستنهض الهمم ويستثير الجذوة ويوقد نار الوطنية ويؤجج مشاعل الحرية ، اثر حادث دنشواى وكان الزعيم مصطفى كامل فى أوربا يخطب الجماهير ، ويذيع فى الرأى العام ويجبه السادة الانجليز بما اقترفه عملاؤهم من آثام ضد شعب برىء استمع الى مقاله وحجاجه وهو يعرض تلك القضية على الرأى العام العالمى ، ويعلن بها حربا لا هوادة فيها على الاحتلال وينشر ذلك فى صحافة أوربا بعنوان : الى الأمة الانجليزية ... الى العالم المتمدين .. !

انه يصف تلك الحادثة ويعلق عليها فيقول وليس هناك أبلغ مما كتب :

هذه هى الوقـــائع .. وما علمها أصحاب الأمر من الانجليز حتى فقدوا الرشد وثاروا لقيـــام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم وبدلا من أن يقابلوا الحادثة بسكون جاش ككل المشاجرات والمعـارك ، بالغوا فيها وجسموها ، وأعلنت الصحف الموالية للاحتلال قبل المحـاكمة بأن العقوبات والعبرة التى ستضرب للنـاس ستكون هائلة ، فلم يكن العدل هو المنشود فى المسألة بل الانتقام الفظيع .. » « ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر منشل المستشار الانجليزى قبل المحاكمة بأسبوع مذكرة رسمية أثقلت كواهل المتهمين بالتهم . وقصدت بصراحة التأثير فى المحكمة والرأى العام ، وبلغ احتقار احدى الصحف القائمة فى خدمة الاحتلال للعدل ، أنها نشرت خبر ارسال المشانق الى دنشواى قبـــل المحاكمة .

وقد راع الشعب كل ذلك ، فأخذ يتساءل عن الحكم الذى ينتظـر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة ..

« وقد اجتمعت المحكمة فى يوم ٢٤ يونية وأى محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ، ولا قانون يربطها لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التى تخطر على البال ! محكمة الأغلبية فيها للانجليز ، ولا تستأنف أحكامها ولا تقبل العفو .

ويتحدث الزعيم الوطنى مصطفى كامل :

« قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية ، وتبين أن الضباط

الانجليز هم الذين أهاجوا الفلاحين في ممتلكاتهم ، وبجرحهم احدى نسائهم ، وأن الفلاحين هجموا على الانجليز بوصفهم صيادين يختلسون الصيد ، لا ضباطا بريطانيين ،

واعترف أمام المحكمة أطباء انجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعي للمحاكم ، بأن الكابتن بول مات بضربة الشمس ، وأن جراحه وحدها لم تكن كافية وحدها لاحداث الموت ٠

« ولم تترك المحكمة الا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهما ليقولوا ماعندهم ، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس حيث أكد أن الضباط الانجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالى وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة والذين يعتبرهم العدل فى كل بلد خصما للمتهمين ٠

« وفي يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما على واحد ، وبها لمدة ٧ سنوات على ستة ، وبالحبس لمدة عام مع الجلد على ثلاثة ، وبالجلد على خمسة ، وجلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلده بكرباج له خمسة ذيول ٠

« قررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى بحيث لم يمض الا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم ٠٠

«وفي الساعة الرابعة بعد منتصف الليل من يوم الاربعاء ٢٧ من يونيو جيء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق والثمانية المحكوم عليهم بالجلد أعفت المحكمة واحدا منهم لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمل الجلد » جيء بهم من شبين مقر مديرية المنوفية الى قرية الشهداء التى تبعد بأربعه كيلو متر عن قرية دنشواى ، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٨ من يونيه جيء بهم الى دنشواى ، وكل أصحاب الأمر من الانجليز قد صمموا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة ٠ وفى الساعة التي وقعت ، ويقول محامى مصر وزعيمها الشباب مصطفى كامل :

« نصبت المشانق ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر مربع ، وأحاطت عساكر الانجليز بالمحكوم عليهم ، والتفت الخيالة المصرية حول الانجليز وتولى المستر متشل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ ! »

«وقد تقدم اليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده لأخذ وصاياه الأخيرة فرفضا قبول الرجاء الذى هو أعز مايرجوه الانسان ويحتمه الشرع والعدل » !

وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولهـــا وشهرت سيوفها ، وبدىء بعد ذلك بدقيقة في الشنق ! ٠

« فشنق رجل ولبث أعضاء عائلته وأقاربه وهم على بعـــد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب ، وجلد اثنان أمام الجثة ٠٠

« وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات واستمر ســـاعة من الزمن منظر وحشى مهيـــج للعواطف بكى منه بعض الحاضرين الأوربيين وأذرفوا دموع الحنان ، وأبدوا النفور الشديد مما رأوه وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين « لعنه الله على الظالمين »!

ان هذا الذى راح يفضح به محامى مصر سياسة الاستعمار الجشعة المفضوحة كان يردده فى محافل القاهرة وفى نفس الوقت صيداح الوطنية وشاعر النيل حافظ ابراهيم ،

وكانت المعانى التي تفيض عن بيانات محامى مصر الشاب وزعيمها البطل فى أوروبا تتردد بأقوى ماتكون القوة عنفا وصخبا فى مقاطع أبياته التى لاتزال تتردد على الاسماع - كانت الطريقة واحدة وكان الدفاع واحدا ، وكان العنف هو العنف وكان ذلك كله لأن القضية كانت واحدة كانت قضية الحرية ، كانت قضية مصر ، وأما ذلك الحادث فلقد كان فألا حسنا لمصر وللمصريين كما كان شؤما على الظالمين ٠

ونعود فنكرر ما أثبتناه آنفا وهو أن مصر على عهـد حافظ لم تكن مصرنا الحـــاضرة ، ولم يكن حافظ يكتب ما كتب ، وينشد ما أنشد فى المحافل والمهرجانات سرا وانمـــا كانت صيحات تدوى من فوق المنـــابر يتحدث بها عن آلام مصر وآمالها ، عن مصاير الأمة العربية وما يعتورها من أحداث ٠

قتيل الشمس

قتيل الشمس أورثنــــا حيــاة — وأيقظ هـــاجع القـــوم الرقود
فليت كرومرا قد دام فينــــــا — يطوق بالســلاسل كل جيـــد
ويتحف مصر آنا بعــــــد آن — بمجـــلود ، ومقتول شـــهيد
لننزع هـــذه الأكفان عنــــــا — ونبعث فى العـــوالم من جـــديد

حافظ ابراهيم

جئت أسأل .

وحين يقف مصطفى كامل يتحدث عن حادثة دنشواى وهو يخاطب الانجليز بجلجلته محتجا عليهم فى قوله :

« وان يوم ٢٨ من يونيه من عام ١٩٠٦ سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا فهو خليق بأن يذكر فى عدد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية ٠٠ وانى جئت أسأل اليوم ، أسأل الامة الانجليزية نفسها والعالم المتمدين اذا كان يصح التسامح فى اغفال مبادىء العدل وشرائع الانسانية الى هذا الحد ! »

جئت أسأل الانجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا اذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبى والمادى لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية ٠

« جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الانسانية مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط ٠٠ »

جئت أسأل الأمة الانجليزية اذا كان يليق أن تترك الممثلين لها فى مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما الى قوانين استثنائية ووسائل همجية بل وأكثر من همجية ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهى كرامة الانسان !

حين يذكر الزعيم الوطنى مصطفى كامل ذلك يؤيد برهانه ويقوى حجته ويفزع خصمه المكابر بقوله :

« وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواى أشعارا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التى أهينت فيها المدنية الانسانية والعدل بأقصى الصور المهيجة للوجدانات والنفوس ٠ »

فهل كان لمصطفى كامل وأحزابه سواعد تشد من عزيمته فى جهاده ونضاله من قوة فى تلك المعارك سوى هذا الذى كان يثور به ويفور ويزلزل كيان الانجليز وهو يسدد الضربات اليهم فى ايقاظ الشعب وحث الشباب على الجهاد بشعره المنبثق عن أعصاب ثائرة وروح مغامرة ٠

كان مصطفى كامل فى انجلترا يحاج الانجليز ، وكان حافظ على منابر القاهرة يفضح أساليب الاستعمار ويندد بفعلتهم الشنيعة ٠

وبينما حافظ ينتقد بسياسة المستشار ، تشهد له المحافل مواقفه المشهورة الذى ينشد فيها شعره ليوقظ بنى وطنه ، وما يزال فى نفسه مافيها من قالة المعتمد البريطانى واتهامه مصر والمصريين لدى بريطانيا بأننا شعب غير أهل للنهوض وانه كافر بأنعمهم لعنة الله عليهم ، فما يستحق أن يمكن له فى التوسع فى التعليم .

أقول أن شاعرنا لاينسى له ذلك وان كان قد فند تلك المقالة فى قصيدته التى أثبتناها فانه ينتهز فرصة مشروع انشاء الجامعة وينشد فى الجمع الحاشد وهو يجلجل بصوته وحجته ويوقظ النيام من قومه :

لاتقنطوا ان قرأتم ما يزوقه ... ذاك العميد ويرميكم به غضبا
بنى على الافك أبراجا مشيدة ... فابنوا على الحق برجا ينطح الشهبا
وجاوبوه بفعل لايقوضه ... قول المفند أنى قال أو خطبا

ثم يصرخ فيهم ويطالبهم بألا يركنوا الى الراحة أو النوم ، فعدوهم لايهجع ولا ينام :

لا تهجعوا انهم لن يهجعوا أبدا ... وطالبوهم ، ولكن أجملوا الطلبا

وعدم الهجوع هو الثورة والدأب فى المطالبة بالحقوق وهو يتحلل من تلك الدعوة بطلب الترفق

وحين يصول ويجول بهذا الخطاب يضع نصب أعينهم الغرض الاكبر من انشاء الجامعة ، الغرض الوطنى وهو بعث الحياة فى أعصاب الشعب الذى استذله العدو .

ولا حياة لكم الا بجامعة ... تكون أما لطلاب العلا وأبا
تبنى الرجال وتبنى كل شاهقة ... من المعالى وتبنى العز والغلبا

وهو لايساهم فى مشروع اجتماعى وانما يدعو الى بناء وطنى وارساء دعائم القوة وخلق الرجال ، واذن فلا يكون ذلك بالقاء الكلمات ثم جمع الدنانير والدراهم لا ، ولكنه يريد أن تتكتل القلوب وتقام أسوار الجامعة من تلك الاكباد وينصح بنى قومه ألا يدعو للعدو طريقا الى تخذيلهم بقالة كاذبة مما يتحرض بها فيقول لهم وهو يصرح عن طبيعته ، تلك الطبيعة التى تحتقر المادة وتهتم بالمعنويات السامية :

ضعوا القلوب أساسا لا أقول لكم ... ضعوا النضار، فانى أصغر الذهبا
وابنوا بأكبادكم سورا لها ودعوا ... قيل العدو فانى أعرف السببا

ثم يردد الابيات التى سبقناها :

لاتقنطوا ان قرأتم ما يزوقه ... ذاك العميد ويرميكم به غضبا

ولله دره ينشد مصر وشعبها محرضا لها على التشبث بانشاء الجامعة وهو يرى ان حياتها فى اقامتها وبنائها واتاحة الفرصة لخلق الشباب وبناء الرجال ولكنه يلجأ فى هذه المرة الى اثارتهم :

يامصر، هل بعدهذا اليأس متسع ... يجرى الرجاء به فى كل مضطرب؟
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا ... كأننا فيك لم نشهد ولم نغب
نبكي على بلد سال النضار به ... للوافدين وأهلوه على سغب

وما أشد براعته وهو يقدم الرجال فى الاكتتاب للمشروع :

هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا ... بالمال انا اكتتبنا فيه بالأدب

واذا كتب حافظ يعرض بسياسة المستشار دانلوب وهو يعوق تقدم التعليم ونشره بمصر ، يذع القادة من بنى وطنه ويحرضهم على الأخذ بأسباب العزة ويحملهم هم دون المستشار اللوم والتبعة :

ياسعد أنت (مسيحها) ... فاجعل لهذا الموت حدا
انا لا ألوم المستشار ... اذا تعلل أو تصدى
فسبيله أن يستبد ... وشأننا أن نستعدا
هى سنة المحتل فى ... كل العصور وما تعدى

وهل هناك مصلح أو زعيم وطنى استطاع أن يواصل قرع الأذان بمثل أذان حافظ وهو يرغبهم تارة فى المجد ، ويوقظهم تارة أخرى .. وينعى على الخاملين منهم طورا ثالثا لايترك مناسبة أو حادثا أو علة يعتل بها الا ، وترى بيانا متدفقا يقرع الأسماع :

كاشف الكهرباء ليتك تعنى ... باختراع يروض منا الطباعا
آلة تسحق التواكل فى الشـ ... ـرق وتلقى عن الرياء القناعا
ان فينا لولا التخاذل أبطا ... لا اذا ماهم استقلوا اليراعا
وعقولا لولا الخمول تولاها ... لفاضت غرابة وابتداعا
ودعاة للخير لو أنصفوهم ... ملأوا الشرق عزة وامتناعا

وما هى تلك الامنية التى كانت تصطرع بخيال الشاعر ولا أقول تداعبه :

ليت شعرى متى تنازع مصر ... غيرها المجد فى الحياة نزاعا
ونراها تفاخر الناس بالأحيـ ... ـاء فخرا فى الخافقين مذاعا ؟

هذه هي روح حافظ ظلت تهفو كالملاك وتخفق في الآفاق تسيطر على القلوب وتعمل عملها في النفوس ، فاذا رفعنا منزلته وقدرنا مكانته فاننا لم نعد منحه بعض حق الوفاء علينا له ..

... لم يستيطر على لبه الا ذلك الحب الطاغى والتعشق لوطنه فهو معه فى أفراحه ؛ وهو معه فى شدائده .. استمع اليه ما يفتأ يردد مقالته فى تفنيد تخرصات الانجليز ودعاواهم الكاذبة مقويا عزيمة الشعب رابطا على قلبه :

فديناك يا شرق لا تجزعن ... اذا اليوم ولى فراقب غدا

فكم محنة أعقبت محنة ... وولت سراعا كرجع الصدى

فلا يوئسنك قبيل العداوة ... وان كان قيلا كحز المدى

أراك مقر الطامعين

فياشرق ! ان الغرب ان لان أو قسا ففيه من الصهبـاء طبع مـــذوب
فخف بأسهافى الرأى، والرأى يصطلى وخف ضعفها فى الكأس والكأس تطرب
ويا غرب أن الدهر يعطفو بأهـــله ويطويه تيار القضـــاء فيرسب
أراك مقر الطـــامعين كأنمـــــا على كل عرش من عروشك أشعب

حافظ ابراهيم

مواكب ..

ونصاحب التاريخ فنعود لنقف مع الشاعر وقفات طوالا بين يـــدى نماذج من قصائده نسرح الخاطر فيها ونصاحب القارىء فى جلاء صـــور شائقة منها ·

فلم يكن حافظ وهو يغشى الأندية والمجتمعات العــامة ثم يقف فى صدر الاحتفالات والمهرجانات لينشد عاشقى أدبه ومتذوقى فنه الا بطلا من أبطال المواكب الشهيرة ·

فكان يقف بصوته الجهير فى الموقف الخطير ليلقى خطابا سياسيا ، أو مقالا اجتماعيا ، أو نصحا يسديه ولكن ليس فى تلك القوالب المعروفة فى فنون النثر وانما فى ترانيم وألحان ·

وان لنا لوقفة طويلة معه أمام قصيدته تلك التى أشرنا اليهافى صدر هذا الكتاب .. والتى كانت هتافالجماهير ابان العدوان الثلاثي الغاشم عام ١٩٥٦

وهى قصيدته التى أنشدها فى تكريم (عدلى يكن) بعد عودته من الخارج وقطع المفاوضات مع الانجليز ، وقد جاءت على لسانه «مصر تتحدث عن نفسـها » وذلك عام ١٩٢١ ، ولعلها كانت من بواكير الثورة المصرية الأولى ·

وقف الخلق ينظرون جميعـــا　　كيف أبنى قواعد المجد وحـدى

ويكفى أن يكون مطلع القصيدة هذا البيت ، فلعل من يرجع بذاكرته قليلا الى الوراء الى عهد تاميم القناة ، يذكر ذلك المعنى جملة وتفصيلا ، فقد كان العالم يتجه الينا لينظر ماذا نحن صانعون بعد التأميم ·· وهل نستطيع أن نقوم برفع قواعد هذه الدعامة العامة من دعامات التحرير الكبرى ·

ولكنه يستدرك ويعقب بأن ذلك ليس أمرا عسيرا علينا بشواهد التاريخ التى تسجل لنا تلك القدرة القادرة ·

وبناة الأهرام فى ســالف الدهــ　　ـر كفونى الـــكلام عند التحدى

وقد كانت نظرة الشاعر صائبة فى وضع مصر فى مكانها منالشرق وزعامتها وقيادتها لنهضاته :

أنا تاج العـــلاء فى مفرق الشر　　ق ، ودراته فرائد عقـدى
اى شىء فى الغرب قد بهر النــا　　س جمالا ولم يكن منه عنـدى ؟

وهو يزهي بالمقومات الطبيعية التى تفضل الخالق سبحانه فنفح بها هذا الوطن الكريم :

فترابى تبر ونهـرى فـرات ... وسـمائى مصقولة كالفرند
أينما سرت جـدول عنـد كرم ... عند زهر مـدنر عنـد رند
ورجالى لو أنصـفوهم لسـادوا ... من كهول ملء العيون ومـرد
لو أصابوا لهم مجـالا لأبـدوا ... معجزات الذكاء فى كل قصـد
انهـم كالظبـا ألح عليهـا ... صـدأ الدهر من ثواء وغمـد
فاذا صيقل القضـاء جـلاها ... كن كالمـوت مـاله من مرد

ثم يشير الى انهذا الوطن «مصر» لا قيامةللشرق بدونه فاذا ما نزلت به كارثة وطوحت به الاقدار أحاطت بالشرق الدوائر ولا قيامة له بعده :

أنا ان قـدر الاله ممـاتى ... لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
مارمانى رام وراح سـليما ... من قديم عناية الله جنـدى

وأى بيان أبلغ من هذا البيان فى تعبيره عما أحاط الله به هذا الوطن من منعة وعزة دون كل معتد غاشم :

ما رمـانى رام وراح سـليما ... من قديم ، عناية الله جنـدى
كم بغت دولة على وجـارت ... ثم زالت وتلك عقبى التعـدى
اننى حـرة كسرت قيـودى ... رغم قيد العدا وقطعت قدى
ان مجدى فى الأوليـات عـريق ... من له مثل أولياتى ومجـدى ؟

ويقرر السبق لنا فى النهضة الفكرية فى قوله :

أنا أم التشريع قد أخـذ الرو ... مان عنى الاصول فى كل حـد
ورصـدت النجوم منذ أضـاءت ... فى سماء الدجى ، فأحكمت رصدى
وقديمـا بني الأسـاطيل قومى ... ففرقن البحار يحملن بنـدى

وليته عاش معنا اليوم وشهد تلك الاحلام التى كان يتحدث عنها فى الماضى ويترنم بها :

فسـلوا البحر عن بلاء سـفينى ... وسلوا البر عن مواقـع جردى
أترانى وقـد طويت حيـاتى ... فى مراس لم أبلغ اليوم رشدى ؟
أى شـعب أحـق منى بعيش ... وارف الظل أخضر اللون رغـد

وينعى على المستعمرين :

أمن العدل أنهم يردون المـ ... ـاء صفوا وأن يـكدر وردى

أمن الحق أنهـم يطلقون الأسـ ـد منهم وأن تقيـد أسـدى

وهو يؤرخ للتاريخ ماعاناه وطنه من جهاد الغاصب :

نصف قرن الا قليـلا أعـانى ما يعـانى هوانه كل عبـد

نظر الله لى فأرشـد أبنا ئى فشدوا الى العلا أى شـد

ويزلزل ببيانه وقوته وحجته الدامغة أركان الباطل فيدوى نشيده :

انما الحق قوة من قـوى الديـ ـان أمضى من كل أبيض هندى

وحافظ كما سبق وأشرت يعيش معنا بأبياته هذه :

قد وعدت العـلا بكل أبى من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى

وارفعوا دولتى على العـلم والأخلا ق فالعلم وحده ليس يجـدى

ويصف الغرب ونوازعه :

ان فى الغرب أعينـا راصدات كحلتها الاطماع فيكم بسهد

فوقها مجهر يريهـا خفـايا كم ، ويطوى شعاعه كل بعـد

ويسطر دستور السياسة المصرية لبنيها المساميح فى هتافه :

واصفحوا عن هنـات من كان منكم رب هاف هفـا على غـير عمد

ويشير الى الأحداث تتوالى :

نحن نجتاز موقفـا تعثر الآ راء فيـه وعثرة الرأى تردى

ونعير الأهواء حـربا عوانا من خلاف والخلف كالسل يعدى

فقفوا فيه وقفـة الحزم وارمـوا جانبيه بعزمـة المسـتعد

آه لقومى لو يعون ماتركه هذا الشاعر وهو يصيح فيهم بفنون القول فى سياق شعره وهو يقف بهم عند مطلع فجر الحرية فى قوله :

اننا عنـد فجر ليـل طويـل قد قطعناه بين سهد ووجـد

غمرتنا سود الأهـاويل فيه والأمـانى بين جزر ومـد

وتجـلى ضيـاؤه بعـد لأى وهو رمز لعهـدى المسترد

فاستبينوا قصد السبيل وجـدوا فالمعـالى مخطوبة للمجـد

اذا الملك الجبار صعر خده ..

ونقف معه وقفة أخرى نطالع تلك القصيدة التى اختار رويها ووزنها على نهج قصيدة بشار بن برد التى يقول فيها فى سياق مديحه لعمر بن هبيرة :

(أذا ألملك ألجبـــار صعر خدّه   مشينا اليه بالسيوف نعاتبه)

أجل نقف معه وهو يصـــور الخليفة المخلوع والملك الدابر المقطوع وهو « عبد الحميد » سلطان الترك بعـــد أن أدبر عنه الزمان ، وزال سلطانه ، ويستهل قصيدته بقوله يهنىء دولة الترك بعيد دستورهم الذى أعيد اليهم بعد الانقلاب العثمانى وخلع السلطان عبد الحميد :

أجـــل ، هـــذه أعلامه ومواكبه
هنيئا لهم ، فليسحب الذيل ساحبه

هنيئا لهم ، فالكون فى يوم عيدهم
مشارقه وضـــاءة ومغـــاربه

رعى الله شعبا جمـــع العدل شمله
وتمت على عهـــد الرشـــاد رغائبه

ويناصح الشعب التركى :

خذوا بيد الاصلاح والأمر مقبل   فانى أرى الاصلاح قد طر شاربه
وردوا على الملك الشباب الذى ذوى   فانى رأيت الملك شابت ذوائبـه

ويشير فى بيان رائع الى أبطال الانقـــلاب الذين قاموا يحاســـبون السلطان المخلوع :

ثلاثة آســـــاد يجانبها الردى   وان هى لاقاها الردى لا تجانبه
يصارعها حــرف المنون فتلتقى   مخالبهـا فيه وتنبــو مخالبـه
روت قول بشار فثارت واقسمت   وقامت الى عبد الحميد تحاسبه

وقول بشار الذى يعنيه الشاعر :

اذا الملك الجبـــار صعر خــده   مشينا اليه بالسيوف نعاتبـــه
رجال من الايمان ملأى نفوســهم   وجيش من (الأتراك) ظمأى قواضبه
صوارمه ســـــمر القنا وكراته   رءوس الأعادى والحصون ملاعبه

ويتحدث عن السلطان عبد الحميد فى محنته بعد خلعه :

ولم يحمــه حصن ولم ترم دونه   دنانـــيره والأمر بالأمر حــازبه
ولم يخفه عن أعين الحق مخـدع   ولا نفق فى الارض جم مسباربه
أقام عليــه مهلـكا عنــد مهلك   يمر به روح الصبا فيواثبـــه
تحاماه حتى الوهم خاف اغتياله   فلو مسه طيف لدارت لوالبـه
وأسرف فى حب الحياة فحاطهـا   بسور من الاهوال لم ينج راكب

ففي كل قفل للمنيـــــة مكمن وفي كل مفتاح قضاء يراقبـــه
وفي كل ركن صـــورة لو تكلمت لما شك في عبد الحميد مخاطبـه
تماثيل ايهام أنيمت وأقعــــدت تراءى بهـــا أعطافه ومنـــاكبه
تمثله في نومه وجلوســـــــــه وتخدع فيه الموت حين يقاربه
أقام عليــــه ألف موت محجب ليغلب موتا واحدا عز غالبـــه

وفي أسلوب تهكمي ساخر يقول :

سلوه أأغنت عنه في يوم خلعـه عجائبه أو أحرزته غرائبـــــه
وقد نزل المقدار بالأمر صـــادعا فضاقت على شيخ الملوك مذاهبه
وأخرجه من « يلدز » رب «يلدز» وجرده من سيف «عثمان» واهبه
وأصبح في منفاه والجيش دونه يغالب ذكرى ملكه ، وتغـــالبه
يناديه صوت الحق ذق ما أذقتهم فكل أمرىء رهن بما هو كاسبه
هم منحوك اليوم ما أنت مشمتـه فرد لهم بالامس ما أنت سالبه
لك الله يا (تموز) انك باســـم لجرحى الأسى والدهر تعنو نوائبه
فكم رعت جبارا وأرهقت ظالمـــا وأنصفت مظلوما توالت مصائبه
مضى عهدالاستبداد واندك صرحه وولت أفاعيـه ، وماتت عقاربه

وهو بهذه القصيدة لايعدو أن يصور لنا باعجازه ذلك العرش الذي هوى لسليل تلك الاسرة في مصر وهو الملك المخلوع فاروق فما أشـــبه الليلة بالبارحة .

عاصف يرتمي ..

واذا جاز لنا أن نختار من نماذج الادب اللباب صورا لما اعتملت به حياة الشاعر فان في عرض هذه اللوحة المثيرة التي رقمها ببراعة ذلك المصور الشاعر وهو في رحلة الى ايطاليا يصف ماعاناه فيها ويســـطر ماانعكس في خياله لخير مايجد فيه القارىء متعة :

استمع اليه ينشد وهو نفس هائجـــة ثائرة مغضبة آيسة آنا ، ومطمئنة الى رحمة الله آونة أخرى في ديباجة مشرقة وبيان أخاذ :

عاصف يرتمي وبحر يغـــير أنا بالله منهمـــا مستـــجير
وكأن الأمـــــواج ـــ وهي توالى محنقـــات ـــ أشجان نفس تثور
أزبدت ثم جـــــرجرت ثم ثارت ثم فارت كمـــا تفور القـــدور

ثم أوفت مثل الجبـــال على الفلك   وللفلك عزمـــة لا تخــــــور
أزعج البحر جانبيها من الشـــد   فجنب يعــــلو ، وجنب يفـــور
وهى تزور كالجـــواد اذا مــــا   ســــاقه للطعان ندب جسور

ثم يصف حاله وشدة فزعه :

وعليهـــا نفوســــــنا خائرات   جازعات كادت شـــعاعا تطــير
فى ثنايا الامواج والزبد المنـدو   ف لاحت أكفاننــــا والقبـــور

واذ يضيق به الامر ويصل هياج البحر الى ذروته وتتعرض الباخرة للخطر الداهم يشير بقوله :

مر يوم وبعض يوم علينـــــا   والمنــــايا الى النفوس تشـــير
ثم طافت عناية الله بالفلــــــ   ـك فزالت عمن تقــل الشرور
ملكت دفة النجـــاة يد اللـــ   ـه فسبحان من اليه المصــير
أمر البحر فاســـتكان وأمسى   منه ذاك العبـــاب وهو حصــير

ثم يناجى البحر بعد أن سكن بقدرة الله تعالى وأمره فى فلســـفة مؤمنة :

أيها البحر لايغرنك حــــــول   واتســــــاع وأنت خلق كبير
انما أنت ذرة قــد حــوتهـــا   ذرة فى فضــــــــاء ربى تدور
انمـــــا أنت قطرة فى اناء   ليس يدرى مداه الا القــــدير

ويحلق فى تصويره وابداعه ويرى أن عليه حقا لتلك التى أقلته وتثبت أمام الأعاصير وهى الباخرة (اسبيريا) فينشدها :

ايه « اسبيريا » فدتك الجـــوارى   منشــــــآت كأنهن القصــــور
يا عروس البحار انك أهــــــل   أن تحليك بالجمـــان البحور
فالبسى اليوم من ثنائى عقـــــدا   تشتهيه من الحســـان النحـور

وحين يتلفت الى الارض التى يفد عليها يجيبها بقوله :

ايه ايطاليا عـــدتك العـــوادى   وتنحى عن ساكنيك الثبــــور
فيك يا مهبط الجمـــال فنـون   ليس فيها عن الكمال قصــــور
ودمى جمـــع المحـــاسن فيهـــا   صنع الكف عبقرى شـــــهير

ويصف تلك الدمى والاحجار التى بعث الفن فيها الحياة فيقول :

قد أقيمت من الجمـــاد ولــكن   من معانى الحياة فيها ســـطور
فهى تبدو من الملائك يكســـو   ها جمـــال على حفـــافيه نور

ولقد تجد عجبا فى ريشة الشاعر وهو يتنقل بها فى تسطيره لمشاهداته فى ايطاليا ، وما يعيه عنها من حياة نابضة تحتها نذير الموت المتربص :

أرضهم جنة وحور وولدان كما تشتهى ، وملك كبير
تحتها ـ والعياذ بالله ـ نار وعذاب ومنكر ونكير

وهى قدرة فى التعبير للنقيضين لا يبدع فيها أو يحس غير شاعرنا حافظ فى مثل هذا الاسلوب الساخر المعبر، وهو يصف بركان (فيزوف):

ذاك فيزوف قائما يتلظى قد تعالى شهيقه والزفير
ينذر القوم بالرحيل ولكن ليس يغنى مع القضاء النذير

ولله دره وهو يسجل خواطره عن حب الوطن وتقديسه فى معرض وصفه :

وكذاك الأوطان مهما تجنت ليس للحر عن حماها مسير

واذ تطول بنا القصيدة لا يمكننا أن نميل دون أن نعرض صورا فريدة مما أثبته فيها حيث انطلق خياله يذيع مكنون سره ومحتويات صدره وخزائن تفكيره انه بعد أن يذكر تقديس الأوطان يلوى بخياله إلى وطنه فيتحدث على طريقته :

شمسهم غادة عليها حجاب فهى شرقية حوتها الخدور

فانظر الى تشبيه شمس ايطاليا المستترة بالغمام بأنها « شرقية حوتها الخدور» ثم انظر الى شمسنا نحن فى شعره :

شمسنا غادة أبت أن توارى فهى غربية جلاها السفور

ولعله يقارن بين غادتين : غادة مصرية ، وأخرى ايطالية فى بيتيه هذين ، ثم ينتقل الى وصف جو ايطاليا وأبنائها الى جانب وصفه جو مصر وأبناء مصر :

جوهم فى تقلب واختلاف غير أن الثبات فيهم وفير
جونا أثبت الجواء ولكن ليس فينا على الثبات صبور

وهو فى هذين الوصفين يعانى من نفسه ألما ممضا ، اذ هو يسجل على بنى وطنه ماهم فيه من نعم ، وما هم عليه من قصور ..

ولديهم من الفنون لباب ولدينا من الفنون قشور

ويصيح صيحة المصلح الذى لايملك الا ارسال الكلام تنديدا بما احتواه نظام الوقف من عرقلة الاصلاح وتعويق الحياة :

أنكر الوقف شرعهم فلهذا كل ربع بأرضهم معمور
ليس فيها مستنقع أو جدار قد تداعى أو مسكن مهجور
كل شبر فيها عليه بناء مشمخر أو روضة أو غدير

فهل كان حافظ مهندسا قبل أن يكون شاعرا ، هل كان مصلحا قبل أن يكون ناظما ؟

لقد خرج حافظ من وطنه فى رحلة الى ايطاليا فلم ينس أنه قد بعد عنها للعودة اليها وفى جعبته مشروعات ، وهاهو يذيع نظراته فى التخطيط لهذه المشروعات الاصلاحية ، وهذه سمة الشعراء ورجال الأدب حينما يزاولون أمور الحياة لا يغمضون عيونهم وهم دائما ناصحون باذلون ·

وحين يدرس مجتمع ايطاليا فى رحلة يتحدث عن شئون حياتهم :

قسموا الوقت بين لهو وجد فى مدى اليوم قسمة لا تجور
كلهم كادح بكور الى الرز ق ولاه اذا دعاه السرور
لاترى فى الصباح لاعب نرد حوله للرهان جم غفير
لا ولا باهلا سليم النواحى للقهاوى رواحه والبكور
لم يحل بينهم وبين الملاهى أو شئون الحياة جو مطير
لا يبالون بالطبيعة حنت أم تجنت أم احتواها النور
قد أعدوا لحادثات الليالى عدة لا يحوزها التقدير

وبهذا الاسلوب الذى يشير فيه الى طبيعتنا نحن بجانب نهضات الشعوب يتحدث الشاعر :

نضروا الصخر فى رءوس الرواسى ولدينا فى مواطن الخصيب بور
قد وقفنا عند القديم وساروا حيث تسرى الى الكمال البدور

ويلفت نظره ويأخذ بلبه تلك النظافة التى تطالعه أينما سار :

ولع القوم بالنظافة حتى جن فيها غنيهم والفقير
فاذا سرت فى الطريق نهارا خلت أنى على المرايا أسير
أفرط القوم فى النظام وعندى أن فرط النظام أسر ونير

وما أعجب مايتراءى للناظر وهو يقرأ قوله فى ختام قصيدته :

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيها مسيطر أو أمير

وكم غـريق راح فى لجـــة يهوى بهـا الطـود فلا يظهر
وكم أســير بات فى أسره ونفســه من حسرة تقطــر

ثم يخاطب هواة الحروب ممن ضلوا دون النصر والظفر :

ان لم تروا فى الصلح خيرا لكم فالدهـر من أطماعكم أقصر
تســوءنا الحرب وان أصبحت تدعو رجـال الشرق أن يفخروا
أتى عــلى الشرقى حـين اذا ما ذكر الاحيـاء لا يذكـر
ومــر بالشرق زمـان ومـا يمر بالبـال ولا يخطــر
حتى أعـاد الصـفر أيامـه فانتصف الأسـود والأسمر
فرحمــة الله عـلى أمـة يروى لهـا التـاريخ ما يؤثر

رحمة الله على أمة .

ان الباحث المدقق ، والناقد البصير ليرى ، وهو ينقل بصره بين قصيد شاعرنا أن له خاصة تتصل به هو دون غيره ، وان تلك الخاصية تتبع هوى نفسه ومشاعره

ذلك الهوى ، وتلك المشاعر فى استشراف الغايات العلا التى يترقبها أمام التاريخ وتلك الحسرات التى يرجعها فى التلفت الى الماضى العزيز وهو فى ذهول بين الاحداث التى تمر به وتتابع عليه ، وفيها وطنه سليب الحرية، مهيض الجناح ، ما بين مخلب مستنسر وطعمه نهمان مسغوب •

ولا أدرى على التحديد لم اخترت هذه القصيدة لاقدمها للقارىء ، أهى الديباجة المشرقة أم الروعة فى الوصف ، أم براعة التصوير ، أم ذلك الروح المسيطر من تحليقات الشاعر فى تأريخ الحوادث وتسطيرها والتنفيس عن شاعريته وميوله وشرقيته ؟ بل وعروبته •

ولكننى أدرى لماذا عدت بعـــد أن استنفدت قراءة القصيدة لأتلوها على نفسى من جديد •

لقد أدركت مرمى الشاعر فى الأبيات الاخيرة منها وهو يلقي عليهـا بخاتمه ليطبعها بطابع حافظ •

ان ذلك الخاتم هو تلك الأبيات :

أتى عـــلى الشرقى حـــــين اذا ماذكر الأحيـــــــــاء لا يذكر

ومـــر بالشرق زمـــان ، ومـــا يمـــر بالبـــــال ، ولا يخطر

فرحمـــــــة الله عـــلى أمـــة يروى لهـــا التـــاريخ ما يؤثر

انها حسرته على (أمه) مصر ، وهو يندب حظها ويتحسر عليها ويذكر ماضيها ، وبهذا نعود فنسطر للقارىء عيون هذه القصيدة التى سجل فيها الشاعر حدثا من الأحداث العالمية : انها الحرب اليابانية الروسية ، ويفتتح بيانه المعجز فى قصيدته بقوله :

أســــاحة للحرب ، أم محشر ؟ ومورد المـــوت أم الـــكوثر ؟

وهـذه جنـــد أطـــاعوا هوى أربابهم ، أم نعـــم تنحـر ؟

ثم ينتقل الى أولئك الفلاظ القلوب الذين غرهم سلطانهم فأمعنوا فى اذلال البشر وفرض السيطرة عليهم :

لله ما أقسى قـــــلوب الألى ... قاموا بأمر الملـك واسـتأثروا !
وغرهم فى الدهر سـلطانهم ... فأمعنوا فى الارض واسـتعمروا
قد أقسـم البيض بصلبانهـم ... لا يهجـرون المـوت أو ينصروا
وأقسـم الصـفر بأوثانهـم ... لا يغمـدون السـيف أو يظفروا
فمـادت الارض بأوتادهـا ... حين التقى الأبيض والأصـفر

وبهذه السهولة فى اختيار اللفظ ، واليسر فى انتقاء العبارة ، والتأنق فى صياغة المعنى يخاطب حافظ الحرب :

أشبعت يا حرب ذئاب الفـلا ... وغصـت العقبـان والأنسر
ان كان هـذا الدب لاينثنى ... وذلك التنـين لا يقهـر
والبيض لا ترضى بخـذلانها ... والصـفر بعد اليوم لا تكسر
فمـا لتلك الحرب قد شـمرت ... عن ساقهـا حتى قضى العسكر ؟

وما أروع وصفه لتلك الموقعة الفاصلة التى كان مقرها (مكدن) وهى مدينة فى منشوريا لقد خسر الفريقان فى هذه الموقعة مائة وعشرين الف مقاتل ، وأسر اليابانيون من الروس أربعين ألفـا ، وقد غطت الدماء تلك المدينة حتى ظهرت وهى مغطاة بالدم وكأنها ياقوتة حمراء يغار منها الدر والجوهر .

سالت نفوس القوم فوق الظبـا ... فسالت البطحـاء والأنهـر
وأصبحت (مـكدن) ياقوتة ... يغـار منها الدر والجـوهر
ياقوتة قد قومت بينهـم ... بأنفس كالقطـر لا تحصر
أضحى رسول الموت ما بينهـا ... حـيران لا يدرى بمـا يؤمر
عزريل ! هل أبصرت فيما مضى ... وأنت ذاك الكيس الأمهـر
كذلك المدفع فى بطشـه ... اذا تعـالى صـوته المنـكر
تراه ان أوفى على مهجـة ... لا الدرع يثنيـه ، ولا المغفر

ثم يسترسل فى سكب عبراته على القتلى والجـرحى ومؤاساة الخلائق ممن دهتهم هذه الحرب وغشيتهم أحداثها :

فكم قتيـل بات فوق الثرى ... ينتـابه الأظفـور ، والمنسر !
وكم جـريح باسط كفـه ... يدعو أخـاه وهو لا يبصر

نظرات فى الديوان

فى النظر الى مطالع قصائد شاعرنا حافظ ابراهيم يجد القارىء فنونا شتى من العبقرية ، والنبوغ ، بالاضـــافة الى حسن الرواء ، والصبغة الادبية الاصيلة وقد تأتى لحافظ ابراهيم مالم يتأت لكثير من الشعراء الاعلام فى التوفق الى اختيار مطالـــع قصائده ، والقـــدرة الخارقة على ابتداع أفانين المزاهر وضروب الالحان التى توافق الحال .

وقد كان فيما يبهر نظرى حين أتلو القرآن الكريم وأردد بصرى فى قصار السور تلك التى نزل بها الروح الامين على قلب الرســـول الاعظم ، ليقرع بها المكذبين ، ويفحم بها المعاندين تلك المطالع الرائعـــة المعجزة التى تبدأ بها قصار السور فانك حين تقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : انا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ماليلة القدر .. » ويكون الله سبحانه قد فتح عليك بالعلم والتذوق وكنت ممن يفقهون أسرار اللغة بل لو كنت من ذوى الفطرة المستقيمة فحسب ، لادركت من فورك سمو هذا البيان . فتأخذك روعة الاعجاز

« انا أنزلناه فى ليلة القدر »

ففى الاســـتهلال المفخم باسناد الانزال الى الذات القدســـية ذات الخالق سبحانه ثم فى التعبير عن القرآن الكريم بالاشارة اليه بالضـــمير فى أنزلناه على أنه أمر مقرر وشىء معلوم ، واختيار لفظة القـــدر وهو الشأن العظيم . وفى هذا الايجاز المحيط بدقائق الحال مايخرس ألسنة شانئى الرسول الكريم ..

وكذلك اذا تأملنا فى قوله تعالى فى افتتاح سورة الكوثر .. « انا أعطيناك الكوثر » وفى قوله تعالى : « اذا زلزلت الارض زلزالها » فى أول سورة الزلزلة ، وفى قوله تعالى « تبت يدا أبى لهب وتب » فى أول سورة « أبو لهب » وفى بقية تلك السور التى نطالع فيها الاعجـــاز والايجاز مايمتع السامع ويأخذ بلبه ، وينطلق بأوضح برهان وأبلغ بيان بأن هذا الكتاب ، آيات الله المعجزات .

فاذا تأتى لشاعر من الشعراء بلاغة فى القول وقدرة على صوغ أبكار المعانى فى الاسلوب الطلى ، ثم كان لهذا الشاعر من القدرة والتوفيق فى اختيار مفاتيح القصائد بمثل ما ورد على لسان حافظ ، فانه حقى

بكل تقدير حقيق بكل اعتبار وتأمل ، وهو يحسن الاختيار فى افتتاح قصائده لأن جلها ان لم يكن كلها قد أذيع على الناس من منابر القول فى حفلات عامة ، فهو على دربه بمواطن التأثير فى السامع وهو يرى أنه شاعر شعبى يخاطب الجماهير ، فكيف تغيب فطنته عن اختيار ما يناسب الحال .

لقد كان حافظ موفقا ، كل التوفيق ، قادرا على صدق التعبير فى اختياره مطالع قصائده .

وحين تستمع الى مطالع هذه القصائد وقد عرف عنه أنه كان حاد الذكاء جهير الصوت قوى التأثيرفى السامع بحسن القائه ، بهذه الخصائص وبما أوتى من البيان تستطيع أن تضعه فى مكانه بين شعراء الخلود .

استمع معى الى مطلع قصيدة له وهو يتحدث على لسان يابانية فى معرض مناصحة بنى وطنه :

لا تلم كفى اذا السيف نبا   صح منى العزم والدهر أبى

ومطلع قصيدة أخرى فى رثاء الزعيم سعد زغلول :

ايه ياليل هل شهدت المصابا   كيف ينصب فى النفوس انصبابا

وقوله فى مطلع آخر على لسان مصر وهى تتحدث عن نفسها

وقف الخلق ينظرون جميعا   كيف ابنى قواعد المجد وحدى

وقوله فى وصف حرب :

أساحة للحرب أم محشر   ومورد الموت أم الكوثر

وفى استقبال العام الهجرى :

أطل على الأكوان ، والخلق تنظر   هلال رآه المسلمون فكبروا

وفى تحية الاسطول العثمانى :

بالذى أجراك ياريح الخزامى   بلغى البسفور عن مصر السلاما

وفى رثاء اسماعيل صبرى :

نعاك النعاة ، وحم القدر   ولم يغن عنا وعنك الحذر

ويؤبن محمد المويلحى :

دمعة من دموع عهد الشباب   كنت خبأتها ليوم المصاب

وفى مطلع قصيدة تربى على مائتى بيت وعلى عهد وزارة الوزير الشهير اسماعيل صدقى :

قد مر عام يا سعاد ، وعام   وابن الكنانه فى حماه يضام

وفى مطلع قصيدة يستقبل بها شوقى وقد عاد من منفاه :

بنات الشعر بالنفحات جودى فهذا يوم شاعرك المجيد

وقوله :

ما لهذا النجم فى السحر قدسها من شدة السهر

وقوله :

أبكى وعين الشرق تبكى معى على الاريب الكاتب الالمعى

وقوله فى مطالعة الهلال :

لى فيك حين بدا سناك وأشرقا أمل سألت الله أن يتحققا

وهى كما يرى القارىء مطالع قصائد ترشد الى الموضوع وتومى الى الهدف وتأخذ بمشاعر المستمع فيحس بقيمة الشاعر وقدرته ، وتفرض عليه متابعته والاستمتاع ببيانه الساحر

قضى الامر كله فى ثوان ..

وفى وصف زلزال مسينا عام ١٩٠٨ م .

ما لمسين عوجلت فى صباها ودعاها من الردى داعيان

ومحت تلكم المحاسن منها حين تمت آياتها آيتان

خسفت ثم أغرقت ثم بادت قضى الامر كله فى ثوانى

فهنا الموت أسود اللون جون وهنا الموت أحمر اللون قانى

ثم يصف ما يتعرض له الطفل ، والفتاة ، وذهول الابوة فى تلك المشاهد المروعة ..

رب طفل قد ساخ فى باطن الار ض ينادى : أمى أبى أدركانى

وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ ر تعانى من حره ما تعانى

وأب ذاهل الى النار يمشى مستميتا تمتد منه اليدان

باحثا عن بناته وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان

تأكل النار منه لاهو ناج من لظاها ولا اللظى عنه وانى

غصت الأرض أتخم البحر مما طوياه من هذه الأبدان

ويستفيض فى عرض صور من أبشع مايتصور الفكر فى تلك المرائى المثيرة المذهلة :

لا رعى الله ساكن القمم الشـ م ولا حاط ساكن القيعان
قد أغارا على أكف براها باريء الكائنات للاتقان
كيف لم يرحما أناملها الغـ ر ولم يرفقا بتلك البنان ؟
لهف نفسى والف لهف عليها من أكف كانت صناع الزمان
مولعات بصيد كل جميل ناصبات حبائل الالوان
جاءها الأمر والسراة عكوف شائدات روائع البنيان

الى أن يقول من روائع وصفه وهو يخاطب تلك المدينة التاريخية بقوله :

ايه (مسين) آنسى اليوم «بمبيى» فقد أوحشت بذاك المكان
أنسى الدرة التى كانت الحلـ ية فى تاج دولة الرومان
غالها قبلك الزمان اغتيالا وهى تلهو فى غبطة وامان
جاءها الامر والسراة عكوف فى الملاهى على غناء القيان
فانطووا كانطواء أهلك بالامـ س وزالت بشاشة العمران

الى معشر الكتاب

وينعى حظ العربية بين أهلها ويوجه خطابه فى آخرها الى معشر الكتاب :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتى
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
أيهجرنى قومى ـ عفا الله عنهم الى لغة لم تتصل برواة ؟
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعى فى مسيل فرات
الى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
فاما حياة تبعث الميت فى البلى وتنبت فى تلك الرموس رفاتى
واما ممات لا قيامة بعده ممات لعمرى لم يقس بممات

ويقول مشيرا الى الكفايات المعوقة ، والقوى البشرية المعطلة :

ان فينا لولا التخاذل أبطا لا اذا ماهم استقلوا اليراعا

وعقـــولا لولا الخمـــول تولا ... ها لفاضت غرابة وابتـــداعا
ودعاة للخير لو أنصفوهـــم ... ملأوا الشرق عزة وامتنـــاعا

ويقول وهو يتمنى ، وان كانت اليوم قد تحققت أمانيه وأحلامه :

ليت شعرى متى تنـــازع مصر ... غيرها المجد فى الحياة نزاعـــا

وقوله من قصيدة أخرى موجها خطابه الى الشباب متطلعا الى الغـد المأمول متصفحا فيه وثباتهم :

فياأيها الناشـــئون اعمـــلوا ... على خـير مصر ، وكونوا يـــدا
ستظهر فيـــكم ذوات الغيـــوب ... رجـالا تـكون لمصر الفـــدا
فياليت شـــعرى من منـــكم ... اذا هى نادت يلبى النـــدا ؟

وقوله فى التعبير عن أواصر الصلات بين أبناء العروبة :

لمصر أم لربوع الشـــام تنتسب ... هنا العلا وهنـــاك المجد والحسب
أم اللغات غداة الفخر أمهمـــا ... وان ســـألت عن الآباء فالعرب
أيرغبان عن الحســـنى وبينهما ... فى رائعات المعـــالى ذلك النسب؟
اذا ألمت بوادى النيـــل نازلة ... باتت لها راسيات الشام تضطرب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة الا الشام عـــاج على ... ربوعها من بنيها ســـادة نجب

ومما نطرف به القارىء فى ثوبه وحذائه :

لى كساء أنعم به من كســـاء ... أنا فيـــه أتيـــه مثـــل الكسائى
حاكه العز من خيـــوط المعـــالى ... وســـقاه النعيـــم ماء الصفـــاء
خـــــاطه ربـــه بابرة يمن ... أو جروا سمها خيوط الهنـــاء
يا ردائى ، وأنت خـــير رداء ... أرتجيـــه لزينة وازدهاء
غفلت عنـــك للبـــلى نظرات ... وتخطتـــك ابرة الرفـــاء
صحبتنى قبل اصطحـــابك دهرا ... بـــذلة فى تلون الحـــرباء
كسف الدهر لونها واستعارت ... لون وجه الكذوب عند اللقـــاء

واستمع اليه يتحدث عن الشمس :

لاح منهـــا حاجب للنـــاظرين ... فنســـوا بالليـــل وضاح الجبين

هى أم الارض فى نسبتهـــــــا   هى أم الكون والـكون جنـــين

هى أم النـــار والنور معـــــا   هى أم الريح والمـــاء المعـــين

هى طلع الروض نـــورا وجنى   هى نشر الورد طيب اليـــاسمين

انما الشـــمس وما فى آيهـــا   من معـــان لمعت للعـــارفين

حكمـــة بالغـــة قـــد مثلت   قـــدرة الله لقـــوم عاقلين

أبرىء عنه يعفو مذنب ؟؟

وحين ننتقي من جوهر شعره ودر قريضه ذلك النسيج الرفيع وهو يتحدث عن الشاعر الفرنسي «فيكتور هوجو» صاحب كتاب البؤساء الذى قام بنقله الى العربية شاعرنا حافظ ابراهيم ، نسوق للقارىء لوحة خصبة بأفانين الخيال والامتاع :

أعجمى كاد يعلو نجمه — فى سماء الشعر نجم العربى
صافح العلياء فيها والتقى — «بالمعرى» فوق هام الشهب
ما ثغور الزهر - فى أكمامها — ضاحكات من بكاء السحب
نظم الوسمى فيها لؤلؤا — كثنايا الغيد أو كالحبب
عند من يقضى - بأبهى منظرا — من معانيه التى تلعب بى
بسمت للذهن فاستهوت نهى — مغرم الفضل ، وصب الأدب
وجلتها حكمة بالغة — أعجزت أطواق أهل المغرب
سائلوا الطير اذا ما هاجكم — شدوها بين الهوى والطرب
هل تغنت أو أرنت بسوى — شعر (هوغو) بعد عهد الغرب
عاف فى منفاه أن يدنو به — عفو ذاك القاهر المغتصب
بشروه بالتدانى ونسوا — انه ذاك العصامى الأبى
كتب المنفى سطرا للذى — جاءه بالعفو ، فاقرأ واعجب
أبرىء عنه يعفو مذنب ؟ — كيف تسدى العفو كف المذنب
جاء والاحلام فى أصفادها — مالها فى سجنها من مذهب
طبع الظلم على أقفالها — بلظاه خاتما من رهب
جاءها (هوغو) بعزم دونه — عزة التاج ، وزهو الموكب
وانبرى يصدع من أغلالها — باليراع الحر لا بالقضب
هاله ألا يراها حرة — تمتطى فى البحث متن الكوكب
ساءه ألا يرى فى قومه — سيرة الاسلام فى عهد النبى
قلت عن نفسك قولا صادقا — لم تشبه شائبات الكذب
أنا كالمنجم تبر وثرى — فاطرحوا تربى ، وصونوا ذهبى

هجعت ياطير ولم أهجع ..

ومن أعذب شعره مدحته تلك التى كتب بها الى محمد بن ابراهيم ابن هلال وهو من الشعراء والكتاب الاعلام :

هجعت يا طـير ولم أهجـع ... ما أنت الا عاشق مـدعى
لو كنت ممن يعرفون الجـوى ... قضيت هـذا الليـل سهدا معى
يا من تحاميتم سـبيل الهـوى ... أعيـذكم من قلق المضـجع
وحسرة فى النفس لو قسـمت ... على ذوات الطوق لم تسـجع
ويابنى الشـوق وأهـل الأسى ... ومن قضـوا فى هـذه الأربع
عليكم من واجـد مغـرم ... تحيـة الموجـع للمـوجع

ويسترسل شاعرنا فى وصف الصبوات واللواعج :

لله ما أقسى فـؤاد الـدجى ... على فؤاد العـاشق المـولع
هـذا غليظ لم يرضـه الهوى ... ما بين جنبى أسـود أسـفع
وذاك فى جنبى فتى مـدنف ... على سـوى الرقة لم يطبـع

ويجيد الوصف حين يعرض للوجدانيات فى قوله :

وأغيـد أسـكنته فى الحشـا ... وقلت : يانفسى به فاقنعى
نفـاره أسرع من خـاطرى ... وصـده أقرب من مـدمعى
وخـده لا تنطفى ناره ... كأنمـا يقبس من أضلع
تساءلت عنى نجـوم الـدجى ... لمـا رأتنى دانى المصرع
قالت نرى فى الارض ذا لوعـة ... قد بات بين اليـأس والمطمـع
يئن كالمفئـود أو كالذى ... أصـابه سهم ، ولم ينزع
أن كان فى بدر الدجى هائمـا ... أما لهـذا البـدر من مطلع
أو كان فى ظبى الحمى مغـرما ... أما لهـذا الظبى من مرتع

ثم ينتقل الى ذكر صاحبه مشيرا الى مناقبه ومحامده :

هيهـات يا أنجـم أن تعلمى ... مثـير أشـجانى أو تطمعى
انى لضنـان بذكر اسـمه ... ضنى بود الـكاتب الألمعى
صحبتـه دهـرا فألفيتـه ... فتى كريـم الأصـل والمنزع
مـودة كالخمـر ان عتقت ... جادت ، وفضل باسـم المشرع
وعـزمة لو قسـمت فى الورى ... باتوا من الشـعرى على مسـمع

وفى لوحة أخرى يسطر الشاعر أوضاح الطبيعة ولهوات القلوب فيها ..

ويتحدث فى التعبير عن الاثر الذى تركته بنفسه زيارة نادىالالعاب الرياضية وذلك فى ليلة أحياها النادى ، وأنشد فيها الشاعر قصيدته التى مطلعها :

بنادى الجزيرة قف ســـاعة ... وشاهد بربك ما قد حـــوى
ترى جنـــة من جنـــان الربيع ... تبدت مع الخـلد فى مســتوى
فقـــل للحزين ، وقل للعليـل ... وقل للملول : هنــــاك الدوا
وقل للأديب : ابتـــدر ساحهـــا ... اذا ما البيـــان عليك التوى
وقل للمكب على درســـه ... اذا نهـك الدرس منـك القوى
تنسم صباحا تجـــدد قـــواك ... فأرض الجـزيرة لا تجتـــوى

ويصفها فى يوم قائظ لافح حره وقد نزل منها منزلا طيبا قرت به عينه وطابت نفسه فراح ينعى على أولئك اللاهين الغافلين ممن يمضـون أوقاتهم ويقتلونها فى المقاهى والحانات .

ويارب يوم شـــــديد اللظى ... به الشـمس نزاعـــة للشـــوى
به الريح لفـــاحة للوجـــوه ... روى عن جهنـــم ما قد روى
قصدت الجزيرة أبغى النجـــاة ... وجسمى شواه اللظى فاشــتوى
فألفيت ناديهـــــــا زاهرا ... وألفيت ثم نعيمـــــــا ثوى
فأنزلنى منــــزلا طيبـــا ... وروى فـؤادى حتى ارتـــوى

الى أن يقول ينكر على قومه مسلكهم فى قضـــاء أوقات الفراغ فى غير طائل :

فما بال قومى لا يأخـــــذون ... لتلك الجنـــان طريقـــا سوى
ومـــــا بال قـــومى لا ينزلون ... بغير « جروبى » وبار اللـــوا
تراهم على نردهـــم عكفــــا ... يبـــادر كل الى ما غــــوى
ولو أنصفوا الجسم لاســـتظهروا ... له بالمـــران وطيب الهـــوا

ويناغى ذلك النادى بما حفلت به لياليه وما أشجى نفسه فيه رافعا صوته بالدعوة الى غشيانه والدعاية له .. فى أبياته :

فيانادبا ضـــم أنس النـــديم ... ولهو الـــكريم وقيت البـــلى
لياليك أنس جـــلاها الصفاء ... فأسرت اليـــك وفود المــــلا
فكم ليلة طـــاب فيك الحـــديث ... فكان الكئوس وكان الطـــلا

فمن مشجيـــات الى مطـــربات الى مضـحكات تسـلى الى ٠٠

وقد زان لهــوك ثوب الوقــار فلهوك فى كل ذوق حـــــلا

ويفيض فى الوصف ويغرق فى الدعاية ويرى رأيه فى أن هذا هو مقام النعيم ومنزله والا ٠٠ فلا ٠

فقل للذى بات تحت العقـــود بحـرب على نفســـه مبتـلى

أتلك الأمـــاكن لا تستراد ؟ أتلك المنـــاظر لا تجتـلى ؟

أتحت الســماء وبدر الســماء وبين الرياض ، وبين الخـــلا

يمل الجلوس ويفنى الحـديث فهـــذا النعيـــم والا فـــلا

مكان لعمــرك ما حـــل فى نواحيـــه ذو الحزن الا ســـلا

فما أنت فى مصر ٠٠

ولله در الشاعر وهو يشيد بمكانة هذا الندى فيجذب اليه القلوب المتشوفة بقوله :

فمـــا أنت فى مصر ان لم تطر اليه فتشــــهد تلك الحـــلى

وتحضرنى فى هذا المقام طرفة أدبية أرى أن يشاركنى فيها القارىء وقد كان من دواعى ذكرها بيت شاعرنا ذاك الذى يذكر فيه ، أنك لست من مصر ان لم تشاهد تلك المغانى فى قوله :

فمـــا أنت من مصر ان لم تطر اليه فتشـــهد تلك الحـــلى

ففى متحف المنيل (قصر المنيل) الذى تقوم عليه وزارة الثقـــافة والارشاد القومى ، والذى كان يسكنه «الأمير محمد على» يرى الزائر فى احدى الأبهاء الداخلية لافتة اهتم صاحب القصر بابرازها لتكون فى مواجهة الزائر الكريم ، وهى طرفة من الشعر جاءت على شكل قصيدة نمقت فى اطار بديع تقرأ فيها حين تطالعها متأملا :

اذا كنت فى مصر ولم تك ساكنا على نيلها الجارى، فما أنت فى مصر

وان كنت فى مصر بشاطىء نيلها ومالك من شىء فما أنت فى مصر

وان كنت ذا شىء ولم تك صاحبا لالف له لطف ، فما أنت فى مصر

وان كنت ذا الفـولم تك مالـــكا لكيس حوى ألفا ، فما أنت فى مصر

وان حزت ماقلنا ، ولم تك هائما تميل لمن تهوى فما أنت فى مصر

وهى لوحة تعبر عن افتنان صاحب القصر بهذا البذخ وتعشق الفن ومنازع الصبوات الذى يطيب ويلذ لمن انصرف عن جادة الحياة واستهوته زخارفها وزينتها ــ كتبت بخط الفنان الكبير سيد ابراهيم ولكننى لم أهتد الى الشاعر الذى صاغها ٠

وقوله فى معرض المناصحه :

قل له : جــــل من له الملك لا ... ملك لغـــــير المهيمن المعبـــــود

وقوله :

قد تولى محمــد الخـــامس المــــ ... ـــلك فأعظم بتـــاجه المعقـــود

طأطئى للجـــلال يا أمـــم الأر ... ض سجودا ، هذا مقام السجود

ويقول :

ثلاثة آســـــــاد يجانبها الردى ... وان هى لاقاها الردى لا تجانبـــه

يصارعها صرف المنـــون فتلتقى ... مخالبها فيه ، وتنبو مخالبـــــه

وقوله :

صوالجـــــه ســـمر القنـــا وكراته ... رءوس الأعادى والحصون ملاعبـــه

وقوله :

تزن الـــــــكلام كأنه ... ماس بميزان التجـــــار

وتصـــــــون معنى ربه ... صون اللآلىء فى المحـــار

وقوله ويعنى «الاستاذ احمد لطفى السيد» :

انى قرأت كتـــــــابه ... بين الخشوع والاعتبـــار

فاذا المترجـــم مـاثـــل ... جنب المؤلف فى اطـــار

وعليهـــــــا نور يفيض ... من المهـــــابة والوقار

وقوله فى مدحه :

لم يجر فى ناديك هجـ ... ـــر القول أو خلع العذار

حلو التواضع والتـــوا ... ضع آية القوم الخيـــار

مر التـــــكبر حين يد ... عوك التواضع للصـــغار

ويصف يراعة شوقى :

براها له البارى فلم ينب سنهـــا ... اذا مانبا العسال عن كف أروع

لديها وفود اللفظ تنساق خلفها ... وفود المعانى خشعا عند خشـــع

اذا رضيت جاءت بأنفاس روضة ... وان غضبت جاءت بنكبـــاء زعزع

على سنها رفق يسيل ورحمـــــة ... وروح لمن يأسى ، وذكرى لمن يعى

تطير بروق الفــكر خلف بروقهـــا ... تناشــــــــدها بالله لاتتسرعى

تحاول فوت الفــكر لو لم تكفها ... أنامـــله كف الجمـــوح المروع

وقوله :

فان كنت قوالا كريما مقــــاله فقل فى سبيل النيل والشرق أودع

وفي وصف مغاني لبنان وجناتها :

إذا تأملت فى صنع الاله بهـــا لم تلق فى وشيه صنعا لانسـان

فى سهلها وأعاليها وسلسلهــا برء العليل وسلوى العاشق العانى

وفى تضوع أنفاس الرياض بهـا روح لكل حزين القلب أسـوان

وفي صاحبه (محمد المويلحى) يصف قلمه :

تأوى الظبـــاء اليه وهى أوانس وتحيد عنه الأسد وهى ضـوارى

وقوله فى تهنئة المقتطف بعيده الخمسينى :

فى كل لفظ حكمـــة مجــــلوة وبكل ســــطر مهبط لصواب

فاللفظ فيـــه مقوم بصحيفـــة والسطر فيه مقـــوم بكتـــاب

وقوله :

العلم فى البأساء مزنة رحمـــــة والجهل فى النعماء سوط عذاب

وقوله فيما يصاب به الشيوخ من اضطراب فى الاعصاب وهو يعلل ذلك في مقام المديح والاطراء :

لاحت برأسك هزة ولعلهـــــا من وقع فكرك لا من الاعصـــاب

فكر سريـــع كره متـــــدفع كتدفع الأمواج فوق عبــــاب

وقوله :

يا ســـاكن البيت الزجـــــا ج هبلت لا ترم الحصــــونا

أرأيت قبلـــــك عـــاريا يبغى نزال الـدار عينـــــا ؟

وقوله :

كاد الزمان لنــــا ولا عجب اذا كاد الغريـــم

وقوله :

فشرابك المــــاء آلشـنا ن وشربى آلمـــاء الحميم

وقوله :

قــــرمت والله حتي صاحت عصـــافير بطنى

وقوله :

وافى كتـــابك يزدرى بالدر أو بالجوهـــــر

فقرأت فيه رسالة مزجت بذوب السكر
معنى ألذ من الشما تة بالعدو المدبر

ومن دعاباته لصديق له :

غفرانك اللهم انى من ظلامته برى
سويته كالكركدن وجاءنا كالأخدرى
وجه ولا وجه الخطو ب وقامة لم تشبر
ومن العجائب أن مثـ ل لسانه لم يبتر
ولقد عجبت لبخله ولكفه المتحجر
لا يصرف السحتوت الا وهو غير مخير

وقوله :

فرحت وفى نفسى من اليأس صارم وعدت وفى صدرى من الحلم مصحف

وبيته :

شاب فيهم ولاؤهم حين شابوا وولائى فى عنفوان الشباب

وبيته :

هجعت يا طير ولم أهجع ما أنت الا عاشق مدعى

وبيتاه :

وأغيد أسكنته فى الحشا وقلت : ! يانفس به فاقنعى
نفاره أسرع من خاطرى وصده أقرب من مدمعى

وبيته على لسان (هوغو) :

أنا كالمنجم تبر وثرى فاطرحوا تربى وصونوا ذهبى

وبيته :

انما الشام والكنانة صنوا ن برغم الخطوب عاشا لزاما

وبيته :

ولوع بتصوير الطباع فلم يجز بعاطفة الا حسبناه يرسم

وبيته :

من العناية قد ريشت قوادمها ومن صميم التقى ريشت خوافيها

وبيته :

يرمى الأعادى بآراء مسددة وبالفوارس قد سالت مذاكيها

غزل . !

وما أنا والغرام وشـــاب رأسى   وغال شـــبابى الخطب الجسام
لعمـــرك ما أرقت لغـــير مصر   ومـــالى دونها أمــــل يرام
ذكرت جـــلالها أيام كانت   تصـــول بها الفراعنة العظـــام
وأيام الرجـــال بهـــا رجـــال   وأيام الزمـــان لهـــا غـــلام
فأقلق مضـــجعى ما بات فيهـــا   وباتت مصر فيـــه فهل ألام ؟

حافظ ابراهيم

ملامح من شخصية الشاعر

وحين يتجول النظر فى ديوان حافظ يقف على سمات عامة يتضح منها جوانب من شخصية الشاعر ، وهو اذ يعبر فى بيانه المنظوم عن هذه الجوانب من شخصيته فانما يجلى للمتأمل ما انطوت عليه نفسه ، وما تأثر به ، والانطباعات التى لاتكاد تفارق تلك السمات والملامح ، وتراه فى مدحه ، وهجائه وشوقه وحنينه ، وفى همته وشجاعته ، ونوازع آرائه لا يكاد يستطيع أن يتخلى عن هذه السمات وتلك الملامح التى هى جزء من كيانه .

استمع اليه وهو يهنىء صديقا له بقوله :

ياهماما فى آلزمـــان له   همـــة دقت عن الفطن
وفتى لو حـــل خاطره   فى ليـالى الدهر لم تخن

لاينسى أن يعبر عن آلامه بقوله :

يالقومى اننى رجـــل   حرت فى أمرى، وفى زمنى
أجفـــاء أشتكى وشـــقا   ان هـــذا منتهى المحن

وحين يمتدح الامام الشيخ محمد عبده بقوله :

انى لأبصر فى أثنـــــاء بردته   نورا به تهتدى للحق ضـــلال

لاينسى أن يسجل خفقات قلبه التى تنم عن حاله وقد ضاقت به الحال:

يا من تيمنت الفتيـــا بطلعتـــه   أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال

ودمعة الشاعر يسفحها عبرة حزن وأسف فى تجلده الظـــاهر وهو مغترب عن مصره الى قطر شقيق فى مقالته :

ولى الشباب وجازتنى فتـــوته   وهدم آلسقم بعـد السقم أركانى
وقد وقفت على الستين أســـالها   أسوفت أم أعدت حر أكفـــانى
شـــاهدت مصرع أترابى فبشرنى   بضجعة عندها روحى وريحـــانى
كم من قريب نأى عنى فـــأوجعنى   وكم عزيز مضى قبـــلى فأبكانى
انى مللت وقـــوفى كـل آونة   أبكى وأنظم أحـــزانا بأحزان

تنم عن بالغ الألم الذى يشير اليه فى أن المتصفح لديوانه يرى أن نصفه شعر مراث وأحزان :

اذا تصفحت ديـــوانى لتقـــرأنى   وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

وما آلم بيتيه وهو يذيع وجعه وحاجته الى الراحة والاستشفاء فى مخاطبة لبنان :

أتيت مستشفيا والشوق يدفع بى الى رباكم وعودى غير فينان
فأنزلونى مكانا أستجم به وينجلى عن فؤادى برح أحزانى

ويشكو ويذيع شكواه فيما يبثه صديقه

أشقى وأكتم شقوتى والله بى وبها عليم
لا مصر تنصفنى ولا أنا عن مودتها أريم
واذا تحول بائس عن ربعها فأنا المقيم

وهو فى بؤسه يعلن تمنياته وحاجة نفسه الى الترويح عنها والعيش الهنىء بين مشتى ومصطاف ، استمع اليه فى احدى قصائده :

ياليتنى كنت من دنياى فى دعة قلبى جميع ، وأمرى طوع وجدانى
أقضى المصيف بلبنان على شرف ولا أحول عن المشتى بحلوان

وتسمع الى أنته فى غربته وهو بالسودان يندب حظه النكد :

جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليك جنى أبى فدعى عتابى
فلولا أنهم وأدوا بيانى بلغت بك المنى وشفيت مابى

وفيها يقول :

وما أعذرت حتى كان نعلى دما ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبدا صبيغا بعد ما دبغت اهابى
وحتى قلم الاملاق ظفرى وحتى حطم المقدار نابى

وحين يكتب اليه الهراوى الشاعر أبياتا يسأله عن مقامه وحاله يرد عليه حافظ :

انا فى الجيزة ثاو ليس لى فيها أنيس
أنكر الأنس مكانى ونأى عنى الجلوس
ليس يدرى من رآنى أطليق أم حبيس

ويعود فيكتب الى أصدقائه وهو فى السودان :

من واجد منفر المنام
طريد دهر جائر الأحكام
مشتت الشمل على الدوام

ملازم للهـــم والسـقام

اليـــــكم يانزهة الأنام

هذا هو حافظ يشكو بؤسه ويبكي دهره وشتات شمله ، وهولايدرى خبىء الايام ترصد له من طيب الثناء ونباهة الذكر ماتراه معى أيهـــا القارىء ونحن نتقصى أخباره ونقدر أمره وشأنه ،

واذ نسير معه فى طريقه هذا شوطا وهو فى أســـاه نطالع ماكتبه وهو مريض :

مرضنـــا فمـــا عادنا عائـــد ولا قيـــــل أين الفتى الألمعى

ولا حن طـــرس الى كـــاتب ولا خف لفظ على مســـــمع

وينعى على دولة الأدب جفاءها وسوء تقديرها فيرميها بما هى أهـل له ولعل الله قد استجاب دعاءه على أيامنا فأصابت لعنته حمـــاة القريض بصفة خاصة فكان ذلك الشعر «السايب» !

فيـــــــادولة آذنت بالزوال رجعنا لعهـــــد الهوى فارجعى

ولا تحسبينا ســـلونا النسيب وبين الضـــــــلوع فؤاد يعى

وفى ادكار أيام شبابه يسجل ظواهر هذه الفترة من حياته :

أهفو اليـــه على ما أقرحت كبدى من التباريح أولاه ، وأخـــراه

لبســـــته ودمـوع العـين طيعة والنفس جيـــاشة والقلب أواه

فـكان عونى على وجـــــد أكابده ومر عيش على العـلات القاه

ويشير الى دمعه الذى كم روح عن نفسه وغسل حنايا قلبه :

كم روح الدمع عن عينى وكم غسلت منه السوابق حزنا فى حنـاياه

ويذكر لهو الصبا يبكيه ويبكى معه شبابه وما أوفى عليه من أياب المشيب :

قالوا تحررت من قيد الملاح فعش حرا ففى الأسر ذل كنت تأبـــاه

فقلت : يا ليته دامت صرامتـــه ما كان أرفقه عندى ، وأحنـــاه

بدلت منه بقيـــد لست أفلتـــه وكيف أفلت قيدا صاغـــــه الله

ويقارن بين أسرى الهوى ، وأسرى المشيب فيبدع ويرقم بقلم الخيال والبيان على صفحات الاعجاز تلك الصورة :

أسرى الصبابة أحياء وان جهدوا أما المشيب ففى الأمـوات أسراه

عبرات الشاعر

واذا كان نصف ديوان الشاعر قصائد انشدها فى رثاء احبابه وخلانه وعارفيه كما أشار الى ذلك بقوله وهو فى سن الستين يترقب لقاء الموت :

وقد وقفت على الستين أسـألها — أسوفت أم أعدت حـــر أكفانى
كم من قريب نأى عنى فـأوجعنى — وكم عزيز مضى قبـــلى فأبكانى
انى مللت وقوفى كـــل آونة — أبكى وأنظم احـــزانا بأحزان

الى أن يقول :

اذا تصفحت ديـــوانى لتقرأنى — وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

كان لابد من وقوفنـــا مع مراثيه وتتبع تلك العبرات التى شغلت نصف ديوان الشاعر وأرقت وتره وهزت مشاعره ·

ولسنا بمقام تعليل الأسباب التى أدت الى أن يكون نصف فنه فى المراثى ، فما يعنى الأدب ذلك فى شىء ، وان رده اخوانه وصحابته الى حياته الحزينة ، وكثرة معارفه وصفاء نفسه ووفائه ، وما كان عليه ذلك العصر من أن عادة رثاء الفقيد كانت متبعة فى الأغلب الأعم ·

وعندى أن الذى يمكن أن نخوض فيه هو تلك العبرات التى استهلها فى رثاء أصدقاء حياته وصحبته · وممن ألف العيش فى أمنافهم والتقى بهم وعاصروه وألفوه وهم ممن قادوا الحرمة الوطنية معه ، واضطلع معهـم بدوره فى النضال ·

ان عبرات الشاعر فى مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول والبارودى ، ومحمد عبده ، وحفنى ناصف ، وغيرهم ·· وغيرهم ·· من هذه الطبقة التى كان لها القيادة على عصر حافظ كانت ألما يعصر قلبـه ووفاء يفيض من روحه :

استمع اليه يرثى البارودى فى قصيدة يستهلها بقوله :

ردوا عـلى بيـانى بعد «محمود» — انى عييت وأعيا الشعر مجهـودى

يقول :

لبيك يا شاعرا ضن الزمـان به — على النهى والقوافى والأناشـــيد
تجرى السلاسـة فى أثناء منطقه — تحت الفصاحة جرى الماء فى العود
فى كل بيت له مـــاء يرف بـــه — يغار من ذكره ماء العناقيـــــد

لو حنطوك بشعر أنت قائله غنيت عن نفحات المسك والعود

ويحلق بخياله فى تكريم الفقيد

أقول للملأ الغادى بموكبه والناس ما بين مكبود ومفئود

غضوا العيون فان الروح يصحبكم مع الملائك تكريما « لمحمود »

وتبلغ به الاجادة ذروتها فى التعبير عن صدى الحزن فى نفسه وهو يرثى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فيبلغ به الوفاء ذروته وهو يخشى طول الحياة بعده :

لقد كنت اخشى عادى الموت قبله فاصبحت أخشى أن تطول حياتى

ويذكر حسناته :

أبنت لنا التنزيل حكما وحكمة وفرقت بين النور والظلمات

ويقول :

بكى الشرق فاهتزت له الارض رجة وضاقت عيون الكون بالعبرات

ففى الهند محزون وفى الصين جازع وفى مصر باك دائم الحسرات

وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب وفى تونس ماشئت من زفرات

ويذكره مصلحا موجها :

فياويح للشورى اذا جد جدها وطاشت بها الآراء مشتجرات

وياويح للفتيا اذا قيل من لها وياويح للخيرات والصدقات

لقد كنت مقصود الجوانب آهلا تطوف بك الآمال مبتهلات

مثابة أرزاق ، ومهبط حكمة ومطلع أنوار وكنز عظات

ويبكى مصطفى كامل فيخاطب قبره :

أيا قبر لو أنا فقدناه وحده لكان التأسى من جوى الحزن شافيا

ولكن فقدنا كل شىء بفقده وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا

ويبكيه فى حفل الاربعين بقوله :

غادرتنا والحادثات بمرصد والعيش عيش مذلة واسار

ماكان أحوجنا اليك اذا عدا عاد ، وصاح الصائحون بدار

قم وامح ما خطت يمين كرومر جهلا بدين الواحد القهار

ويصح حجاجه وبيانه فى الدفاع عن وطنه :

لعبت يمينك باليراع فأعجزت لعب الفوارس بالقنا الخطار

وجريت للعلياء تبغى شأوها فجرى القضاء وأنت فى المضمار

أو كلمـــا هز الرجــاء مهنــدا   بدزت اليه غـــوائل الاقـــدار

ويصف يوم الفجيعة فيه :

شـــاهدت يوم الحشر يوم وفاته   وعلمت منه مراتب الأقـــدار
ورأيت كيف تفى الشعوب رجالها   حق الولاء وواجب الاكبـار
تسعون ألفا حول نعشك خشـع   يمشون تحت لوائك الســيار
خطوا بأدمعهم على وجــه الثرى   للحـــزن أسطارا على أسـطار

ويشير الى قصر عمره مع ما أنجز فيه من جلائل الأعمال بقوله :ـ

ان الثـــلاثين التى بك فاخرت   باتت تقاس بأطول الأعمـــار
ضمت الى التاريخ بضع صحائف   بيضـــاء مثل صحائف الابرار

ويشير الى كفاحه :

مازلت تختار المواقف وعـــرة   حتى وقفت لذلك الجبـــار
وهدمت سورا قد أجاد بنــاءه   فرعون ذو الأوتاد والأنهـــار

ويبكى قاسم أمين :

شغلتك عن دنياك أربعـــة   والمرء من دنيـــاه فى شـــغل
حق تنـــاصره ومفخـــرة   تمشى اليها غير منتحـــل
وحقـــائق للعـلم تنشـــدها   ما للحـــكيم بهن من قبـــل
وفضـــيلة أعيت ســواك فلم   تمـــدد اليه يدا ولم تصـــل

وتشير الى رأيه فى السفور والحجاب :

ان ريت رأيك فى الحجـاب ولم   تعصم فتلك مراتب الرســـل
الحـــكم للأيام مرجعـــه   فيما رأيت فنم ولا تســـل

ويخاطبه ويذكر فى مضمون خطابه الامام الراحل :

قـــل للامـــام اذا التقيت به   فى الجنتـــين بأكرم النزل
ان الحقيقـــة أصبحت هـــدفا   للراكبـــين مـــراكب الزلل

ويبكى الشيخ على يوسف فيقول :

أودى فتى الشرق بل شيخ الصحافة بل   شيخ الوفائية الوضـــاحة الحسب
أقام فينـــا عصاميا فعلمنـــا   معنى الثبات ومعنى الجد والدأب
قالوا : عجبنـــا لمصر يوم مصرعه   وقد عجبت لهم من ذلك العجب
ان الالى حسبوها غـــير جازعـــة   لاينظرون الى الاشـــياء عن كثب

ويشير الى حال المؤيد بعد موت عميده :

كم أرجفوا بعد موت الشيخ وارتقبوا ... موت المؤيد فينـــــا شر مرتقب
وان يمت تمت الآمـــال فى بلد ... لولا المؤيد لم ينشـــط الى طلب
صبابة من رجـــاء بين أضلعنـــا ... قد بات يرشف منها كل مغتصب
لولا (المؤيد) ظـــل المسلمون على ... تناكر بينهم فى ظلمـــة الحجب

ويرثى الشيخ سليم البشرى :

اشـــيخ المسلمين نأيت عنــــا ... عظيــــم الاجر موفور الثواب
اذا ألقى السؤال عليـــك ملق ... تصـــدى عنك برك للجـــواب
ونادى العدل والاحســـان انا ... نزكى ما يقـــول ولا نحـــابى

أما فجيعته وعبراته فى الزعيم محمد فريد فاستمع اليـــه يخاطب النيل :

أيهـــا النيل لقـــد جـــل الأسى ... كن مدادا لى اذا الدمع نفـــد
واذبلى يا زهـــــرة الروض ولا ... تبسمى للطــــل فالعيش نكد
فلقد ولى (فريد) وانطـــوى ... « ركن مصر » وفتـــاها والسند

ويوغل فى النواح عليه والبكاء :

يا غريب الـــدار والقبـــر ويا ... سلوة النيل اذا ما الخطب جـــد
وحســـاما فـــل حـــديه الردى ... وشهابا ضـــاء وهنـــا وخمـد
قل لصب النيـــل ان لاقيتـــه ... فى جوار الدائم الفرد الصـــمد
ان مصرا لاتنى عن قصـــدها ... رغم ما تلقى وان طال الأمـــد
جئت عنهـــا أحمـــل البشرى الى ... أول البانين فى هـــذا البلد
فاسترح واهنـــأ ونم فى غبطـة ... قد بذرت الحب والشعب حصـد

ولم يكف شاعرنا هذا البكاء والنواح على أصحابه وخلصائه وانما حين استبد به الألم وهو يبكى الاستاذ الامام ويذكر المرحوم حفنى ناصف لم يتمالك أن بكى نفسه وهو يشير الى تلك الارهاصات التى تلازم الشعراء ذلك أنه اشترك فى رثاء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مع نخبة من الادباء والشعراء وكانوا ستة على الترتيب :

الشيخ أحمد ابو خطوة ثم حسن عاصم باشا ، ثم حسن عبد الرازق ثم قاسم أمين ، ثم حفنى ناصف ، ثم حافظ ابراهيم . واتفق ان مـــات الأربعة الأولون على ترتيب وقوفهم فى الرثاء واذ فطن الى ذلك المرحـــوم حفنى ناصف بعث الى حافظ بالأبيات الآتية :

أتذكر اذ كنا على القبر ســــتة ... نعدد آثار الامام ونـنــــــدب

وقفنا بترتيب وقد دب بينـــا ... مـمات عـلى وفق الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى وقفــاه عاصـم ... وجاء لعبد الرازق المـوت يطلب
فلبى وغابت بعـده شمس قاسم ... وعما قليل نجم محيـاى يغرب
فلا تخش هلكا ما حييت وان أمت ... فما أنت الا خــائف تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولاتخف ... ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجج الهيجـاء أعزل آمنا ... فان المنايا عنك تنـأى وتهرب

يذكر هذا شاعرنا فيضمن بكاه الاستاذ الامام فى ذكراه رثاء المرحوم حفنى ناصف فيقول :

قد وقفنـا ستة نبكى عـلى ... عـالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسـة قبـلى فمضـوا ... هكذا قبـلى ، وانى عن قريب
وردوا الحوض تبـاعا فقضـوا ... باتفـاق فى منـايا هم عجيب
انا مـذ بانوا وولى عهـدهم ... حاضر اللوعة موصول النحيب
هدأت نـيران حزنى هـدأة ... وانطوى حفنى فعادت للشبوب

أما بكاؤه اسـماعيل صبرى فقـد رثاه بمطولة من عيون شعره استهلها بقوله :

نعـاك النعاة وحم القـدر ... ولم يغن عنـا وعنك الحـذر
اذا ذكرت سـير النـابهين ... فسيرة (صبرى) تجب السير

ويصف شعره :

وشـعرك كالمـاء فى صفوه ... على صفحتيه تراءى الصـور
عيون القصائد مثـل العيون ... وشعرك فيهن مثـل الحور

أما سعد زغلول فينشد فى حفل تأبينه قصيدته التى مطلعها :

ايه ياليل هل شهدت المصـابا كيف ينصب فى النفوس انصبابا

وفيها يقول :

أين (سعد) ؟ فذاك أول حفـل ... غاب عن صـدره وعاف الخطابا
لم يعـود جنوده يوم خطب ... أن ينادى فـلا يرد الجوابا
انهـا النكبة التى كنت أخشى ... انهـا الساعة التى كنت آبى
انهـا اللفظة التى تنسف آلا ... نفس نسفا وتفقر الأصـلابا

ومنها يقول :

خرجت أمة تشـــيع نعشـــا　　قد حـوى أمة وبحرا عبـابا
حملوه على المدافـــع لـــا　　أعجز الهــام حمله والرقابا

ويشير حافظ فى رثاء الزعيم ســعد زغلول الى النعى الذى ساقته « التيمس » حين وافاه الأجل بقوله :

ساقت (التيمس) العزاء اليـنـــا
وتوخت فى مدحـــك الاســــهابا
واعتراف (التاميز) يا (ســعد)
مقيــاس لـــا نال نيلها وأصـــابا

ثم يعدد مناقبه :

يا كبـــير الفؤاد والنفس والآ　　مال أين اعتزمت عنـا الذهابا
كيف ننسى مواقفـــا لك فينا　　كنت فيهـا المهيب لا الهيابا ؟
كنت فى ميعة الشباب حساما　　زاد صـــقلا فرنده حين شابا

ولله دره وهو يبكيه بما هو أهل له :

جـــزع الشرق كله لعظيـــم　　مـــلأ الشرق كله اعجـــابا
جمـــع الحق كله فى كتاب　　واستثار الاســـود غابا فغابا
ومشى يحمـــل اللواء الى الحق　　ويتلو فى النـــاس ذاك الكتابا
اى مكر يدق عن ذهن ســـعد　　أى ختل يريـــغ منه اضطرابا
عجزت حيلة الشـــــباك وكان　　الشرق للصيد مغنما مستطابا
كلمـــا أحكموا بأرضك فخـــا　　من فخاخ الدهاء خابوا وخابا
أو أطاروا الحـــمام يوما لزجل　　قابلوا منك فى الســماء عقابا
قـــد بلوناك قاضيا ووزيرا　　ورئيســـا ومدرها خـــلابا
فوجدناك من جميع نواحــــ　　ــيك عظيـــما موفقا غـــلابا

ويرثى (باحثة البادية) وهى السيدة ملك ناصف بنت المرحـــوم حفنى ناصف :

ملك النهى لا تبعـــــدى　　فالخلق فى الدنيا ســـير
انى أرى لك ســـــيرة　　كالروض أرجـه الزهر

وفيها يقول :

لا كان يومك يـــــوم لا　　ح الحزن مختلف الصور

علمت هاتفة القصـــو ر نواح هاتفة الشـجر
وتركت أتراب الصبا حزنا يقطعن الشـعر

ويعلل شدة حزنه وجزعه بما لمسه من جزع أبيها وفزعه :

أنا لم أذق فقد البنـــ ـين ولا البنات على الكبر
لكننى لـــا رأيت فؤاده وقـــد انفطر
ورأيته قد كاد يحـــ ــرق زائريه اذا زفر
وشـــهدته أنى خطا خطوا تخبـــل أو عثر
أدركت معنى الحزن حز ن الوالدين ، فمـا أمر.
يا بـــرة بالـــوالد ين أبوك بعـــدك لا يقر

وفى هذه النماذج التى اقتطفناها من شعر حافظ فى رثائه أصدقاءه واخوانه فى النضال ما يضىء الطريق أمام المتـــأمل ، وهى فى سهولتها وجزالتها ووضوح مراميها ومعانيها غنيةعن التعليق ، فكلها تنضح بالحب والوفاء وترديد جلائل الأعمال وحسن الوفاء فى جميل العزاء ٠

فاذا عرضنا قليلا من نمـاذج وفائه للأحياء من صحابته وهو يبعث اليهم بالتحية ، أو ينشدهم مكرما اياهم في مناسبات التكريم فمـا أروع ما يتصيد الشاعر من فريد المعانى فى صوغه لهذا النـــوع من القريض الخالد وما أمتع ما يزجيه للقلب والعقل معا من أسلوب رائع يضم المعنى البكر ٠

ان الخيال الرائق حين يتصيد المعنى العذب فى الأســلوب البديع ليشجى صاحب الفكرة المتأمل ، يقول حافظ فى معرض مدحه أســـتاذ القريض محمود سامى البارودى عام ١٩٠٠ م :

كلانا له عذر فعـذرى شبيبتى وعذرك انى هجت سيفا مجردا
هوينا فما هنا كما هان غيرنا ولكننا زدنا مـع الحب سؤددا
وما حكمت أشواقنا فى نفوسنا بأيسر من حكم السماحة والندى
نفوس لهـا بين الجنوب منازل بناها التقىواختارها الحبمعبدا .

وهو شعر رفيـــع ينطق بالحكمة ويضم جوهر المعانى وأبكار الفن الشعرى الأصيل ٠ انه يناجى شاعرا فحلا من شعراء العربية بل أســتاذ الشعراء فلا عجب اذا ارتفع فى التعبير :

ورحت الى حيث المنى تبسـعث المنى
وحيث حدآ بى من هوى النفس ماحدا

ولا بدع أن يفتن فى ابراز قدرته وحسن تودده :

كذلك لم أذكرك والخـطب يلتقى
به الخطب الا كان ذكرك مسـعدا

فهو شديد الوفاء بعيد الترسل فى المدح والتعبـير بخياله الذى يلابس أحاسيسه أشد ملابسة ، ويدفق من خوالج نفسه وهواتف شعوره عن اخلاصه وحبه وعميق ولائه لمن يمدحه من محبيه ·

ذلك شأنه وهو يذكر الاستاذ الامام بقوله :

كأن فـؤادى ابرة قـد تمغطست
بحبـك أنى حرفت عنـك تعطف

كأن يراعى فى مديحـك سـاجد
مدامعه من خشـية الله تذرف

الى أن يقول وهو يطوع قلبه وقلمه لهذا المدح البعيد فينتزع منـه صورة جديدة ليكون داعيةللاصلاح ونذيرا بهفىتنديده بالبدع المستهجنة

امام الهدى! انى أرى القوم أبدعوا — لهم بدعـا عنها الشريعـة تعزف
رأوآ فى قبور الميتـين حياتهـم — فقاموا الى تلك القبـور وطوفوا
وباتوا عليهـا جاثمين كأنهم — عـلى صـنم للجـاهلية عكف
فاشرق على تلك النفوس لعلهـا — ترق اذا أشرفت فيهـا وتلطف
فانت بهم كالشمس بالبحر انها — ترد الأجاج الملح عـذبا فيرشف
له كل يوم فى رضى الله مـوقف — وفى ساحة الاحسان والبر موقف

وهو الشاعر الذى لايذهب بدا خياله فى ترجيع هذا اللحن على نفس الوتر ، وفى مدحه للاستاذ الامام :

يا أمينـا على الحقيقة والافتا — ء والشرع والهـدى والـكتاب
أنت نعـم الامام فى موطن الرأ — ى ، ونعم الامـام فى المحراب
خشـع البحر اذ ركبت جواريـ — ـه خشوعالقلوب يوم الحساب
وبـدا مـاؤه كخاطرك المصقـ — ـول أو كالفرنـد أو كالسراب
يتجـلى كأنه صـحف الأبـ — ـرار منشورة بيوم المـآب

فهى تسرى كأنهـــا دعوة المضـــــطر فى مسبح الدعاء المجـاب
وسرى البرق للجزائر بالبشـــــــرى بقرب المطهـــــر الأواب

ثم ينتفض الشاعر الى ماستوعبته نفسه من كفران مصر بالأعلام من بنيها ، ويودع شعره ما استكن فى خاطره عنها :

ليت مصراً كغيرها تعرف الفضـــــل لذى الفضل من ذوى الألباب

ولله در الشاعر الذى سخره القدر للدفاع عن حوزة الشيخ الامام بما هو أهل له ، وكأن قدر الله اختاره سيفا مصلتا يجرى على رقاب منافحيــه ومعانديه ، وجاحدى فضله ، ولو قد قدر للامام أن يعيش الى مابعد عهد حافظ لوقف على صدى هذا الوفاء الذى يتجسد ويخلد فى ديوانه، ويحدث العصور بمكانته ، وبما أضفاه عليه من حمد ، وما أسبغه من تكريم وان كانت للامام منزلته فى القلوب وذكراه العاطرة فى النفوس ٠

أن صـــوروك فانما قد صوروا تاج الفخـار ومطلع الأنوار
أو نقصـــوك فانمـا قد نقصـوا دين النبى محمــــد المختـــار
لن يحجبوك عن الورى أو يحجبوا فلق الصباح ومشرق الأقمـــار
سخروا من الفضل الذى قد أوتيته والله يســـخر منهم فى النـــار

وهو يربط على قلب سعد اذ يناصحه وهو يفاوض المستعمر :

فاوض ولا تخفض جنـاحك ذلة ان العدو ســـلاحه مفــــلول
فاوض فخلفك أمة قد أقســـمت الا تنام وفى البلاد دخيــــل
عزل ولكن فى الجهاد ضراغــم لا الجيش يفزعها ولا الأسـطول

ولعل شاعرنا لم يكن متثبتا من أن العدو المستعمر لايمكن أن تفعل به الا السنان والقوة والمنافحة ، فهو حسن الظن بوسائل السلم الآنفــة التى ما كانت لتنفع مع هؤلاء الثعالب فيناصح المفاوض المصرى بقوله :

أسطولنا الحق الصراح وجيشنا الحجـــج الفصاح وحربنـا التدليـل

ولكنه وهو يعلم ألا سلاح لبنى وطنه الا هذا السلاح ، سلاح الحق الماثل يؤكده ويؤيده ويستنصر به :

خضها هنالك باليقين مدرعـــا والله بالنصر المبـــين كفيـــل

وممارسة الشاعر لاساليب المستعمر تمنحه الفرصة والقدرة عــلى كشف ألاعيبهم وأحابيلهم :

لا تقرب التاميز واحــذر ورده مهمـــا بدا لك أنه معســـول
الكيد ممــزوج بأصــــفى مائة والختــــل فيه مذوب مصقول

القوم قد ملـــكوا عنان زمامهـم ولهـــــم روايات به وفصـــول
ولهم أحابيـــل اذا القوا بهـــا قنصـوا النهى فأســيرهم مخبول
فاحـــذر سياستهم وكن فى يقظة ســـعدية ان الســـياسة غـول
ان مثـــلوا فدع الخيال فانمـا عند الحقيقة يســقط التمثيــل
ولـــكل لفظ فى المعاجم عندهم معنى يقـــال بأنه معقـــول
جمعوا عقـــاقير الدهاء وركبـوا ما ركبوه وعنـــدك التحليـــل
فادفع وناضـــل عن مطـالب أمة يا ســـعد أنت أمامها مسئول

وليت الشاعر عاش على عهدنا ليرى كيف تكون معاملة المستعمر وما هي أجدى الوسائل وأليقها به ، ويقف على ماوقفنا به من عزة ومنعة وما الحقناه بذلك المستعمر من هوان وذلة •

لعل روحه الطاهر فى بحبوحة الخلد ينعم بما كان يلذ لخياله أن يتشهاه حيا من باوغ وطنه مآربه على يد أبطال نهضتنا الذين استطاعوا أن يحققوا لوطننا أعز أمانيه .

ورحم الله حافظا وهو لايزال يردد :

فاوض فان اوجزت شرا فاعتزم واقطع فحبلك بالهدى موصـول
وارجع الينا بالـــكرامة كاسـيا وعليك من زهراتها اكليـــل

وحسبه أنه يدعو لعمل ما وسعته أمته من قدرة على العمل فى منافحة الغاصب ومجاهدته للخلاص مستعينا بالله وهو نعم المعين •

انا ســــتعمل للخلاص ولاننى والله يقضى بينـــــا ويديـل

فهو مؤمن بآياته وسنته فى الأولين :

كم دولة شهد الصباح جـــلالها وأتى عليها الليـل وهى فـلول
وقصور قوم زاهرات فى الدجى طلعت عليها الشمس وهى طلول

ثم يخاطب ناشئة البلاد المجاهدة :

يأيهـــا النشء الـــكرام تحيـــة كالروض قد خطرت عليه قبـــول
يازهر مصر وزينهـــا وحمـــاتها مدحى لكم بعد الرئيس فضـــول
جدتم لها بالنفس فى ورد الصبا والورد لم ينظر اليـــــه ذبول
كم من سجين دونهـــا ومجاهـد دمه على عرصاتهـــا مطـــلول
سيروا على سنن الرئيس وحققـــوا أمل البـــلاد فكلـــكم مأمول
انتم رجال غـد وقد أوفى غـــد فاستقبلوه وحجـــلوه ، وطولوا

اهلا بنابتة البلاد ..

أهلا بنابتـــة البـلاد ومرحبـــا   جددتم العهد الذى قد أخلقـــا
لاتيأسوا ان تستـــتردوا مجـدكم   فلرب مغـــلوب هوى ثم ارتقى
مـــدت له الآمـــال من أفلاكهـــا   خيط الرجاء الى العـــلا فتسلقا
فتجشـــموا المجـد كل عظيمة   انى رأيت المجـــد صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطها   ســـببا الى آمالها وتعلقـــا

حافظ ابراهيم

ديوان حافظ

ومن الوفاء للأوفياء ، أن نذكر ببالغ التقدير تلك المشاعر النبيلة التى حدت نفرا من ذوى الرأى والتوجيه الى اخراج ديوان حافظ .

ولم يكن اخراج هذا الديوان من حيث اختيار وقته رهن المصادفة البحت وانما جاء مع الزمن على ميعاد ، ومع الأحداث على تقدير . فبصر الشعب بأمره ، وحكمة الأدباء الأعلام ، وتقدير المسئولين كل ذلك قد التقى عند الحاجة الملحة والدعوة لاخراج هذا الديوان ، وكانت المناسبة التى اختير لها مناسبة وطنية جليلة هى الاحتفال بذكرى الشاعر .

يحدثنا الاستاذ احمد أمين عن ظروف جمع ديوان حافظ ابراهيم واخراجه بقوله :

رأى على زكى العرابى .. وزير المعارف العمومية حبا منه فى الادب ، وتقديرا لحق الوطن أن يجمع شعر حافظ ، وتقوم على طبعه وزارة المعارف ، وكان من حظى أن ندبنى للقيام بهذا العمل ، فتفضل وطلب الى جمع شعره وضبطه وشرحه ، وكان من حظى أنشاركنى فى هذا العمل الاستاذان أحمد الزين ، وابراهيم الابيارى .

وبهذا تقوم مصر حكومة وهيئات بواجب التكريم لشاعرها ، فترعى تراثه ، وتحفظ لها حق الوفاء والتقدير .

واذا كان لهؤلاء السادة الأجلاء من فضل فى جمع الديوان ، واحتمال الجهد والعنت فى سبيل تقديم متعة فنية ، وطرفة أدبية لأبناء هذا الجيل ، فان مصر بهذا العمل العظيم قد قدمت للشباب ، وللأجيال القادمة تاريخا لجهاد مصر فى سبيل حريتها . بتلك المشاعل ، والأضواء التى سطعت فى سماء العروبة والشرق وان جذوتها لمشبوبة مستعرة فى قلوب الأحرار ، لاتخبو ، ولا تخمد أبدا .

فمدرسة حافظ أروع مدرسة فى العصر الحديث ترسم بها مصر ان شاءت منهجا لبعث الشباب ، وتربية روح الوطنية، فهو غذاء الأرواح تتلفت عليه الأمم ، تتخذ منه السنن الواضحة التى ترشد الى سواء السبيل .

دين الحرية

ذلك هو دين محمد صلى الله عليه وسلم الذى جاء به للناس ، يدعوهم الى الحق ويرشدهم الى الهدى وينير أمامهم الطريق ٠

يدعوهم الى عبادة الله وحده ، وأن يمسكوا بكتابه ، ويسيروا عـلى الصراط المستقيم وينهاهم عن الضلالة ، والزيغ ، والذلة لغير الخالق الذى فطرهم وأسبغ عليهم نعمته ٠

أرسى سيد الخلق مبادىء الدين بالكتاب والسنة ، ونبه صحابتـــه رضوان الله عليهم الى مواقف العزة والكرامة ، وضرب لهم أروع الامثال فى حياته الكريمة مرشدا وهاديا ، وداعيا الى الله ورسوله ٠

وكان صلى الله عليه وسلم ، يرى القربة لله ولرسوله فى فك الرقاب، وتحرير البشرية من طغيان المادة وسيطرة الشهوات ، وتسلط النزوات .

وبالتوحيد أرشد الى ان الحرية أساس الدين، فلاتعبد لغير الله قهار السموات والارض ٠ وأرشد فى التعبد لله أنه حرية مطلقة ، اذ أن عبـــادة الخالق سبحانه ، أداء حق الوفاء والشكر للرب الرحيم ٠

ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، (اياك نعبد ، واياك نستعين) ، (الا تعبدوا الا الله) ، (يريد الله ليطهركم) ٠

لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ــ كلكم لآدم ، وآدم من تراب ــ ان أكرمكم عند الله أتقاكم ٠

سنن كونية عليا ، جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لينبه النفس الضالة الى حقوقها فى الحياة وينبه الى أن الله سبحانه وتعالى ، انما منحهـا الحياة ، لتعيش عزيزة كريمة ، فلا يتسلط عليها مستعبد باسم الدين ، أو باسم الدنيا ، فالدين لله ، والدنيا سعى وعمل وكدح وجهاد ٠

وبهذا كانت هذه الدعوة بمثابة : ميثاق السلام ، ونداء التحرير ، اذن به فى الناس رسول رب العالمين ٠

ومن عهد آدم الى نبوة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، عـلى تقادم الرسالات وتواكب العصور ، كانت هذه الحقيقة تسير مع الفطرة ، اله واحد ، ورسول هاد ، وأمة واحدة .

يدعو الرسول الانسان الى عبادة الله ، والتحرر من قيود الشـيطان وعبوديته ، ثم الاخذ من الحياة بحقه أبيا كريما ٠

وقد شدد الدين فى التوصية والتحذير ، بألا ينزل الانسان عن حقه

فى هذه الحرية التى منحها الله اياه ، وأوضح أن الكفر والضلال والانحراف ان هى الا قيود الحرية والأغلال التى يصنعها الشيطان فى عنق البشرية ٠

وأرشد الدين الى أن هذه الحرية منطلقة ، فهى دين الله وشرعته فى الدنيا والآخرة ٠

وآية هذه الحرية تلك النعم التى أسبغها الله سبحانه وتعالى على عباده وافاض منها على الانسان فيضا زاخرا « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » منح كريمة سابغة ، ومنن جليلة فاخرة ، وحياة رحبة ، فى أرض واسعة وأجواء محلقة ترتد عن مداها العقول والافهام ٠

وخلق الله العقل فكرا حرا منطلقا ، ومنح الحرية فى التفكير والتدبر والتامل فى مشاهد هذا الخلق ، والسبح فى آفاق السموات والارض والغوص وراء المكنون من النفائس والذخائر من منح الخالق ، ومواهبه وهى لاتعد ، ولا تحصى ٠ وأرشد الله سبحانه الى أن آلهدى هدى الله ، وأنه سبحانه مدبر الأمر ــ نور السموات والارض ، والرزاق ذو القوة المتين ، ولم يكن هذا تهديدا أو وعيدا ، وانما جاء تذكرة وتبصيرا ٠

تذكرة بحق الرب على من وهبهم الحياة ، وذكرى الا يتسلط عليهم الغرور :

ذلك الشيطان ، بحبائله ، ونزعاته فى استعبادهم ، واذلالهم وتشكيكه فى قيمة هذه النعمة الظاهرة والباطنة ، التى يتعلق بها الهدى والرشاد لهم والسعادة فى الدنيا والآخرة ٠

الهكم آله واحد ، ذلكم الذى يحفظ عليكم حريتكم فى الحياة ، وقد رسم لكم السبيل واضحة لهذه الحرية ، ومنحكم القوى الجسمانية والفكرية والروحية ، ووهب لها بنوره القدرة على التمييز ، والتذوق (لئلا يكون للناس على الله حجة) ٠

ثم هو بعد مثيبكم على استمساككم بهذه الحرية ، فهى نعمة وهبها لكم ولا يرضى لعباده أن ينزلوا عنها لمغرور مضل ، يهوى بهم فى قرار سحيق

ومن رحمة الله ، أن يبشرنا ويوقظنا ، وينبه الغافل منا الى أن هذه النعمه موصولة وانها مستمرة الى آبد الآبدين وان للانسان حياتين دنيوية ، وأخروية ، يستمتع فيهما بسمو هذه المنحة ، فاذا مافرط فيها فى دنياه وسلبها بختال مغرور مضلل ، محتال وافق هواه ، فهى مسلوبة منه فى الآخرة ، بل معذب بها ، ومؤاخذ بجرم تفريطه فيها ٠

حق اقدس ، ونعمة جزيلة ، تفضل المنعم بها على عباده بأن وهبهم اياها ، وأرشدهم بالعبادات وطهرهم ، ليزع عنهم كيد الشيطان ودعاهم بأن يعيشوا بهذه النعمة أمة واحدة فى سعادة وهناءة ومن فضل الله سبحانه أن يدخر الجزاء الأوفى للمستشهدين فى سبيل حريتهم والدفاع عن كرامتهم فلا يفرطوا فيها ٠ ووعدهم الوعد الصادق بأن يجزل لهم العطاء ، وبشرهم بأن لهم الدرجات العلا ٠

ذلك فضل الله ، فى منح البشرية هذه الهداية ، رحمة ونورا للعالمين ولم تكن العبودية للنفس البشرية فقط ، وانما جاءت فى صور شتى وعلى أنماط ٠٠

فاستعباد الانسان فى سلبه حقوقه ، والتسلط على مقومات حياته وعزته واستعباد الشعوب فى سلبها حريتها ، وحقوقها ، والتسلط على مقوماتها وما يتصل بأسباب نهضتها ٠

والعبودية التى تقابل الحرية ، تفسر فى عصرنا هذا بمعنى الاستعمار بل أن الاستعمار ضرب من أفانين العبودية ٠ تلك التى تنشب أنيابها فى الشعوب الحرة بأشكال شتى وصور مختلفة ، وتلتقى جميعا عند سلب الانسان حقه ، اذلاله واستعباده ٠٠

خير أمة أخرجت للناس

واذا كان مانح هذه الحرية ، وهو الله سبحانه وتعالى يخاطب فينا مشاعر العزة والكرامة فيؤذن فينا بأنا خير أمة أخرجت للناس ، فكيف نرضى بحياة الهون والذلة ، لننتكس ونرتكس ، واذا الله سبحانه ، قد أوجدنا فى هذ البقعة المباركة من الأرض الغنية بخيراتها وبركاتها ٠ والتى تمتاز بموقعها وجوها وما أفاض الله فيها من متن يكشف عنها الزمان جيلا بعد جيل ، ويؤكد لنا فيها ذلك الكشف كل يوم بأن مذخور الحياة الحرة الكريمة فى هذه الامة وأن مقومات العزة والسعادة فيها ، وأن وسائل النصر والمتعة والغلبة فى أرباضها ٠

كيف بعد ذلك نغضى عن هذه المكانة الرفيعة التى جبانا الله اياها ٠ ؟

كيف نترك هذا المنزل الكريم ٠٠ ونانس بحياة الدعة والضراعة فى ظل قوام يجوب أرضنا فيقف على ما فيها من مقومات السيادة وثم ينصب شراكه ، ثم يسلبنا هذا الطماح ٠

ومن عهد الفراعنة الى عهدنا هذا ، وتاريخ هذا الوطن يسجل تلك المشاهد التى كشف عنها هذا التاريخ الطويل ، فالشرق حصن التاريخ ٠

واذا كانت مصر ، على عهد الفراعنة ، وعلى أيام الفرس ، والرومان والعصور الوسطى والعثمانيين ، وفى ظل الحملة الفرنسية ٠ مطمع الغزاة والفاتحين لمكانتها تلك من خريطة الوجود ٠

واذا كان الشرق بصفة عامة هو الهدف الاول لاستغلال الغرب وسيطرته وما تعرضت بسببه مصر الى احتلال الانجليز بلادنا أكثر من سبعين عاما وهم يماكروننا طوال هذه المدة بالوعود أثر الوعود للجلاء ، ولا يصدقون فى وعد واحد منها ، اذا كان ذلك بسبب شىء فهو بسبب هذه النعم التى اختص الله بها هذه المنطقة المباركة ، وموقعها بين العالم ٠

ولقد تعرضت بلادنا فى الحقبة الاخيرة من تاريخنا الى هذا الخطر

الداهم ، وهو الاستعمار ولقد شب النزاع بين دول العالم بسبب امتياز موقع هذه البلاد • ورغبة كل دولة فى السيطرة علينا ليكون الشرق كالبقرة الحلوب •

فهذه فرنسا تسيطر على مصر بعد الحملة الفرنسية التى وجهتها فى الحقيقة الى تهديد مصالح بريطانيا فى الشرق ، اذ يمكن لها تقويض نفوذها فى الهند والتحكم فى التجارة بين الشرق والغرب عن طريق القناة

وتعود بريطانيا فتفطن الى الخطر الداهم الفرنسى فأمكنها بعد دحر الاسطول الفرنسى فى أبى قير ، استعادة مركزها فى الشرق ، ثم كرست جهودها لطرد الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١ لتحل محلها فى التسلط على منطقة الشرق الاوسط •

وبتسلط هذه الدولة علينا وقعنا فى مخالب ذئب مخادع ، يضرب بعضنا ببعض ويخلق الأجواء المناسبة لبث الفرقة • والخلافات بين عناصر الشعب وذلك ليستطيع أن يعيش فى ظلال هذا الخلاف ويبتز من ثرواتنا ما يمكن له بين الشعوب من سيطرة وحياة •

وتطور الموقف الدولى فى أثناء الحرب العالمية وبعدها التى اندلعت شرارتها فى البلقان• وخرجت بريطانيا من هذه الحرب وهى تعض بالنواجذ على مصر ، لما لها من موقع دولى ممتاز ، وللأهمية التى لمستها من تسلطها على القناة •

وفى غمار الحرب الثانية ظلت بريطانيا جاثمة على صدر هذا الوطن تمتص منه الحياة وتعد لنفسها ولجيوشها منه الذخيرة ، والمدد وتنكل بشبابه وشعبه على الطريقة التى رسمتها فى سياستها •

وبرز الوعى القومى ، وهبت مصر تجالد المستعمر وتنافحه ، وتاريخ الاستعمار اليوم ، وبعد أن قامت الثورة بضربتها القاضية على هذه الدولة المخاتلة فأطاحت بمقومات الفساد ، وانتزعت جرثومة الشر ، وهيأت لمصر عيشا رغدا وحياة عزيزة فى ظل الحرية والكرامة ، تاريخ الاستعمار اليوم ليس فى حاجة الى أن تقصر عنه الفصول الضافية • فى هذا البحث لنكشف لأبنائنا وللتاريخ عنه • وتاريخ الانجليز فى مصر يمتد الى سبعين عاما قضيناها فى بطولة وكفاح واستشهاد •

ودور شاعرنا فى هذه الحقبة الهامة من تاريخ التحرير الوطنى •• دور الباعث الروحى والموجه للشباب الثائر ، فى الاستمساك بالحرية والزود عنها ومناهضة المستعمر ، وحسبه أنه كان يذكى نار الحماس فى شبيبة مصر والشعب العربى ، فى كل حادثة يرى فيها للمستعمر تسلطا ، وسلبا ، وطغيانا ، وقنصا لحق هذا الشعب المهيض •

واذا كان شاعرنا (حافظ ابراهيم) قد تجاوب مع وطنه فى تلك العصور الخوالى فأدى واجبه كاملا كمواطن كريم وهب الله له ذلك السلاح فسله وشهره فى وجه الغاصب وظل يخوض به ميدان السياسة والادب والحرية ، طوال حياته ، فهو انما كان يأخذ بمذهب العزة والقومية التى نادت بهما شاعريته وموهبته •

كان على عهده وطنيون من الشعراء وغيرهم من أصحاب الملـــكات والمواهب وقد أدى كل منهم واجبه • غير أن هذا السيف البتار كان شديد البأس قوى المراس ، وكانت شعلته شواظا من نار يرسله ارسالا على عدو الوطن وهو يهتف :

اذا نطقت فقـــاع السجن متكـأ　　وان سكت فان النفس لم تطب

فهذه العزة والكرامة فى نفسه تأبى المذلة لوطنه ثم تأبى عليه أن يقف من عدوه وعدو بلاده موقف الخنوع والاستسلام •

ولقد ظل الشعر العربى وعاش من عهده الاول يخوض غمار المعارك الحربية والسياسة والوطنية بجانب مسايرة الحياة اللاهية •

فاذا وقفنا بقمة تاريخ الشعر العربى على عهد امرىء القيس وأضرابه من الفحول وجلونا للقارىء الكريم صفحة مشرقة لحياة الشعراء وتجاوبهم مع العصور التى عاشوا بها ومشاركتهم فى شئون الحياة والسياسة والاجتماع

بدأنا بهذا الشعور الجياش الذى انبثق من عواطف النفس •

ذلك قول امرىء القيس وهو فى طريقه الى قيصر ليستعديه على الاخذ بثار أبيه واسترداد ملكه :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه　　وأيقن أنا لاحقـــــــان بقيصرا

فقلت له لاتبك عينـــك انمـــا　　نحاول ملكا أو نموت فنعـــذرا

بل استمع معى الى شعر خالد على الدهر ، انها نفحة لاتزيدها الأيام الا جدة وقوة انه عنترة ينشد شعر العزة والخلود :

ومدجـــج كره الكمـــاة نزاله　　لا ممعن هـــربا ولا مســـتسلم

سبقت يداى له بعـــاجل طعنـة　　بمثقف صـــدق الكعوب مقـوم

فشـــككت بالرمح الأصم ثيـابه　　ليس الكريم على القنـــا بمحرم

وكان الكميت شاعر الشيعة فى القرن الاول يحتج للعلويين على بنى أمية الذين أخذوا الخلافة لأنفسهم :

يقولون لم يورث، ولولا تراثه　　لقد شركت فيـــه بكيل وأرحب

ولانتشلت عضـــوين منها يحابر　　وكان لعبد القيس عضو مـؤرب

فان هى لم تصلح لحى ســـواهم　　اذا ، فـذوو القربى أحق وأقرب

فهو يعدل على منهجه وحجاجه : لو لم يورث النبى صلى الله عليـــه وسلم • لشاعت الخلافة حقا للقبائل العربية جميعا • وهو رأى قد ينقضه رأى غيره •

ويحتج (عبيد الله بن قيس الرقيات) لقريش، في قوله :

حبذا العيش حين قومي جميـــع لم تفرق أمورها الأهـــواء
قبل أن تطمـــع القبــــائل في ملك قريش وتشـــمت الاعـــداء
أيها المشتهي فنــــــاء قريش بيـــد الله عمرهـــا والفنــــاء

ومنزلة الشاعر من أمته منزلة القيادة والريادة، فهو على تقادم العهود عزتها وكرامتها، وسيفها الذي لايفل، ولا يستنيم وشـــخصية الأمة في شخصية شاعرها • فهو يهتاج لها ويثور معها وينافح باسمها • ويفخر بأمجادها • ويرمي عن حوزتها •

ولله در لبيد بن ربيعة العمري وهو ينشد :

انا اذا التقت المجـــامع لم يزل منا لزاز عظيمـــة جشـــامها
ومقسم يعطي العشيرة حقهـــا ومغذمر لحقوقهـــا هضـــامها
فضلا، وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامهـــــا
من معشر سنت لهـــم آباؤهـــم ولكل قوم ســــنة وامامهـــا

فهو يصف قومه بالنجدة ويعتز بقبيلته •

ولقيس بن الحطيم الأوسي :

ويوم بعـــاث أسلمتنـــا سيوفنا الى نسب في جسم غســـان ثاقب
فهلا لدى الحرب العوان صبرتم لوقعتنا والبأس صعب المراكب

ويرد عليه عبد الله بن رواحه بقوله :

نحامي على أحسابنا بتــــلادنا لمفتقر أو ســــــائل الحق راغب

وفي يوم الربيع وهو من أيام العرب ينشد حسان :

ونحن الفـــوارس يوم الربيـــع اذا التبس الأمر ميزانهـــــــا

فيجيبه قيس بن الحطيم :

ويثرب تعلم أنابهـــا قد علمـــوا كيف فرسانهـــــا

وفي ظل الراية الاسلامية، وقومية العروبة في مجدها ينشدنا عروة ابن زيد :

صبرت لأهل القـــادسية معلمـــا ومثلي اذا لم يصـــبر القرن يصبر
فطاعنتهم بالرمح حتى تبــــددوا وضاربتهم بالسيف حتى تكركروا
حمدت الهي اذ هـــداني لدينـــه فلله أسعى ما حييت وأشـــــكر

وينشد قيس بن زهير :

جلبت الخيـــل من صنعاء تردى ... بكل مدجـــج كالليث حـــامى
الى وادى القرى بـــديار كلب ... الى اليرموك فالبلد الشـــآمى
فأبنا القادســـية بعد شـــهر ... مســـومة دوابرهـــا دوامى
فناهضنا هنـــاك جمـــوع كسرى ... وأبناء المرازبة العظـــــام

ولزياد بن حنظلة فى الغزوات الاسلامية على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ·

تذكرت حرب الروم لـــما تطاولت ... واذ نحن فى عـــام كثير نزائله
واذ نحن فى أرض الحجـاز وبيننا ... مسيرة شـــهر بينهن بـــلابله
واذ أرطبون الروم يحمى بـــلاده ... يجاوله قرم هناك يصـــاوله

ولعتبه بن أبى سفيان ، وقد نزل بمعاوية ، وأنشده الأبيات الآتيـة يحسن له استمالة عمرو بن العاص معه على أن يمنحه ولاية مصر ·

أيهـــا المانع ســـيفا لم يهز ... انمـــا ملت على خـــز وقز
ان مصرا لعـــلى أو لنـــا ... يغلب اليوم عليهـا من عجـــز

واذا كان الاحرار يهتفون بالشعر دفاعا ، وذودا ، وحمية واستثارة فما بالك بالموالى اذا اهتاجهم القريض ، فأنشدوا دفاعا عن الشرف والحرية ذلك بشار بن برد ، يقول له أعرابى ما للموالى وللشعر ؟ فتأخذه الأنفـــة ، وينشد :

تفـــاخر يابن راعيـــة وراع ... بنى الأحرار حسبك من خســـار

وللوليد بن عتبه فى عثمان بعد أن قتل ، وقد علم أن عليا بعد مقتـل عثمان أرسل فأخذ ماكان فى داره من سلاح ·

بنى هاشـم ردوا سلاح بن أختـكم ... ولا تنهبوه ، لا تحل منـــاهبـه
وأنا خبزناكم ، وما كان منـــكم ... كصدع الصفا لايرأب الصدع شاعبه
هم قتـــلوه كى يكونوا مـكانه ... كما غدرت يوما بكسرى مرازبـه
وانى لمجتاب اليـكم بجحفـــل ... يصم السميع جرسه وجلائبـــه

وفى تولية يزيد بن معاوية ، حيث يأخذ له معاوية بالبيعة فى حيـاته يقول الدارمى الشاعر :

اذا المنبر الغربى خـــلاه ربه ... فان أمـــير المؤمنين يزيـــد !

ولأعشى ربيعة الشاعر الاسلامى وهو يتعصب لبنى أمية ويمدح عبـــد الملك بقوله :

وما أنا فيأمري ، ولا في خصومتي بمهتضم حقي ، ولا قـارع سني
وفضلني في الشـعر واللب أنني أقول على عـلم وأعرف ما أعني
فأصبحت اذ فضلت مروان وابنـه على الناس قد فضلت خير أب وابن

وللفرزدق :

ومنا الذى سـل السيوف وشامها عشية باب القصر من فرغـان
عشية لم تمنـع بنيهـا قبيلة بعز عراقي ولا بيمـاني

ولجرير يفخر بمصريته ، وعروبته :

ان الذى حـرم المكارم تغلبـا جعل النبوة والخـلافة فينـا
هل تملكون من المشـاعر مشـعرا أو تشهدون مع الأذان أذينـا
مصر أبي وأبو المـلوك فهل لـكم ياخزر تغلب من أب كأبينـا
هذا ابن عمي في دمشـق خليفة لو شئت سـاقكم الى قطينـا

وحين نسوق شواهد جرير لانغض من شعر الفرزدق في هذا الباب ٠

اذا لاقى بنـو مروان سـلوا لدين الله أسـيافا غضـابا

ويمدح الوليد :

أما الوليـد فان الله أورثـه بعلمه فيه ملكا ثابت الدعـم
خـلافة لم تكن غصبـا مشورتها أرسى قواعدها الرحمن ذو النعم

هذا هو الشعر العربي ٠ نشيد متواصل ، وقصيد متدفق في شئون القبيلة ، والدولة ، والجماعة ، رسالة صادقة معبرة ، وصحيفة ناصعة واعية فاذا عرضنا لشاعرنا حافظ ابراهيم وأشرنا الى أنه اتخذ مكانه المرموق من اعزاز القومية العربية والاشادة بمجد وطنه والوقوف الى جواره في أزماته ومتابعة العدو، ومصاولته، بالقدر الذى كان يتيسر له، اذا عرضنا لشاعرنا هذا ، وأوضحنا فنا من لسانه في القول ومكانته من الجهاد فاننا نقدم للأدب وللعروبة ، وللشباب صفحة حافلة من صفحات التاريخ سطر فيها هـذا الشاعر لوطنه كل اعزاز واكبار ، وأبان عن عنصره ، وكشف عن نفسه وعن حقيقته بما يخلده أمام التاريخ ويجعلنا نهتف به في كل عصر ، بأنه شاعر الوطنية العملاق ٠ بل انه لشاعر القومية العربية ٠

تم الكتاب

١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٠٧٥٣ ـ ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET